أمير تاج السرّ

اشتهاء

رواية

دار الساقي

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

أمير تاج السرّ

اشتهاء



دار الساقي

الطبعة الأولى، 2014

ISBN 978-6-14425-743-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

تنويه ١

هذا النص كتبته أولاً عام ١٩٩٩، وصدر بعنوان **صيد الحضرمية** في طبعتين محدودتي عدد النسخ، الأولى عن "مركز الدراسات السودانية" بالخرطوم ٢٠٠١، والثانية عن "مركز الحضارة العربية" بالقاهرة ٢٠٠٢، وقد عدت إليه مؤخراً، واكتشفت فيه خامة جيدة لعمل كبير استهوتني فكرة إعادة كتابته من جديد، ليصدر تحت عنوان آخر: **اشتهاء**.

تنويه ٢

هذا النص مستوحى من قصة حقيقية عايشت بعض وقائعها.

-١-

كان صيداً وعراً لحورية مصلح في ذلك الصباح.

فمنذ شاهدت المدرس الغريب في سوق البلدة، وشمّت ما استطاعت شمّه من تفاصيله، لم تفارقها حكة الجلد ولا عتمة العينين ولا ارتعاشة الجسد المبالغ فيها، وبدأ صداع "الشقيقة" البربري، الذي هزمته منذ عهد علوب الحضرمي، أحد أزواجها السابقين، يتقافز؛ يجمع عدّته وعتاده لبناء مساكن في رأسها مرة أخرى.

كان يسأل عن "تنباك" من صنف العماري الذي يرد من مدينة الفاشر في غرب البلاد؛ يعيد إلى رأسه المضعضع بعض التماسك، وكانت تسأل عن سجائر "كنت" أنيقة ومهرّبة لتغسل الرئة من وسخ سجائر "البرنجي" المحلي الصعلوك، كما اعتادت في الأعوام الأخيرة.

التقى السؤالان بغتةً عند شاطر، تاجر الأغذية والمزاج المرموق في البلدة؛ ركضا إلى أذنيه معاً، احتكّا في الطريق وتعارفا، ثم عادا ممتلئين إجابةً من التاجر معاً.

فجأةً عطس الغريب بقوة. رائحة في التنباك العماري، وارد الفاشر، فحلة وقوية يعرفها المزاجيون، اندلقت إلى خياشيمه، قبّلت المزاج

المضعضع حتى عطس. أحست حورية بعطاسه غريباً، أجنبياً، ومهرّباً مثل سجائر الكنت؛ أيقظ أشجانها القديمة؛ بعث فيها روحاً طائشة ونشاطاً غريباً وجدّة مدهشة. أحبت عطاسه بتهور، وجادلت في السعر المعروف لسجائرها المهربة، وهي كاذبة، لتطيل وقائع الحب والدهشة.

عطس الغريب مراراً وهو يقرّب كيس التنباك من أنفه ويبعده بنشوة، وتهوّرت مراراً وهي تشتري أشياء لا تستخدمها عادةً، و لم تشترها من قبل أبداً، وبدت وقفتها وهي حاضنة ذهولها المباغت ورعشتها العميقة وقفة بناءٍ هشّ يتلاعب به مطر غزير، وحين كوّر سفّة كبيرة من التنباك وضعها على شفته السفلى وانصرف راضياً. كانت في ذروة الذهول، لدرجة أنّ شاطر أيقظها بلكزة من كيس مشترياتها غير الضرورية.

كانت قد تجاوزت الأربعين منذ زمن، بشعرٍ مصبوغ حتى جذوره، وحنّاءَ متقنة جداً على يديها وقدميها، وجسدٍ رشيق الشحم، ورائحة طلح معتّق تنزّ منها، وعينين رمّهما كحلٌ استفزازي وأوقدهما ناعستين، وكان قد تجاوز الأربعين، هو الآخر.

كانت من دماء البلدة الأصيلة، حقنت في عروقها نطفة، وترعرعت في جسد البيئة حتى كبرت، وكان دماً جديداً استخلصته وزارة التربية والتعليم من إحدى قرى الشمال البعيد، وحقنته في عروق البلدة منذ عدة أيام فقط مدرّساً ابتدائياً لمواد العلوم والدين والجغرافيا.

لم يكن "أعمشَ" لكنّ نظارة الشمس فوق عينيه كانت توحي بعمشه؛ لم يكن واهن الجسد لكنّ وهن الغربة والسفر والوساوس كان يتقاذفه؛ لم يكن أصلع الرأس لكنه يخطو إلى الصلع بجدارة؛ لم يكن

أنيقاً ولا جذاباً ولا لامع الحذاء، ولا أهلاً لليالي الطيش في بلدة جانبية، لكنّ حورية مصلح لم تنسه أبداً. في ذلك الصباح المختلف جداً عن صباحاتها المألوفة جرّدها من نعمة الرسوخ السَني؛ اندلق عطراً خطراً تناثر في رأسها وعينيها وصدرها اللاهث ومرفقيها ومسار تقلباتها لثلاثين سنة قادمة. كانت تحسّه في كل نفس من سجائر الكنت المهربة التي أخذت تشعلها واحدة إثر أخرى؛ تعصره في خيالها بقوة وتجسّه بأنامل الخيال، وتعدّ الفطور والقهوة وشاي الحليب الكامل الدسم من دون جوع أو عطش أو مروءة.

كان الصباح القروي أحد عشّاقها الأثيرين، يمدّها في العادة بنسيم قوي وظلال وارفة وسيمة تعوّدت على مغازلتها والاسترخاء فيها منذ أمد، وطوال أربعين عاماً تعاقب فيها الحلو والمر، والناعم والخشن، والباكي والمقهقه، والمستقيم والمعوج، من طيش أهل أمها الغجر إلى كفالة أهل أبيها الحضارم، إلى "قبر قبرسلاس" المغني وعلوب الحضرمي و"شاشوق" رمز القوة و"هندوب الأتمني" الفارس القادم من بعيد. لم تقل لصباحها العشيق: أفّ، و لم تنهره.

أطفأت سيجارة الكنت العاشرة في ذلك الصباح، و لم تكن تدخّن في العادة سوى واحدة أو اثنتين، اقتلعت شتلة ليمون كانت تنمو يتيمة في فناء البيت وكانت أثيرة لديها فيما مضى، تسقيها بلا عطش، ألقت بها إلى خارج البيت، نادت على صبي صغير من صبية الجيران كان يلعب بكرة من القش قرب بيتها، دغدغته في أحشائه وقرصته في فخذيه، صفعته صفعتين قاسيتين وأفلتته إلى أهله باكياً. نادت على امرأة من جيرانها، كانت تناديها من حين لآخر، تملأ بها فراغاً في

الأنس حين يغيب خادمها المخلص "الغشيم كرو"، تجلسان في ظل الصباح جارتين متحابتين، وتفترقان جارتين متحابتين أيضاً. شكت للجارة نظرات زوجها الوقحة التي تطاردها باستمرار، وهيجان عيالها المشردين وهم يقذفون الحصى في بيتها، وبصاق أمها الذي لا ينقطع أبداً، رغم أن الجارة كانت بلا زوج ولا عيال وقد ماتت أمها منذ أمد بعيد.

تذكّرت أبناءها الذين لم تلدهم من أيّ رحم، رغم تعدد زيجاتها، وإخوانها الذين لم تلدهم أمها الغجرية، وأزواجها الذين تزوجتهم بالفعل، وفارقتهم بالفعل. حنت إلى أجواء وادي حضرموت الذي لم تره سوى خيوط ممزقة في أحاديث أجداد ماتوا أو أقارب ما زالوا يتغنّون بالمجد القديم قبل الهجرة إلى هذه البلاد، و إلى هندوب عيسى الأتمني، عطّارها الشرق أفريقي الذي أصلح ما أفسده الدهر ذات يوم، ودغدغته التي شغلت الرأي العام لحواسها ثلاثين شهراً ثم ذهبت بلا عودة.

بحثت عن "الغشيم كرو"، خادمها الثلاثيني اليتيم المعتوه الذي ظلَّ يرافق تقلباتها لعشر سنوات مضت، مستبدّاً في الخدمة وقصّاباً يكسر ضلوع السكون والوقت ويخترع الأشغال الشاقة اختراعاً، فلم تجده. دارت حول البيت متعثرةً، و لم تجده. صرخت بنرفزة: يا غشيم كرو... يا غشيم كرو! هدأت قليلاً، وردّدت في نفسها: لا بد أنه الآن في جحرٍ من جحور البلدة، يعلِّم مزارعاً مظلوماً كيف يغضب من الظلم، أو مراهقاً مبتدئاً كيف يحب فتاة أحلامه، أو جدّة محكومة بإذلال العمر كيف تمشي بعكازتين. كانت قد أتقنت قراءة خادمها

المعتوه، وتعرف تماماً ما يمكن أن يفعله في ساعات تسرّبه القليلة من خدمة البيت.

توقفت طويلاً أمام مرآة مصدّعة في غرفتها الداخلية، ارتدت فستاناً أخضر من قماش "الباتستا" الذي ينتشر بشدة على أجساد الريفيات، رشّت على جسدها قليلاً من عطر "سودان اليوم" الشديد العصبية والنرفزة، وكان أحد عطورها المفضلة، وضعت على وجهها مكياجاً مفضوحاً بلا أخلاق من واردات "ويللا" الفرنسية كان يأتي أحياناً ضمن البضائع المهربة، وكان تسكّعه على وجوه الريفيات في تلك الأيام يجرّ الخطوات والمطاردة والألسنة وحواجب الغزل الرقاصة، ويغذّي بطون المجالس التي تُعقد تحت الحوائط ومقاهي النرد والكوتشينة بعلفٍ من النميمة لا ينتهي، لكنّ تسكعه على وجهها شخصياً لم يكن يعني شيئاً لأيّ شيء؛ - كانت أشبه بمقامر مسكين يلقي بضياء عينيه وهو خاسر.

وضعت قدميها داخل حذاءٍ ذي كعبٍ عالٍ زادها عدة سنتمترات مرفهة، وانزلقت إلى الطريق.

كانت الرمال تلعب بمشيها، الذباب الريفي يحتفل بوجهها بطريقة فجة، الجارات يكوينها بالنظرات في الظهر من دون جرأة على كيّها وجهاً لوجه، وعيال الشوارع الراكدين في رقة الصباح ونسيمه يتفحصونها ببله. ستعود إلى منبع العطاس في السوق لا محالة، وستنتصر في تلك الحرب المباغتة التي لم تخطّط لها جيداً ولا تعرف حتى الآن كيف ستشتعل وكيف ستنطفئ.

عرّت شعرها كله فبانت ضفائره المعطونة بالودق.

-٢-

استقبلها شاطر، تاجر البلدة المرموق، أمام دكانه بنفس وجهه الذي كان عليه في بداية الصباح، بنحافته الملفتة وعينيه البرّاقتين ورفوفه المحقونة بالأكياس والمعلبات والأقمشة وخزانته الخضراء عصيّة الفتح وصبيّه المترَب الذي كان لا يزال باركاً على قدميه، وبيده منفضة من القماش يطارد بها غباراً متماسكاً على رفوف كاسدة.

لم يكن شاطر يحبّها أبداً، لكنه كان يسترضيها، يطوّع لها بؤراً كذابة في الشعور تلمّها بإتقان وتخرجها إلى لسانه الذي يتورّط أمامها في أيّ وقت تأتي فيه أرقى زبونة في البلدة والبلاد المجاورة. تذكره دائماً بتشرّد قديم مارسه زماناً، ووظيفة مملة في الميناء ارتزق من مللها وهو مراهق؛ تذكره بساعته الجوفيال القديمة التي اقتناها من إحدى الدلاّلات الشعبية في المدينة القريبة، وتلفت من ماء كثيف، وقصة عن فرعون وقلة عقله قرأها وهو في الحادية عشرة في أحد كتب المطالعة. يعرف لسان الشبق المجنون في حلقها إذا استيقظ وهبّ، وصوت الرعد في ذات الحلق إذا قطع حباله وهرب، يعرف حبالها المتمكنة من نشر الغسيل غير المرغوب في نشره، ووصولها غير العادي الذي

نزّ ذات يوم إلى العاصمة نفسها، حيث دخلت قصر الرئاسة الغارق في الضوء والنعمة، من دون أن يعرف أحد كيف فعلت ذلك، وخرجت محمّلةً برائحة الرئيس وتوقيعه ودردشته وضحكاته وأوامر مباشرة إلى آذان ضباط المجلس الريفي في البلدة بمنحها بيتاً ملائماً وتمويناً منتظماً وراتباً شهرياً شبيهاً برواتب موظفي الخدمة المتقاعدين.

طلباتها عند شاطر كانت معروفة وسهلة للغاية وتتكرر عدة مرات في الشهر: سجائر الكنت التي يجلبها المهربون بمراكب البحر ويبيعونها لشاطر وغيره من التجار في السرّ؛ الأناناس الماليزي المقطّع إلى شرائح؛ الملح والشطة الحمراء والبخور والفحم والعدس والفاصوليا، وربما خيوط وأزرة، وفي أحيان قليلة كانت تسأل عن كماليات مثل دهان الشعر ماركة "زكس" وشامبو "بانتين" المزيل لقشرة الرأس وصبغة "بيجون" التي تحتاجها لقهر العمر. كان يحضر أغراضها الكمالية تلك من رفّ داخلي يحتضن عدداً من السلع غير المطروقة في حمّى الشراء اليومي، ومكتوب عليه بخط التجار المكسّر: رفّ الحضرمية عند الضرورة.

وحين عادت في ذلك الصباح مرة أخرى، وتسلق وجهها وفستانها الأخضر ومكياجها الكثيف، وشمّ نرفزة عطرها، ولمح بقعاً من الأرتكاريا خليعة على يديها العريضتين، أيقن، بقرصة شديدة من تفكيره، أن حورية مصلح، المعروفة بسخاء الشهوة وتنقية المزاج وإيقاد مجامر الهوس في أيّ زمان ومكان، إنما عادت تحمل قلماً للفجيعة لتوقّع به على جسدٍ جديد؛ جسد المعلم الشمالي الذي قدم حديثاً إلى البلدة في إحدى قوائم النقل التعسفية.

لم يكن شاطر قاضياً ولا شرطياً ولا مواطناً بارزاً يمكن أن تمنحه الدولة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى أو العاشرة، و لم يعد يعني له الإصلاح الاجتماعي منذ وقت بعيد أكثر من ثرثرة مملة لمتعلمين ثرثارين، لكنه يستطيع أن يبيع ويشتري ويفاوض ويحلف لصالح سلعته مهما كثرت عيوبها عند الضرورة. كانت تجارته في البداية هشّة البنية، وهي الآن قوية ومتمكنة؛ كان وجوده في البلدة غربة مهدمة، والآن جيدة الأساس؛ كانت بؤر الاسترضاء في شعوره نائمة في تلك اللحظة، فأيقظها بعنف، أرسلها إلى اللسان طرية وناعمة. تحوّل إلى المرأة بحضور تاجر رأسمالي، لعق أسئلتها قبل أن تقدّم له، قال:

– نعم يا حورية مصلح. نعم... اسمه عبد النبي سمارة، ولقبه عبده كورة، جاء من ضواحي مدينة "دنقلا" في شمال البلاد، متزوج من إحدى قريباته في بلدته وعنده أولاد لا أعرف عددهم بالضبط، يعمل معلّماً ابتدائياً، وصل البلدة منذ يومين فقط في إحدى قوائم النقل، يسكن في استراحة الحكومة المعروفة بالقرب من المجلس البلدي، ويشجّع اللعبة الحلوة.

سقطت السيرة الذاتية للمدرس الغريب على أذنيها بعنفٍ أخاذ مجلجل ضاعف من جريرة عمرها الوقور؛ أحاله إلى عمر مراهق. توغلت بعينيها في التاجر المتعاون لعدة ثوان فقط ثم شتمته؛ شتمته بجمل كذّابة للغاية طليت بماء الصدق، يعرف جملها الشاتمة الحقيقية، رآها تحكّ يديها وشعرها وتخرج من عنده بغضبٍ راضٍ مطليٍّ بماء عدم الرضا؛ يعرف غضبها الحقيقي جيداً، تضربً وتجرحً، تقع على الأرض وتقوم، وتبثّ هستيريا غريبة، ولا تترك بؤرة الفوران حتى

حضور أكبر جمهرة فضولية وأوسع آذان ريفية وأعتى سلطة محلية.

في إحدى المرات كانت عنده، وطالبها بمئة جنيه مستدانة، استدانتها من عنده بنعومة شديدة، وركدت في تناسيها عدة شهور، و لم تردّها، بالرغم من أنها لم تنقطع عن زيارة دكانه في أيّ يوم من الأيام. قال: أريد جنيهاتي يا حورية مصلح، أحتاجها لتكملة نقود صفقة ملحة، وتعرفين الأحوال في هذه الأيام.

ذلك اليوم استيقظ غضبها الحقيقي كاملاً، وقعت على الأرض وقامت، مدّت لسان الشبق حتى القا ع، وأيادي الأظفار الطويلة المدهونة بالمانيكير جرحته في مواضع كثيرة من جسده كان أوجعها الجانب الأيسر من وجهه الذي لا ينام إلا عليه، وكان في ذلك اليوم دائناً بلا أمل في سداد دين، مسجوناً لعدة ساعات في سذاجة الشرطة الريفية التي اتّهمته بالتحرّش ومحاولة اغتصاب امرأة في دكانه، مؤرّقاً ومحمولاً على شماتة البلدة كلها. وحين أراد صديقه المحجوب، صائغ العرائس، القادم من الشمال أيضاً، أن يدخل إلى المعضلة مدافعاً عن صديقه، ويزجر المرأة بلسانه فقط، اخترعت خربشات على جسدها الرشيق الشحم نسبتها إلى أظفاره التي كانت مقلّمة ومصقولة ولا يمكن أن تعض، وكانت فديته في ذلك اليوم خاتماً على شكل ثعبان من ذهب حرّ نقشه بتذمّر وقرف وتحت وابل من رصاص عينيها.

وفي السنة التي سُمّيت بسنة الضرر، نسبةً لخمول المطر وعنوسة الأرض بسبب جفاف نهر "المبروك" الموسمي الذي يسقيها، وارتداء الريفيين حللَ النحافة والوسواس وسوء التغذية، وانتشار مرض العشى

الليلي والكساح، وبلوغ عدد الأرامل والمطلقات والعازبات معدّلات تنذر بالبصق على وجه المجتمع، ظهر هندوب عيسى الأتمني، سليل قبيلة الأتمن الشرق – أفريقية التي تحتل مكانة كبيرة بين القبائل المترحّلة في البلاد، وتُعرف بقوة الرجال وإجادتهم نظمَ الشعر. كان قادماً من ضواحي مدينة كسلا، من منطقة غنية بالأمطار والهواء الذي ينعش الروح، يحمل وجهاً مليحاً وجسدَ فارس مكتمل البنيان وقلباً سلساً ونبوءة معقّدة لعجوز من قبيلته عرفت بصدق التنبوءات وأنها ما رددت شيئاً إلا صدق في ما يأتي من أيام. صهرت تلك النبوءة احتماله، ودحرجته عاشقاً مجنوناً إلى تلك البقاع يحمل في مخلاته مهراً لامرأةٍ لم يسمع بها من قبل أبداً.

قالت العجوز وهي تعترض فروسيته وشاعريته في أحد الأيام وتدسّ في قلبه جنيناً معقّد الملامح: اسمع يا فارس، زوجتك وحبيبة قلبك عند العمدة صابر علي، زوجتك اسمها سكّر البيت، الحقها قبل فوات الأوان لأنّ عدد خطابها أكثر من شعر رأسك.

قال متلهفاً: صفيها لي يا خالة أرجوك.

ردّت: لا أستطيع يا فارس.

سأل: وأين العمدة صابر علي هذا؟

ردّت بمكر: ستجده ذات يوم، ارحل فقط.

ثم طالبته بأجر لنبوءة لم يتوقّعها ولم يسعَ إليها حقيقةً.

تجهّز الأتمني بعادات صحرائه القاسية، وركب جناية العشق التي قُدِّمت إليه على الفور. كان مجروحاً في الصميم، تتلاعب في ذهنه صور مقدّسة لحبيبة لا يعرف أوصافها ولا يستطيع إجبار العجوز

على تزويده بها. طاف بالريف الوطني عشرين شهراً أحلاها أمرّ من المرّ، تعرّف إلى أحمد كلي والصادق التاج والشريف الضو والميرغني وعمران والعوض موسى وخمسمئة عمدة آخرين عاضّين على عموديتهم بشدة، أو مفلتيها، كانوا يهذّبون سفره المبعثر إلى حين، يهدّئون صرخات الجوع في مصارينه بشيءٍ من الزاد ويرسلونه إلى الطرق من جديد، وكثيراً ما حاول بعضهم إقناعه بتجاهل النبوءة والعودة إلى بلاده، لكنه لم يفعل. وفي إحدى المحطات الخلوية الجافة حتى من مياه الشرب والظل والرحمة، والتي يقطنها أعراب من البادية يعيشون على هبات الصحراء القليلة والتسول من العابرين، التقى الرحّالة المقعد "حاكم عذابو"، وكان يطوف البلاد في ذلك الوقت، مستنداً على إرادةٍ وعرة وزادٍ قليل ومقعدٍ متحرك، استعداداً لإحدى البطولات العالمية لذوي الإعاقة.

تقيّأ الأتمني مأساته كاملةً في أذني الرحّالة الشهير: تلك النبوءة الأخاذة ومضاعفاتها؛ ذلك العشق المسيطر على كيانه كله. كان يلهث ويبكي بدموع حقيقية، ويطرقع الأصابع بلا معنى، وبين الحين والحين يشهق: يا سكر البيت! وحين انتهى من سرده وانكفأ على الأرض وضع الرحالة على كتفه يداً قاسية الشعور، وعلى عينيه كحلاً أحال سهادهما سهادَ فرح، ألبسه وشاحاً مخملياً رثّاً أخرجه من مخلاة قديمة، كان واحداً من وشاحاته الكثيرة التي حصل عليها في تنقله الطويل، سمّاه وشاح العشق، ودلاّه على صدر العاشق، ثم قال وهو ينظف أذنيه بعود من القصب ويشعل سيجارة من تبغ القندول الشعبي كانت موضوعة خلف أذنه:

– تغدّيت عند العمدة صابر علي في أحد الأيام البعيدة، سأدلك عليه، لا تقلق.

ثم زوّده بعدة رموز ومصطلحات وجمل راطنة وعلامات طرق قابلة للنسيان والتهام المطر ورسم كروكي غير دقيق صيغ بالقلم الرصاص يمثل العمدة صابر علي، عمدة البلدة التي يبحث عنها الأتمني، كما هو موجود في ذاكرته.

وصل هندوب الأتمني إلى البلدة والنهار يجرّد شمسه من لهيبها الوقح، يحوله إلى أحمر خابٍ يعشقه الشعراء، مرّ بالفضول المحلي غير آبه بالصبية والحمير وأمهات الصبية وراكبي الحمير واستفسارات صائدي الغرباء الذين اصطادوا غرابته وتسلّقوها بعنف وتكاثفوا من حوله في زفّة ضاجة. توجّه إلى مقر العمدة المرفّه قليلاً في وسط البلدة مباشرةً بعد عدة استفسارات، من دون حتى أن يشفق على سفره الطويل ويبدّل قميصه المترب وأن ينتبه إلى جغرافيا الوقت التي كانت تشير إلى وقت من أوقات تعكير المزاج. قال للعمدة حالما شاهده يتوسط مجلسه، وهو يمدّ فروسيته وشاعريته وأوجاع قلبه العاشق ويكشف نبوءة العجوز الغريبة:

– أنا هندوب عيسيٍ، من قبيلة الأتمن، جئت من نواحي نهر القاش لأتزوج من حبيبتي سُكر البيت. دقوا الدفوف فوراً وانحروا الخراف وعلّقوا الزينة وجيئوني بها.

ثم دعم هذيانه بأن أخرج من مخلاته عدة قطع من الذهب المتّسخ وجنيهات صحراوية مشوهة الأطراف وملابس أنثوية من حريرٍ خامد أحضرها معه، وصاح مردّداً إحدى قصائد الهجر التي لملم مقاطعها

من جوع سفره الطويل، وكانت قاسية بالدرجة التي يمكن أن تقتل أي قلب.

حكّ العمدة - الذي أرهقته العمودية كثيراً بمحاولات إجلاء الغوامض في البلدة، وصيانة الأعراض ما أمكن، وحل المنازعات القبلية والعشائرية التي تنشب كثيراً في بلدة تسكنها التناحرات، ومغازلة السلطة الإقليمية والعاصمية من حين لآخر - رأسه بشدة؛ ظنّ الرجل الغريب الذي اقتحمه مجنوناً قادماً من بلاد مجنونة، أرسلته الخيالات الجانة ليعقد سيطرته على البلدة أكثر ويضيف إلى إرهاقه المزمن إرهاقاً جديداً. في حياته الفسيحة صادف العمدة الكثير وتشذّب بالكثير، وتمكّن بعد أكثر من ربع قرن أن ينعس وأرادب من المال تحت وسادته وأرادب أخرى تسعى لتكون تحت الوسادة، لكنّ عقارب اللدغ لا تتوقف قط، والثعابين، بمزايا تغيير الجلود التي تملكها، تظهر في كل حين. ألقى على الأتمني الفارس نظرات حادّة أولاً، ثم ناعمة بعد ذلك، استفسر منه أكثر، وعرف منه أكثر. ضحك وهو يضع يده على كتف الأتمني، لكنّ الأتمني لم يضحك، وبقسوة نحّى اليد عن كتفه.

كان حدثاً غريباً، هكذا كلم العمدة نفسه، وحتى لو لم يكن الرجل مجنوناً، فلا أحد يعشق خيالاً، ولا أحد يأتي بمهر خيال ويقدّمه لرجل غير مسؤول عن قبول ذلك الزواج الخيالي أو رفضه. وبشيءٍ من الحذر قرّر أن يتقصّى. ساح بأفكاره أولاً في كل الأرامل والعانسات والفتيات الأبكار، والطفلات الرضيعات في الأثداء أيضاً، اللائي يعرفهن في البلدة معرفة كبيرة، - كان يبحث عن سكر البيت التي

جاء من أجلها الغريب. لم يجد في ذهنه سكّراً للبيت ولا سكّراً لغير البيت أبداً، كان اسماً مجهولاً يسمع به لأول مرة. وقبل أن يردّ على الغريب مال على جلساء ملاعين من صميم أهل البلدة كان يوظفهم لنفخ جلساته وصيانة هيبته وتقصّي الهمس الذي يصدر في حقه مهما كان، حتى لو كان همساً بلا معنى، وسأل:

- هل توجد امرأة في البلدة اسمها سكر البيت، ولا أعرفها؟

ردّوا بسرعة وبساطة شديدة وبكفاءة من يجيدون ملء وظائفهم ويقبضون على الهمس مهما كان:

- نعم جناب العمدة، إنها حورية مصلح.

- الحضرمية؟

بعثر العمدة عمامته المشجّرة، المصنوعة من قماش "التوتل" الغالي نسبياً، على رأسه؛ بعثر ملامحه التي كانت ملتمّة عناداً وثقة على وجهه؛ بعثر كل لملمته القديمة لتلائم عرق الذهن الذي كان غزيراً وبارداً في تلك اللحظة؛ أطفأ سيجارة مزاجية هي سيجارته الثالثة في ذلك اليوم، من دون أن تلدغ مزاجه سوى لدغة واحدة؛ أخرج ساعة للجيب كانت ذهبية ولامعة؛ حدّق فيها بلا تركيز.

قال الجلساء:

- نعم جناب العمدة، منذ عدة أشهر ولقبها كذلك.

- من لقّبها؟

غاص العمدة في سكّة الاستفسار أكثر، وقد أحسّ بأعراض مرض عرق النسا، الموروث في عائلته، تزحف على ظهره ووركه الأيمن بلا هوادة.

كان يعرف آداب التسمية وإنشاء الألقاب في البلدة معرفة كبيرة، وشارك منذ صباه المبكر في تلقيب الكثيرين ممّن أصبحوا الآن يعيشون في المجتمع وقد نسي الناس أسماءهم الحقيقية: الخنفس والغراب وشجرة الدوم وكلب الحر وغيرهم، - هؤلاء من إنجازاته التلقيبية التي لم يهزّها الزمن. يعرف أنّ حبكة اللقب في حدّ ذاتها أهم من شرب الماء للذي يريد أن يلقّب أحداً، ويعرف أيضاً أن لقباً وارفاً وظليلاً كسكّر البيت لا يمكن أن يُمنح لواحدة مثل حورية مصلح، خلطة الغجر بالحضارم وصانعة المشاكل، حتى لو جاء في مرسوم حكومي. كان العمدة متزوجاً من منصبه العمودي منذ كانت البلدة مجرد غبار ورمل وحصى، وسكانها مجرد رحّل بادين لا يعرفون عن الإعمار شيئاً، وكان مقبلاً على الزواج، الأصعب والأرقى، من منصب أرفع شأناً في اللجان الشعبية الحكومية في إقليمه، سيتيح له السكنى في المدينة والتمتع بما تبقّى له من عمر، وكان وجود لقب هام كهذا في بلدته، وحول عينيه وأذنيه، من دون أن يعلم به أو يوقّع شخصياً على استخدامه، حتى من باب الذوق والأدب، يعدّ نقيصة قد تؤثر على عافيته الخاصة ومزاجه الذي يطمح لجعله صافياً في أيّ وقت، وربما أيضاً على زواجه المرتقب من منصب اللجنة الشعبية الحكومية في رئاسة الإقليم.

قال المستشارون بصدق الذين قد تفوتهم شاردة أو واردة ولا يلحقونها:

- لا ندري جناب العمدة، صحونا في أحد الصباحات ووجدناها تحمل لقب سكّر البيت، وكنّا نظنك تعرف.

ثم التفتوا نحو الفارس الغريب، تحلّقوا من حوله وابتدأوا يلحسون غرابته ويستفسرون بعمق عن تلك النبوءة.

الآن، صابر علي، عمدة البلدة، مبعثر الدم بصدق ومستغرب إلى حدّ متعة الحسّاد، يراجع في ذهنه تلك النبوءة التي صدقت، ولا يعرف كيف حدث ذلك. تراجع استياؤه من الغريب، وابتدأ يفكّر بجدية في اتّباع خط النبوءة وتزويج الرجل من معشوقته التي جاء من أجلها من بلاد بعيدة. سيرسل في طلب الحضرمية التي كانت ولي أمر نفسها بحكم زيجاتها وطلاقاتها المتعددة، سيتأكد من ردّ فعلها أولاً، ويحاول إقناعها بنفسه إن تفّهت من شأن الغريب أو افتعلت معركة ربما يراق فيها دم.

كان الغريب قد بعثر مخلاته الكبيرة، أخرج منها ما تبقى من أغراض، وكانت ثوباً أبيض مغسولاً بإتقان وعدة خناجر لامعة يبعث مرآها القشعريرة، كان ثمة خبز يابس وجراب من جلد الماعز ينزّ منه الماء. صرخ العمدة في أتباعه أن يذهبوا به ليغتسل أولاً، ثم يطعموه ويجهّزوه جيداً، ويخبّئوا خناجره التي لا مجال لوجودها في مكان ربما يشهد اليوم جلسة فرح. كان الغريب مطيعاً، وتفهّم بعمق، لكنه لم ينسَ أن يشهق وهو يغادر: يا سكّر البيت.

كانت حورية مصلح الحضرمية غافية في قيلولة مريبة داخل بيتها في تلك الساعة، في رأسها أحلام موردة عن الحب وتوابعه وسعادة ربما تسعد بها قريباً، حتى جسدها الذي كان عرقان في تلك اللحظة كان ينزّ عرقاً عاشقاً. قذف العمدة إلى بيتها بأحد جلسائه المعتادين على إعاقة الأحلام في أي وقت. أبلغها الرجل برجاء العمدة صابر علي أن

تتجهّز وترتّب حالها وتأتي إلى مجلسه لأمر هام. وحين حضرت بعد ذلك أجرى معها العمدة تحقيقاً خشناً ومهلهلاً وغزير الأخطاء عن ذلك اللقب الذي تحمله وكيفية حصولها عليه، متناسياً المسألة الأهم، مسألة الغريب الذي يغتسل في مكانٍ ما تمهيداً لتزويجه. كانت نتيجة التحقيق مزيداً من النغز والزحف غير المريح لآلام عرق النسا على أسفل ظهره ووركه الأيمن.

كانت حورية ممسكةً باللقب بجنون، واللقب نفسه ملتصقاً بها بجنونٍ أكثر يقاوم كل محاولات استخلاصه، والحقيقة أن العمدة من فرط إعجابه بذلك اللقب الفاخر استكثره عليها، تخيّله ظليلاً على زوجته العافية التي كانت سكّراً ناعماً في بيته، وأنفق سبعة عشر عاماً في محاولة تلقيبها، فلم ترضَ بأيّ لقب: بلح الشام، والمبروكة، وسيدتنا الغالية، فلفظت تلك الألقاب كلها باعتبار أنها ألقاباً عادية وأنّ نساء أخريات في البلدة ربما يحملنها. تغلّب أخيراً على أعراض عرق النسا بمشقة، وواجهها بالأتمني الفارس الذي عاد نظيفاً ومغسولاً: كان شعره منكوشاً ممتلئاً بالودق وخناجره مربوطة في وسطه للزينة لا لقتل أحد. ارتمى عند قدميها وارتمت عند قدميه وسط استغراب الجميع. لم تكن ثمّة حاجة لأسئلة أخرى، سوى أن يبدأ العمدة في تكملة النبوءة حسب خطّها المرسوم. زوّجها من الغريب الفارس بنفس لحظتها الراهنة: وجهها الباسم الذي عليها، وملابسها الاحتفالية المزركشة التي عليها أيضاً، ومن دون أن يعطي حتى فرصة لليل أن يرخي أستاره ويغلّف البلدة، ومنظمي الحفلات المعروفين في البلدة أن ينظّموا حفلاً، والطبول أن تسخن على النار، وأصوات المغنين، الذين جاء بهم على

عجل، أن تغسل ترسّبات النحنحة والحشرجة وتنطلق نظيفة.

لم تكن البلدة بحاجة إلى دعوات لأنها تلملمت كلها أمام بيت العمدة بوصفه وكيلاً للعروس التي اختارته وكيلاً لها على عجل، واكتشف العمدة بعد ذلك بعدة أشهر، بعد أن حظي بمنصبه الجديد في المدينة و لم يستقر به لأنه كان بلا هيبة في نظره وعاد مرة أخرى إلى عمودية البلدة الشاغرة، أنّ حورية مصلح كانت قد رأت هندوب الأتمني مصادفةً في لقطة أخاذة بثّتها لجنة حماية القيم والتراث في شرق أفريقيا، ودخلت البلدة في متاع زائر قدم من العاصمة من ضمن خبراء لمكافحة الجراد الصحراوي. كانت اللقطة تصوّر هندوب الأتمني، الفارس المعروف محلياً في بلدته، باركاً على يديه وركبتيه يعطف على عدد من السحالي والفئران وديدان الأرض. اشترت اللقطة من العاصمي بقبلتين ناعمتين ووعدٍ كاذب بمنحه أكثر، وسافرت إلى منبع العطف سرّاً في بلاد لا تعرفها وهي مأخوذة. لقّبت نفسها أولاً بسكّر البيت، واهتدت إلى تلك العرّافة العجوز ذات النبوءات النافذة، حتى تأتيها بالفارس إلى عندها، ثم عادت إلى البلدة لتتزين وتقلق وتنتظر.

كان في قلبها اشتهاءٌ غريب لم يحدث لها من قبل، وفي حواسها الخمس تأقلمٌ هستيري على العيش زوجةً لفارس مكتمل ربما يأتي في أحد الأيام. فعلت كلّ ذلك في السر، ولم تبح به إلا لواحدة من جاراتها، لكنّ العمدة عرف، وعرف آخرون، وربما عرفت البلدة كلها، والعقلاء سكتوا باعتبار أنّ الأمر لا يعنيهم، ولن يجرؤ عاقل على التحدث عن ذلك الأمر، إلا لنفسه فقط.

كان شاطر في ذلك الوقت تاجراً صبيّاً يتمرّن على تقوية تجارته

الريفية وتثبيت سمعة نظيفة بكثير من الجهد، جاء من الميناء القريب الذي مكث فيه فترة، بعد أن جاء من بلدته في الشمال مساعداً في باص سفري كان ينقل السفر والهجرة والتفاهات بين الشمال والشرق، ولصق بالبلدة عفريتاً بمئة حيلة، عمل حطّاباً أجيراً وسقّاءً يطارد الآبار شبه الجافة ليستخلص الماء ويبيعه لقاء ربح قليل، عمل حتى بائعاً متجولاً وحفّاراً للقبور، وانغرس أخيراً في السوق بعد جهدٍ مضاعف ودعم صغير أرسله له أحد أقاربه العاملين في السعودية كدينٍ مستحق السدادً. كان دكانه الذي يقع في وسط السوق في ذلك الوقتً رفوفاً شحيحة المواد، خزانته الخضراء العصية الفتح خالية من المال معظم ساعات اليوم، ودفتره المقيِّد للديون لم يكن بتلك الذاكرة القوية التي يحملها الآن، في الواقع كان بلا ذاكرة. وكان دكانه، إضافةً إلى ذلك، ملتقى للشعراء المحليين واللصوص المستترين والشحاذين بشتى أحلامهم وذوي التدخل المباشر والوقح في شؤون البلدة. كان يزوّدهم بخامات المزاج من سجائر وتنباك وحلوى رخيصة، ويترك لنشوتهم التقيّؤ علّه يعثر في القيء على حيلة جديدة أو فكرة ما تغرس في تجارته عضلة جديدة.

أخبره الجلساء في أحد الأيام، وكان غائباً في المدينة القريبة وعاد، بنزوح فارس من قبائل الأتمن إلى البلدة، وأنه تزوج بتعجّل من حورية مصلح الحضرمية التي غادرها ثلاثة أزواج في ذلك الوقت وهم حليقو النعمة والمكانة: قبر قبرسلاس المغني وشاشوق رمز القوة وعلوب الحضرمي تاجر الزجاجات الفارغة.

اغتاظ بشدة دون أيّ مبرر لذلك الغيظ، واستغرب غيظه الشديد،

لكنه لم يستطع إسكاته ببذل كل المحاولات المضنية. لم يكن من المفترض أن يعنيه الأمر لكنه أحسه يعنيه، ويعنيه بشدة. لوى شفته بقدر ما استطاع، وشوّه لسانه بصورة لم تحدث من قبل، طرد جلساءه كلهم وأغلق دكانه على عجل، هرول نحو العروسين اللذين كانا يقضيان أمسية ناعمة داخل خيمة في الخلاء المحيط بالبلدة نصبها الأثمني من أجل شهر عسل بدوي لا يُنسى، وساعدته العروس من أجل تجربة لا تُنسى أيضاً.

وقف شاطر عند باب الخيمة، شتم العريس وقبيلته وأهله الرعاة ونبوءة عرّافته الكاذبة، وقال للحضرمية في هياج وثّقه بعض الذين تبعوه من أجل نجدته إن دعت الضرورة، وعمّموا هياجه بعد ذلك على البلدة:

- يا بنت الغجر... يا فاسقة.

لم يحدث له شيء في تلك الأمسية، لم يطل من الخيمة أي وجه أو صوت يردّ، لكنه في اليوم التالي كان بلا تجارة. جاءته حورية في صباح الرزق المبكر مثل سيلٍ جارف، جاءته بضغينة ملسوعٍ من عقرب وملدوغٍ من ثعبان ومقروصٍ من نملة من النوع الطيار، استلمته سبع ساعاتٍ رائجة مهسترة إلى أقصى حد علقت في ذهن البلدة لسنوات، ولم تشفع لديها أيّ توسلات أو استرحامات كان يطلقها الجميع، وحتى شهادة متخصصين في طب المجانين أقسموا كذباً أن شاطر مجنون ويعالج لديهم، وخمّارين كاذبين أقسموا أيضاً أنهم باعوا شاطرَ خمس قوارير من خمر البن المهيّج يوم أمس ولا بدّ أنها هيجته وذهبت به إلى مقر عسلها. طردت كل زبائنه المتوفرين في ذلك اليوم،

أراقت سلعه على الأرض، مزّقت معاملاته ودفاتره وقروضه المستحقة والمؤجلة، ولم تغادر في ذلك اليوم إلا بعد أن تأكدت من بلوغه الصفر، ليحتاج عامين آخرين بعد ذلك كي يتنفّس من جديد.

راقبها شاطر وهي تتوجّع في الطريق تقتلع كعبها العالي من الرمال وتغرسه وتطوح بخصلات شعرها المودق يميناً ويساراً، رأى عدة نساء يكلمنها ورجالاً في ضحالة الطين ينعقدون في حبلها برهةً وينقطعون، ورأى السوق الصباحي كله يلعقها ويكاد يقضي على زينتها المبهرجة. اكتأب لدقيقتين فقط فكّر فيهما أن يلحق بمشيها المتوجّع ويطرحه أرضاً، يمسك بسبيب شعرها العاري ويحيله نتفاً، عاد وتذكّر ساعته الجوفيال القديمة ووظيفته المملّة في الميناء وقصة فرعون وقلّة عقله وتلك الأيام التي عاشها بتجارة ممزقة، وحين خرجت من حدود نظراته واندرجت في حدود نظرات أخرى ضحك في وهن قلق وعاد إلى بيعه الذي بدأ يشتد.

-٣-

رمى النهار بشمسه الحرّاقة على ظلال البلدة حتى أغرقها في هجيرٍ لا يطاق. هدأ انفعال الخطوات والتمّ تشتت الكلام وخفت الشراء في السوق والعمل في الأراضي المزروعة والتي لم تُزرع حتى تحوّل إلى همس.

كان ثمة عرق صيفي لزج، ثمة خضار تالفة مجرحة في الطريق، ثمة رمال غطت مناكب المشي حتى الركب، وعدد من العاملين في البناء المحلي يعودون إلى بيوتهم متعبين، وعدة سائقين للسفر بين البلدة والمدن يدخّنون سجائر البرنجي المحلي ويلكزون نعاساً طارئاً بالقهقهة أو يتفقّدون عربات رابضة بقربهم، هي أيضاً تنام.

كانت ثمة طيور تهاجر في ذلك الوقت، وطيور لا تقوى على الهجرة، وعدة جمال موسومة بالجرب تتقاتل على ظلٍّ نحيف.

كان ثمة ريف حقيقي في ساعة كبوته الكبرى؛ كبوة القيلولة، حيث لا جرأة ولا مروءة ولا عصب حي.

استجاب شاطر لخمول البيع في السوق: صرف صبيه المترب؛ وضع مزلاجاً عتيقاً ضخماً على محله وطاقية حمراء على رأسه القليل

الشعر وعمامة من قماش أبيض نظيف على طاقيته؛ تأكّد أن المرأة التي اعتادت التسول أمام محله قد غادرت إلى حيث تسكن في أحد أطراف البلدة، وأنّ الحارس الذي عيّنه منذ عدة أشهر لحراسة المحل في غيبته بعد حادث سرقة تعرض له دكان مجاور قد احتل مكانه على كنبة الحبال الموضوعة على زاوية أمام المحل، ثم انفلت بعد ذلك في السوق.

كان صيد حورية الحضرمية الجديد يشغله أكثر من شغل صفقة قادمة أو سمسرة طارئة أو بضائع من أصناف جيدة يتوقّع أن يأتي بها المهربون قريباً بمراكب البحر. سمّاه الصيد العكر، وتذوق حلاوة الاسم حتى أوشك أن يرتفع سكّره في الدم. كان نحيلاً، ومرهقاً باستمرار، وكثيف الحاجبين، ويحسّ باتّساع غير عادي في قياس النعلين يلازمه منذ فترة.

في السوق يسمّونه "الورقة" بمبررات تدخل أمزجة الذين أطلقوا الاسم ولا تدخل مزاجه الشخصي، وفي البيت لا يسمّونه بأيّ اسم، حتى اسمه. كانت زوجته هي بنت عمه، تزوّجها منذ أربعة عشر عاماً، جرّها من قريته الأصلية في الشمال عروساً قروية لا تعرف السفر، زينتها الكحل والجدائل الممشطة، لغتها مكسّرة، وطاعتها كاملة له، لتشهد قيامه وانهياره، وانهياره وقيامه من جديد، ووقوفه الأخير على تجارة ريفية محدودة، لكنها من صخر. وكانت قد بذلت جهد عشرين مجلس صلح لدى الحضارم والغجر وأنسبائهم وأقاربهم، أيام غضب حورية الحضرمية عليه، من أجل أن يحصل زوجها على تعويض، فلم تثمر جهودها، وانتصرت لاعتياد الفقر، حتى ارتدّ شاطر تاجراً كبيراً كما كان. تقوّيه بوجبات الشمال الخشنة، مثل عصائد التمر والنشا

وفطائر الحليب بالعسل، ليظل رجلاً في البيت وفحلاً متماسكاً في وقفة السوق الطويلة؛ تحاصره بدلال ريفية نزحت من ريف إلى ريف؛ تلد له في كل ليلة عطراً جديداً يشمّه لأول مرة، وفي كل فرصة سانحة طفلاً جديداً، وتريه أطفاله اليافعين عند عودته المتأخرة إلى البيت، وهم يبكون دلعاً، ويضحكون دلعاً، يستهلكون حنانها كله، ويزحفون نشطين نحو حنانه، وفي أكثر من مرة جعلته يوقّع بلسانه، وهو منتشٍ بخمرها العاطفي، على تعهدات غريبة؛ توصيه بالبعد عن الصراعات والرجولة الكاذبة وحلف الطلاق بلا ضرورة ودروب الفاجرات وصانعات الغواية في البلدة؛ توصيه بمحاولة إيصال دكانه الريفي المحدود البيع إلى مستوى دكاكين القوطي وباعشر ونجمة الشرق وسلوى بوتيك؛ تلك التي شاهدتها عدة مرات أثناء سفرها وسياحتها في المدن المجاورة.

انطلاقاً من ذلك التحريض العائلي، الذي يتكرر باستمرار لدرجة أنه أصبح جزءاً من ثرثرة الليل، سدّ أذني الحنق حتى النهاية في ذلك الصباح، أنعش البؤر الكذابة الغافية في شعوره، وتعاون مع حورية الحضرمية، لدرجة أنه حرف في السيرة الذاتية للمدرّس الغريب من دون وعي، ولقّبه بعبده كورة من دون أن يدري إن كان يحمل لقباً بالفعل أم لا، فقط لاحظ أنّ ثمة عضلتين سمينتين في ساقيه تشبهان عضلات الكرويين، ظهرتا حين شمر قميصه وهو يخوض في بركة ضحلة أمام الدكان، ربما أوحتا إليه باللقب وضخّتاه إلى اللسان المتورّط أمامها، أيضاً تشجيع اللعبة الحلوة الذي أورده في ختام السيرة كان من اختراعه الشخصي، فالرجل بهيئته التي ظهر بها لم يبدُ من مشجعي

فريق الهلال أو المريخ العاصميين، أو حتى فرق الروابط التي تنتشر في الأحياء بأزيائها المكرمشة وكأساتها المصنوعة من البلاستيك وملاعبها الترابية وسط الأزقة.

كانت ورطة حقيقية، وكان عليه اجتيازها بأي طريقة.

خبط على رأسه الخشن بأصابع أخشن عدة مرات، رفع ذيل عمامته الذي سقط في الرمل وألقاه مرة أخرى ليعانق الرمل من جديد، فكر أن يذهب إلى بيت الحضرمية حاملاً عدة علب من سجائر الكنت أو جوالاً من السكر أو قارورة من صبغة بيجون ليسترضيها ويعتذر عن حماسه الذي لم يقصده وأنه مجرد حماس بلا معنى، وخاف أكثر. ربما نسيت الأمر وقد يذكّرها، وربما لم تأخذ حديثه بجدية وتتقصّى بطريقة أخرى بعيداً عنه، وإن ذهب سيُسبغ تلك الجدية على حديثه وتتشعّب الورطة.

كان أصحابه المقربون في السوق، الذين عدهم في تلك اللحظة ثمانية وأربعين صاحباً، فيهم تجار أكبر منه تجارةً وأصغر وسماسرة ومرحّلون للبضائع وحلاّقون وملاّك مطاعم فقيرة وعاطلون عن العمل ولصوص ومصدّرون لخضار الزراعة الموسمية، لكنّ المحجوب، صائغ العرائس الشمالي، كان أغزرهم صحبةً وأكثرهم وصالاً وأسكتهم لساناً وأشدّهم قرصنةً للأسرار في داخله، فمنذ أن اغتنيا معاً من صفقة ذهب قبيلة الرشايدة البدوية المهرّب عيار ١٨، التي بذلا فيها جهدا كبيراً، والصاحبان أكثر صحبةً، بينهما دائماً ثرثرة خافتة لا يسمعها أحد وضحك منغم يطلقانه معاً ويطفئانه معاً، لهما تداخلات أسرية تتيح لأبنائهما التغلغل في قعر بيتيهما بلا رقابة، وقرابة

من الدرجة الأولى الممتازة أشاعاها في البلدة وصدّقتها، بالرغم من أن قبيلتيهما في الشمال كانتا تتقاتلان بضراوة حتى والناس صائمون، ومبتهجون في صباح العيد، وواقفون تلك الوقفة الروحية المهيبة في جبل عرفات.

كان قد علّم المحجوب الشراء من المهربين بأسعار لم يكن يتوقعها قط، وحاول المحجوب كثيراً أن يعلّمه لمّ اللسان في الفم، فلم يتعلم جيداً، لكنه تعلّم على الأقل أن يحفظ للمحجوب أسراره الخاصة. وفي إحدى السفرات إلى الميناء، سافراها معاً، أخذه المحجوب إلى حي شعبي، أدخله على رجل كان من المتصوفة، وخرجا وقد منحه الشيخ بركته وتميمة مخيطة علقها على رقبته وظلّت معلقة حتى الآن، لكن شاطر لم يكن يحترمها ولا ظنّها يوماً تحميه من الشر، والآن تحسّسها وهو ذاهب في الطريق، وكاد ينزعها، يلقيها على الأرض. أيضاً كان عشق لعبة "اللونا" الورقية قد جمع الصاحبين معاً، وظلت تلك اللعبة غير المعروفة في البلدة كثيراً ترافق جلساتهما المسائية بلا انقطاع.

تدرّج شاطر في مشيه المرتبك في السوق، يردّ تحية على أحد حيّاه وينسى أخرى، يحتكّ بحمار مربوط تحت ظل شجرة، ويخوض في ماء راكد، إلى أن انتهى إلى ركن الصاغة حيث يتجمع تجار الذهب في عدة محلات متلاصقة، ولا يلتزمون كثيراً بموعد القيلولة وضرورة إغلاق المحلات، ويعرفون أنّ النساء الشرهات للزينة التقليدية يمكنهن أن يتذكرن الذهب في أي لحظة ويندلقن إلى السوق. كانت اللافتات الصدئة معلقة أمامه: صائغ الشعب، صائغ الأمانة، صائغ المدينة، ثم لافتة المحجوب النظيفة إلى حد ما: صائغ العرائس.

تردّد برهة أمام المحل، أصلح من وضع طاقيته وعمامته على الرأس، نظف نعليه في ممسحة من الخيش موضوعة أمام المحل، ثم دخل.

تلقّاه المحجوب، الذي تجاوز الخمسين بلا علل مزمنة ولا تجاعيد على الوجه، خلافاً لمعظم أبناء جيله، والهاوي جمع الطوابع البريدية وعملات الورق والفضة القديمة من عهد الأتراك وصور المناضل الجنوب أفريقي نلسون مانديلا، التي يقصّها من الصحف حين يسافر إلى المدن ويضعها في ألبوم خاص، بوجهه الذي اعتاد، من كثرة ما واجه النساء في تلك التجارة الرقيقة، أن يبتسم حتى لو طالع متسولاً قذراً، وصوته الذي ما ردّ التحية إلا بأحسن منها، قال:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كان ينقش أسورة كبيرة من عدة جرامات من الذهب عيار ٢١، فنحّاها جانباً.

كانت النقشة ابتكاراً ريفياً مذهلاً، خططه بالورقة والقلم، وصبر غير عادي وأرق كثيف، وكان يطمح للزهو به أمام صاغة المدينة المجاورة، ونيل شهادة أخرى للجودة يعلّقها بقرب شهادته السابقة التي نالها في تنسيق الخواتم منذ عامين، متقدِّماً على صاغة آخرين أكثر عراقةً وأقدم في الصنعة، فأهمله.

تشتت شاطر في حواس المحجوب حتى ملأها كلها، كان مكسواً بهمٍّ صامت أنشب فيه المحجوب أسئلته الملحة المتلاحقة حتى عرّاه تماماً في النهاية، تحدّث بصوت مكسور وبلا تركيز كبير، واختصر معضلته التي كانت تافهة حقيقةً، بقدر ما استطاع، وصف الصباح الرومانسي أولاً، كما ورد في تلك الأغنيات التي تحتل ثقافة أبناء

الشمال، ويحفظها الشماليون جيلاً بعد جيل.

وصف وقفة الحضرمية الأولى داخل دكانه، واتّكاءة الغريب على طاولة البيع، واحتكاك المزاجين بأذنه: تنباك للغريب وسجائر كنت للحضرمية.

وصف شبقاً أحسه بقلبه المعتاد على تحسّس دواخل الناس، وشبقاً رآه بالفعل أمام عينيه، وشبقاً تخيّله سيحدث في أيّ وقت من الأوقات القادمة، وخاف على تجارته من صمم وبكم متوقعين إذا ما حكّت الحضرمية سيرة الغريب لدرجة الدم واكتشفت فقراته المزورة، ليته اختصر في تلك السيرة اللئيمة وسمّى الغريب بوقائعه فقط.

قال: الأرزاق ليست بيدها.

وكان مضطرباً في قناعته.

ضحك المحجوب حتى فزع السوس في أضراسه الخلفية، كانت علته الوحيدة هي تسوس الأسنان، وكان ضيفاً شبه شهري على أطباء الأسنان في المدينة المجاورة، ولم يكرموا ضيافته قط، كان يذهب إليهم موجوعاً، ويعود إلى البلدة أكثر توجّعاً، فقط بلعابٍ غزير ولسانٍ مجروح بآلات الحك والحشو ورائحةِ كافورٍ سخيفة تضايق أمعاءه وتحتلب القيء، لكنه تعوّد على تلك الآلام، ولم تكن تشكّل عائقاً أمام تمرّسه في الصنعة وتطلّعه لامتصاص نساء البلدة كلهن من جيرانه الآخرين، وربما الانتقال مستقبلاً إلى المدينة بنقوشه الجديدة الملفتة.

توقّف عن الضحك بغتةً وأمسك بخيط التفاهة من رأسه إلى ذيله، تفّه من معضلة صاحبه شاطر حتى أضحت في النهاية كمعضلة خاتمٍ ضيق في إصبع غليظ، تخرجه رغوة صابون.

سأل:

- هل هو من ضواحي دنقلا في الشمال بالفعل؟

- نعم. ردّ التاجر.

- ومدرّساً ابتدائياً؟

- نعم.

- ومتزوجاً من إحدى قريباته بالفعل وعنده أولاد؟

- نعم.

- وجاء منذ يومين فقط إلى البلدة؟

- نعم.

- ويسكن استراحة الحكومة؟

- نعم.

- إذن لا مشكلة، لا مشكلة على الإطلاق.

- ٤ -

في ذلك النهار تغدّى المحجوب وشاطر معاً في السوق، جلسا على حصير ناعم من المخمل الطري، متكئَين على وسادتي قطن ناعمتين كانتا من صميم أساس المحل، أنشبا جوعاً فرحاً في طبق الفتّة بلحم الضأن، الذي أرسل المحجوب في طلبه من بيته حتى نضب، شربا قدحين من شاي بطعم النعناع، من الجميلة عواطف، أرقى صانعة شاي في السوق، أشعلا سيجارتين راقيتين ماركة "بنسون اند هدجز"، ذلك النوع الذي يدخّنه المحجوب ويجلبه دائماً في سفراته المتعددة، تحدثا قليلاً عن صفقات قادمة ربما يقتنصانها معاً، وتذكّرا بعض النكات الوقحة التي يتداولانها بينهما في سرية تامة ولا تنتقل منهما إلى أحد. سأل شاطر عن أسنان المحجوب وقال مازحاً إنه سيجلب طبيب أسنان خاص يفتتح له عيادة هنا من أجل خاطر صديقه، وضحك المحجوب بلا ألم. وحين خفّ لهيب الشمس وبدا أنّ المشي محتمل لملم المحجوب بعض الأشياء من رفوف داخلية، بعد أن أراها لشاطر، وضعها في كيس معتم من الخيش، أغلق محله بواحدٍ من أقفال "يال" الإيطالية المتينة، ولا يملكه أحد غيره، ثم توكّأ على

كتف صاحبه، متجهَين إلى استراحة الحكومة بالقرب من المجلس البلدي في منتصف البلدة وليس ببعيد عن السوق، حيث يسكن المدرس الغريب، وحيث معضلة شاطر التافهة في سبيلها إلى الحل.

كان الطريق بينهما صامتاً في الغالب، لكنّ ثرثرة داخلية كانت تتكوم أحياناً في صمت المحجوب، وتنزّ من حين لآخر في شكل إشارة أو همسة أو نصف ابتسامة، و لم يتحدث بوضوح إلا حين حاذيا بيتاً من الحجر، مُقاماً على دكّة عالية، يخصّ أحد المهاجرين العائدين حديثاً إلى البلدة. لحظتها قال المحجوب إنه قد يشتري هذا البيت، فقط لو يتنازل صاحبه ويعرضه للبيع.

وصلا أخيراً إلى استراحة الحكومة، ذلك البناء الحجري الصامد منذ زمنٍ طويل، اقتحما المدرّس وهو يقاسي في قيلولة الغرباء المحزنة التي لن تشبه أيّ قيلولة لأحد من السكان في تلك البلدة الريفية.

كانت تحت يده رسالة يكتبها إلى أهله في الشمال، وأمام عينيه برقية وصلته للتو من مكتب البريد الصغير المتواضع. كانت في قلبه الجائع عواطف بحجم تلٍّ تغلي وتبرد، ويرقد بالقرب من فراشه القديم المتآكل كتابٌ أنيق من كتب الطهو، أحضره معه، ألقى عليه المقتحمان نظرةً عجلى لم يكملا خلالها تصفّحه بعناية، وسحباها.

ذكّره شاطر، في شبه اعتذار، بأنه التاجر الذي اشترى منه التنباك في الأمس وصباح اليوم، و لم يكن من الصعب تذكّر تاجر توغّل فيه حتى عرف سيرته الذاتية، وامتلك إمكانية أن يحرّف فيها، عرّفه بالمحجوب بوصفه أحد الوجهاء الذين لا بدّ لأيّ غريب أن يتعرف إليهم ويتوغل في معرفتهم. صادقاه عنوةً وبشكل سافر، وعلى مدى ساعتين وأكثر،

حتى فقد تجهّمه، أصبح يضحك بقرقرةٍ من مصارينه، ويبتسم بأسنان صفراء من فعل التنباك، يناديهما بلقبين لا يشبهانهما، اخترعهما في التوّ واللحظة: شطّوري ومحجوبي، يتوغل أكثر، يصيح: يا ابنَي العم، يا ابنَي العم، ويضرب على أكتافهما بنشوة، وهما الخشنان اللذان كانت أكتافهما كأنها أكتاف نوق صحراوية.

كانت الخطوة الأخيرة في غاية الأهمية، الخطوة التي قد تمحو في لحظة واحدة جريرة شاطر حين تحمّس بلا وعي واخترع فقرتين تافهتين لا يمكن أن تمرّا، لو درست الحضرمية سيرة الغريب، مرورَ نسمةٍ رطبة تلفح الخد وتنزاح.

في تلك الرفوف الداخلية في محله كانت للمحجوب عدة تذكارلات، لمّها من زياراته المتعددة للمدن ومن ضيوف يأتون أحياناً ويذهبون، واعتقد أنها تصلح لتزيين الخطة، وضعها في ذلك الكيس المعتم، والآن يخطو بجدية والغريب مدغدغ في نشوة الصحبة الجديدة: محجوبي وشطوري، ويعرف الآن أسماء الزوجتين، أسماء عيال الصاحبين الذين سيراهم قريباً، أسماء الجيران الذين سيحضروا وجبة عشاء سيقيمها المحجوب في بيته من أجله. كان ثمة شيء آخر التمع في ذهنه و لم ينطفئ، أن يحصل على وقود المزاج من عند شاطر بلا مقابل، وعدة خواتم أو أسورة من ذهب المحجوب، يعود بها إلى زوجته في أقرب عطلة دراسية.

كان لا يخطّط في الواقع لشيء، لكنّ الأمنيات العذبة تأتي أحياناً بلا تخطيط.

تحدّث المحجوب وشاطر معاً في مواجهة الغريب، ضمّاه إلى

إدارة فريق البلدة الرياضي تحت التأسيس، الذي سيتولى المحجوب رئاسته وشاطر منصب السكرتير فيه، ويضم إداريين آخرين من وجهاء البلدة ولاعبين موهوبين من خيرة شباب الريف تدرّبوا على اللعب في البرك والشوارع الجانبية وعلى أسرّة آبائهم وأمهاتهم، ويمكن أن يصلوا ذات يوم إلى اللعب في العاصمة وهزيمة فرقها العريقة، وحين استشاراه في الاسم الذي يعتقد أنه مناسب للفريق الذي سيؤسس، وصرخ: فريق النحلة... فريق النحلة، فرحا، وبالغا في الفرحة لدرجة أن بعض السوس المرابط في أضراس المحجوب الخلفية ابتدأ يعمل بكفاءة ويضخّ الألم. ومن كيس الخيش المعتم أخرج المحجوب هداياه وسلّمها للغريب، وسط فرحة مضاعفة. كانت: فانلة وشورتاً رياضيين، وحذاءً مستعملاً من ماركة "باتا"، قياس ٣٩، وقارورة من عطر "بولو"، منشّط التعصّب لدى مشجّعي كرة القدم. في النهاية شبّهاه بجكسا والأمير منزول وسليمان الملقّب بالسد العالي، صواريخ الكرة في البلاد أيام عصرها الذهبي، لقّباه بعبده كورة، مشجّع اللعبة الحلوة، واقترحا عليه أن يذكر ذلك اللقب باعتزاز لكلّ من يتعرف إليه في البلدة.

كان الغريب شديد التعاون لدرجة أذهلت شاطر والمحجوب، حمل هداياه واستأذن بتركهما للحظات، ثم عاد وقد ارتدى الزي الرياضي وتعطّر بعطر بولو، كان مظهراً لا يناسبه أبداً، كما ردّد شاطر لنفسه وهو يرى ابتسامة المحجوب ويقاتل بشدّة ليمنع ابتسامة مشابهة تودّ لو لوّنت شفتيه، ذلك البطن الممتد إلى الأمام بقوة، ذلك الشحم الذي رهل الفخذين وتكدّس في المؤخرة، ذلك الاعوجاج في

الظهر، وسلبيات أخرى انتبه إليها، لا يمكن أن تقرن بالتاريخ المجيد لكرة القدم أبداً.

أخيراً خرج الصاحبان من عند الغريب، بعد أن تمنيا له قيلولة طيبة، كانا راضيين بعض الشيء بالرغم من أن الحذاء بدا ضيقاً على قدمي الغريب، كانا متأكدين من أن الرجل بعيد تماماً عن سكك المكر، ولا يبدو أنه انتبه إلى سنّارة الحضرمية التي ألقتها لاصطياده في ذلك الصباح، كان بسيطًا وسهلاً وفيه معاني ذكّرتهما بالمعاني القديمة، أيام كان ودّ القرى يركب على ظهر المشاعر ولا ينزل إلا ليركب، ولم يستطيعا، رغم كل شيء، إلا أن يقولا في سرهما: قلبنا معك. افترقا على موعد، وتبادلا سلاماً خاصاً بخبط اليد على الكتف، كانا خشنين وموغلين في الخشونة، ضحكاتهما كأنها ضحكات جلاد، وخطواتهما العائدة إلى السوق أكثر خواءً من التعب.

-٥-

تمدد الليل على جسد البلدة كزعامة قاسية، جفّ هياج الحياة وجفّت اللعلعة وانتظم الناس في نعاسهم وسكونهم وتنفسهم وخفاياهم البيتية. كانت ثمة كلاب تعوي وقطط تموء وذئاب برية وثعالب تتفقد البلدة أملاً في حظّ مباغت. ثمة مغص هنا واشتهاء هناك، وصراخ لطفل هنا وهناك.

كان ليلاً ريفيًا متقناً، حيث كل شيء يموت وبعض الأشياء تحيا إلى حين.

ولأن الورطة لم تحل كاملاً، كما قدّر شاطر وقدّر المحجوب أيضاً وهما يفترقان في آخر القيلولة، كانت ثمة إعدادات أخرى لا بدّ منها، تكفّل بها شاطر من فوره.

كان الآن ثمة إعلان كبير مكتوب بخط التجار المكسر، ومعلق على حائط دكان شاطر، يصرّح بقرب إنشاء فريق النحلة الكروي، ويبحثون عن لاعبي كرة موهوبين لبدء تدريباتهم تحت إشراف مدرب قدير، ثمة وحل آخر كان لا بدّ من خوضه في ذلك الليل، أن يسعى التاجر المرهق إلى عدد من الوجهاء في البلدة، يضمّهم قسراً أو طواعية

إلى لجنة تأسيس فريق النحلة الكروي. وحين اكتملت مهمته أخيراً، وعاد إلى بيته، تنهّد بعمق. كانت في قلبه رفة خفيفة، وفي جلد امرأته التي استرخت بجواره رائحة نفور غريبة، يحسها لأول مرة منذ أضحت في بيته امرأة.

في ذلك الليل أيضاً كانت ثمة أحلام قديمة تتجدّد في يقظة حورية الحضرمية. منذ وقت مبكر جداً، ربما الوقت الذي يعود فيه الرعاة من الرعي والمزارعون من تعب الزراعة وتكاليفها غير المجدية، تخلّصت من خادمها الغشيم كرو، أرسلته إلى مزرعة صغيرة تملكها في منطقة غير مأهولة بالقرب من البلدة، طلبت منه أن يراقب نوم الطيور ونمو الحشائش الضارة على ضوء فانوس سيحمله، ويعود إليها في الصباح بثرثرة جديدة غير الثرثرة المملّة التي تعودتها منه. كانت تريد الوقت كله لها وحدها في هذه الليلة على الأقل. تخاف من الغشيم، قصّاب الخدمة المستبد، أن يكسر أحلام يقظتها التي سترشّها بالعطور وتفرشها بالورد وتبنيها عاليًا، ويخترع لها أحلاماً واطئة. عبد النبي سمارة، من ضواحي دنقلا في الشمال، سيقيم هنا بوصفه مدرّساً في المدرسة الابتدائية. ما أحلى المصادفات! هذا ما تفكر فيه. ما أغرب المصادفات! هذا ما كان سيفكّر فيه الغريب الفقير المسكين بلا مقومات إذا صادف وعرف أنه ارتقى قمراً في حلم يقظة امرأة.

كان من حسن الحظ أن لا سيرة للكرة والفرق الرياضية، والعضلات السمينة على الساقين، قد وردت في حلم الحضرمية تلك الليلة، وفي أي ليلة أخرى أعقبت ذلك، منذ أن ألقيت سنارة الصيد في الماء العكر.

كان لسان المحجوب، الذي ربط إلى وتد الصمت لسنوات

طويلة ممتلئة بالأسرار، يقاوم ذلك الوتد بمشقة حتى تشوهت جلسته العائلية، استحال تعلّق عياله الروتيني برقبته الذي يحدث في كل ليلة إلى خربشات قطط، وعشاء الفول والطحينة والرغيف المحمص الذي يحبه، وقُدّم إليه بطريقة آلية إلى عشاء من نار، لم يكن يتعاطف كثيراً مع المسكنة، ولا تبدو له الحياة في معظمها سوى ربح وخسارة يحاول دائماً أن يحولها إلى ربح. صورة الغريب المسكين كانت تتراقص في رأسه، وما يمكن أن يواجهه لا يمكن أن يتكهن به أحد. كانت زوجته ثرثارة وأرستقراطية بمقاييس الأرستقراط في البلدة التي كانت بلا أرستقراط حقيقةً، لم تلبس ثياب "الزراق" الشعبية ولا فساتين الكلوش المنتشرة على أجساد الريفيات أبداً، و لم تخرج إلى الجارات وجارات الجارات إلا وفي جسدها بخة من عطر أوروبي أو صندل من واردات الهند، وفي شعرها توكتان لامعتان، وتحيط بساعديها أساور ذهبية من نقش صاغة عاصميين كان المحجوب إذا ما قورن بهم، في الواقع، مجرّد بائع ترمس أو فول مدمس، لا أقل ولا أكثر. انتظرت زوجها المتجهّم حتى أكمل عشاءه الناري، تجشّأ غازات البقوليات الحامضة، ولحس أصابعه بقاع لسانه، وحك لحيته بحكاك الباحثين عن مخرج، ثم تنظّمت وتعطّرت والتهبت وأشركت شعرها المديد وحاجبيها المكحلين بإتقان في ثرثرة الإغراء، جربت المشي أمام كيانه المنتفخ، المهموم، عدة مرات، و لم تلفت انتباهه، سألته:

- هل خسرت أساورك في سوق الذهب؟

قال وهو شارد: لا.

- هل تهيّجت عليك أضراس العقل مرة أخرى؟

- لا.

- هل مات أحد من العائلة في الشمال؟

- لا.

- إذن ما الأمر؟

قال: سنّارة حورية الحضرمية أُلقيت في البحر .

ثم انقلب على جنبه الآخر في السرير، تاركاً غليان العطر ودهشة كبيرة على وجه زوجته من خلفه.

كانت جريرة ذلك الليل في البلدة هو أنه قد حرض كوابيس بأشكال وألوان مختلفة لعبت بنوم شاطر والمحجوب وزوجتيهما، جريرته في حق الغريب أيضاً كبيرة، لأن فرحته بالصحبة الجديدة والهدايا التي عدّها فخمة ونادرة في ذلك الريف أغرقته في نوم مثقل بالغيبوبة.

-٦-

كانت عائلة الحضارم إحدى العائلات المترسخة في البلدة منذ زمن طويل، لم تكن أساساً ولا ركيزة ضخمة، لكنها بناء محدود يملك فلسفته الخاصة، دخلت البلدة في البداية كأفراد بيض مخمليين ربما فرّوا من ركود حضرموت وميناء المكلا وعدن، وتقلبات ثورية أو ثأرية أو صراعات قبلية في بلدانهم، شققتهم إلى خرق وشتتتهم في تلك المنافي البعيدة.

كانوا عشاقاً للحياة بشكل كبير، في أجسادهم عطش ملحّ للاستقرار في أي بقعة، وفي أذهانهم أفكار مدهشة عن البيع والشراء وترقية الأسواق الريفية التي كانت مجرد أسواق خامدة لا تملك أفقا كبيراً ولا فكرة لتطور قد يحدث ذات يوم.

الذين وصلوا البلدة منهم دخلوها دخولاً غير عادي، ومنذ أيامهم الأولى روّجوا الوجبات الفول المخلوط بالعدس كأفضل وجبات للعشاء في الريف، وللطعمية المصنوعة من الفول المجروش والبصل والفلفل الحار كأفضل وجبة مساعدة، وللحلوى الطحينية كتحلية فذّة ومقوٍّ للذكورة يحتاجه الرجال ليبقوا رجالاً، وتحتاجه النساء ليسندن تلك

الرجولة الشرسة بأنوثة أيضاً تكتمل. وكانت فكرة دكاكين الناصية التي تلفت النظر أكثر وتجتذب البيع، والتي شاعت بعد ذلك، فكرتهم التي جاءوا بها وطبّقوها في المحلات التي امتلكوها بعد ذلك. وقد لمع بائع فول منهم اسمه قرموش بصورة مبالغ فيها ولدرجة أن سائقي السفر القادمين من العاصمة والمدن حملوا سمعته وسافروا بها، ليلحق هو نفسه بتلك السمعة ويهاجر إلى العاصمة وينشئ فيها محلاً رائجاً لبيع الفول.

كانت أجيالهم الجديدة قد طُحنت بمطحنة الريف، وتحوّل أفرادها بالتدريج إلى ريفيين خشنين يشبهون أهل البلدة في كثير من اللعنة والسلوك، لكن فلسفتهم الأصلية في الغالب لم تتّسخ: كانت بيوتهم هي بيوت البلدة نفسها، تلك المصنوعة من الطين المطلي بروث البهائم، أو من الحجر والطوب الأحمر في أحسن الأحوال؛ وكان أكلهم هو أكل البلدة، مثل عصائد اللبن، وشرابهم هو شراب البلدة، وأزياؤهم هي نفسها أزياء البلدة المصنوعة من أقمشة رخيصة ومخيطة بخيوط ريفية خشنة، فقط تختلف في بعض التفاصيل؛ بل حتى أفراحهم التي كانوا يقيمونها كانت تقام بطقوس البلدة وبنفس المغنين المحليين، ومآسيهم، التي كانت تصرخ من حين لآخر حين يموت أحد، كانت تصرخ بصوت البلدة، وتلقيهم للخرافة والأساطير ومتابعة الأقاويل البيئية لم ينقص شبراً عن تلقي البلدة، وقد ظلوا لزمن طويل أنقياء من اختلاط الدم وتسكّع النطف في أجساد القبائل المحلية، لم يهبوا نطفة لأحد، ولا سمحوا لرحم من أرحام نسائهم أن يُلقَّح بنطفة غريبة.

كان زعماء القبائل المحلية ونظارها الكبار وتجار الريف ذوو المكانة

العالية والدخول الكبيرة إلى حدٍّ ما تعجبهم الحضرميات بشدة، تلتهب عواطفهم واشتهاءاتهم خلف شعرهن الغزير المدلوق على الظهر، ورموشهن الطويلة التي صنّفوها رموشاً صيّادة، يلتمّون في أثواب زاهية ويذهبون إلى عائلات الحضارم محمّلين بالهدايا، وعارضين مهوراً لم يسمع بها أحد في البلدة من قبل، فيُردَّون على أعقابهم خاسرين: لن يلقّح رحم حضرمي بنطفة غريبة، حتى لو كانت من عمدة أو ناظر أو تاجر يملك المال والمجد. ثم ليأتي ذلك الزمان، حين ينضج مصلح صفوان الحضرمي، ويزدري موروث أهله، كأن لم يرضعه، يغرّد خارج السرب، ليس بجدارة فقط ولكن بجدارة وتلذذ وجنون غريب.

كان مصلح هو الوحيد الذي دقّ الوشم في وجهه أسوةً بمهاجري الشمال الذين يدقّونه باعتباره زينة، نكش شعر رأسه وغزاه بالودق، أسوةً بقبائل المنطقة، لبس الصديري والسروال القصير، الذي كان عاراً في نظر الحضارم، ألغى حزام الوسط التقليدي عند عائلته، ركب الإبل والحمير التي لم يتقن أفراد عائلته يوماً ركوبها، واعتمدوا على المشي وعلى عربات يملكها بعضهم ويسخّرونها للجميع، سفّ التنباك من أجل المزاج، و نبات الحرجل الذي يستخدم لعلاج مغص البطن، تحجّم في رأسه ورقبته عند قبليين تخصّصوا في تلك الصنعة، حضر مجالس للصلح لا تخصّه في شيء، متحدثاً رئيسياً، وغنّى كورساً متشنجاً في أعياد قبائلية كان الحضارم بتشددهم يعتبرونها أعياد صعلكة وبدع لا ينبغي لرجل عفيف أن يحضرها، و لم يحضرها حضرمي واحد من قبل أبداً، وفي النهاية أنجب حورية الشبق والاشتهاء، من زواج

تعس بواحدة من الغجر الموجودين في البلدة أيضاً، ويساهمون في فوضاها منذ عهد، ولا يعرف أحد من أين جاءوا، لأن لا أحد منهم تحدث عن تاريخه، وتركوا هويتهم للتخمين الذي لن يكون دقيقاً أبداً في ذلك الشأن الغامض. كانوا سمكريين وحدادين وحواة وباعة لأواني النحاس والألمنيوم وحلاقين للحمير ومقلمين لأظفارها، وأيضاً كانوا صناع نكات عارية يتناقلها الناس في مجالسهم بكثيرٍ من المتعة والصخب.

كان نضوج مصلح صفوان الحضرمي وتغريده خارج السرب قد حدث أيام مرض الاستياء الشهير الذي انتشر في البلدة ذات يوم مسبباً أضراراً جسيمة كادت أن تقضي على بلدة متماسكة. حيث تحول الاستياء فجأةً من مجرد توتر عاطفي محترم، يمكن أن يصيب عاطفة معينة لزمن محدود ويندحر، إلى مرض مهلك توطنت أعراضه ومضاعفاته في عواطف عدد كبير من أهل البلدة، فيهم رجال وقورون ونساء يقبضون على بيوتهم وعوراتها بكثير من القوة، وحتى أطفال لم تكتمل عواطفهم بعد.

كان الآباء يستاءون من أبنائهم إلى درجة الضرب بالسياط إذا ما طلبوا قرشاً لشراء حلوى، الأبناء يستاءون من آبائهم المسنين إذا طالبوهم بالمودة والرحمة، وربما يلقون بهم خارج البيوت، النساء يستئن من زينتهن حتى وهنّ عرائس في الليالي النضرة، ويقمن بإتلافها، الأفواه تستاء من الأكل والشرب، وآذان المراهقات الدلّوعات تستاء من ترنّحات الغزل التي تطلقها ألسنة الشباب، وربما يقمن بإيذاء المتغزلين بدرجة خطرة.

كان العمدة سليمان، عمدة البلدة في ذلك الحين، هو أول من أصيب بذلك المرض كما قيل، التقط الجرثومة من راعٍ للأغنام جاء من بلدة أخرى عارضاً بهائمه، كان العمدة يفاوضه في شراء خروف يحتاجه لإقامة عشاء لبعض الوجهاء، اختلف المتفاوضان في نصف جنيه فقط، فذبح الراعي أغنامه كلها وذهب. وفي اليوم التالي ظهرت أعراض المرض على العمدة، استاء بشدة، طلق ثلاث زوجات ناعمات، كان قد دفع فيهن مهوراً وقحة من قبل، من دون سبب سوى أنهن كن يتنافسن على إرضائه في طقس مألوف يتكرّر يومياً، وكان يحبه غاية الحب.

انتشر المرض بعد ذلك، وقد قيل إن زينب، داية البلدة الموهوبة في ذلك الحين، والتي لم تتعثر الولادات على يديها قط، استاءت من يديها فجأةً فأدخلتهما ناراً فظّة، حمراء، حتى احترقتا بالكامل، وتحولت إلى متسولة فقيرة بعد ذلك. أيضاً تنازل ناظر مشهور لإحدى القبائل عن نظارته وسطوته الكبيرة لواحد من رعاياه لأنه استاء من رائحة قرع كان يُطبخ في بيته، وتنازلت فتاة عاشقة عن حبيبها لامرأة مسنة لأنها استاءت من كلمة "أحبك" التي كانت تطرب لسماعها فيما مضى. وكانت أقسى مضاعفات المرض تلك التي أصابت جبران، أحد تجار البلدة المعروفين في ذلك الحين، حين استاء من تجارته كلها فأفرغ دكانه وبدأ يوزّع السلع على الناس في بيوتهم. وقد استغل الحضارم، الذين لم يصبهم المرض بسبب بعدهم عن الاحتكاك المباشر، تلك الدربكة المرضية استغلالاً فاحشاً، فقد نسبوا جنون مصلح صفوان وتغريده خارج السرب إلى مرض الاستياء المسيطر، لكنهم لم يستطيعوا مداواته

بكل ما بذلوه من جهد: لبخوه بلبخات نبات القرض المستخدمة كدواء شائع في كل شيء، و لم يكونوا يؤمنون به كثيراً، بخّروه ببخور اسمه التيمان كان يستخدم لطرد العين والحسد، دقّوا له الزار عند أحمد حليمة، شيخ الزار الوحيد بالبلدة، دقوا الدفوف أيضاً، وسدّوا أنفه بالقطن والفلين حتى لا يشمّ مواطن الخلل وينزح إليها، خطبوا له سوان الحضرمية، وزمزم التي كانت حبشية الأصل، لكنها تربت عند عائلة حضرمية، ولن تعتبر خطيئة كبرى إن زُوِّجت لحضرمي، تهوروا في بيت عائلة "بادان" القبلية العريقة طالبين منها القرب، بعد فتوى كاذبة من بعضهم بأن عائلة بادان ذات جذور حضرمية لم ترد أن تفصح عنها، ووصل بهم الأمر أن ذهبوا مرتعشين إلى بيت "رزان قمر"، باحثة العادات العاصمية الجميلة التي دخلت البلدة ذات يوم لتكملة بحث جامعي تكتبه عن ريالة أطفال أفريقيا، ناسين أنهم حضارمة لا يهبون نطفة لغريب، وأن رزان قمر باحثة عادات غامرت بالمجيء إلى تلك الأصقاع البعيدة لتبحث، لا لترتبط برجل بدائي يغرّد خارج سرب عائلته.

كان مصلح يشم ويسمع، ويتلصص على اجتهاداتهم بحواسه كلها، ويستفرغ من قرفٍ غريب.

كان الشيخ "قماش"، المدفون في ضريح حجري في أحد أطراف البلدة، هو طبيب المجانين المعتمد في البلدة والبلاد الريفية المجاورة في تلك الفترة، تُنسب إلى ضريحه الحجري حكايات رائجة عن تطليق امرأة من جني تزوجها نكايةً بالبشر جميعهم، وكاد ينجب منها أطفالاً بشقاوة الجن، وتزويج عائشة الطرشاء، حاضنة القرف والذباب، التي

صنّفها طلاب الزواج وغيرهم عانساً إلى الأبد، إلى رجل أرستقراطي من إحدى المدن البعيدة، وانتشال ضغينة سحرية من بئر عميقة رمتها مطلقة في ليلة طلاقها وقلّصت من شهوة زوجها السابق حين تزوج من جديد.

حملوا ما يعتقدونه جنونَ مصلح إلى الضريح في اليوم المخصص للزيارة الذي لا يعرف أحد من الذي حدده. نثروا الجنون على الضريح، وتوتروا إلى درجة أن حلوقهم يبست ومفاصل أقدامهم تراقصت. بعد لحظات خيل إليهم أنهم سمعوا الضريح يشهق: لا إله إلى الله، ثم طاردهم غبار أسود لم يروا له مثيلاً من قبل، تغلغل في حلوقهم وأنوفهم، وحتى في أماكنهم السرية، و لم يتغير شيء من سلوك مصلح وتغريده خارج السرب.

في النهاية تركوا محاولات علاجه وابتدأوا في ذمّه كلما أرادوا ذمّ أحد، ليتحول ذمهم بمرور الأيام إلى شخبطة فقيرة على حائط نزواته المتماسك. وظل متهوراً حتى بعد أن انقشع مرض الاستياء عن البلدة وعاد الناس إلى حياتهم العادية يحاولون ترتيق خسائرهم؛ ظل متهوراً حتى وهو يجوع، ويعطش، ويرقص، وينتشي بخمور المحليين الوغدة، ويقيم في ذلك الحوش المترب، الغاصّ بالفوضى والنزق، في المنطقة المنبوذة التي تقيم فيها جماعات الغجر. وعندما مات بعد ذلك، من خمر مغشوش بزيت الخروع، وجد أصهاره الغجر ملابسه التي كانت على جسده من كتان أصيل، ونعليه جديدتين تماماً ومن جلد أملس، وطاقيته حمراء مطرزة بخيوط زاهية، وساعته، التي لم يكن يلبسها أبداً، "وست اند" أصلية، وفي سرواله القصير تكة

لم تستعمل إلا قبل سكرات الموت بنصف ساعة فقط. جرّدوه من كمالياته كلها وأعادوه إلى أهله الحضارم جسداً أساسياً، نظيفاً من كل شيء، وزعموا فيما بعد أنه خَرِف فجأةً قبل موته وتاه في البلدة، وأضاع ملابسه وساعته وتكته ونعليه الجديدتين. وفي أول مناسبة ضاجّة في البلدة، وكانت عرساً قبلياً يسمح بالتطفل عليه لكل من أراد، شاهد الحاضرون سمعان رستم الغجري، زعيم فوضى الغجر القوي في البلدة، مكتملاً وأنيقًا بكساء مصلح، من طاقيته الحمراء إلى نعليه الجديدتين، وقد ازدان ساعده بساعة "وست اند"، يطالعها بين حين وآخر وهو يبتسم.

-٧-

نشأت حورية مدهونة بوجه نساء الحضارم النظيف، المخلوط بشيء من سمات الغجر، تعجبها الزينة الغجرية، تعجبها خلاخيل القدمين وأساور القصدير على الساعدين، وتوكات الشعر البنفسجية والحمراء، ونبت لها طبع لا في الحضارم ولا في الغجر.

وكعادة الغجر، همست لها أمها باسمها السري، الذي لن يعرفه أحد غيرها، في يوم مولدها، الاسم الذي يعتقد بأنه يبارك المولود ويبعد الشر عن مستقبله، سمّتها وهيبة، كاسم ثانٍ يستخدم وسط عشيرة الغجر. وامتلك مصلح امتياز الاسم الثالث، الذي سيستخدم في المجتمع البعيد عن مجتمع الغجر، مجتمع البلدة المليء بالقبائل والأعراق، ويشكّل الغرباء المهاجرون من مناطق أخرى لحمة كثيفة داخله. سمّاها حورية، وفي ذهنه تتراقص حورية عبد الرحمن جوجو، مغنية الشعب العاصمية المعتقة ذات الوجه الملائكي والمئة أسوارة وخاتم من ذهب حر، وكانت قد مرت بالبلدة في إحدى السنوات الثرية، كصوت فارع ورشيق، في حملة خيرية كان شعارها "ادفع واستمع"، وجمعت من غمزاتها ولمزاتها وسواد عينيها وترقيصها

حتى للجن المرابط في البيوت المهجورة ما لم تجمعه سلطات الضرائب ومكافحة التهرّب الجمركي في عام كامل.

كانت البلدة قد التهبت بحورية جوجو أشد الالتهاب، غرستها في الضلوع المستقيمة والمعوجة، القلوب التي تنبض والتي كفت عن النبض، وسجّلتها على لائحة الضيوف الأشد فتكاً بالحزن مهما عظم. روّج العطارون وباعة كماليات الزينة لعطرها الـ"فلور دامور" وكريمها الـ"نيفيا" الذي يضخّ رائحة الصنوبر؛ روج الصاغة لنقشات أساورها وعقودها التي غيّرتها عدة مرات أثناء وجودها في البلدة، وتنافس الشعراء المحليون في مدح ضفائرها الطويلة المعقودة بخيط أحمر حتى صارت ضفائر الأنثى المفضلة، تسعى النساء للظهور بها في كل وقت.

كان مصلح صفوان الحضرمي وعشرات المراهقين في ذلك الحين قد أحبوا المغنية سراً، أهلكهم بهاؤها، لدرجة أن يتسرّبوا من خيالات الطيش المحلية، التي تستدعي في العادة نساء مألوفات وعاديات، ويحطّون في خيالات طيش بعيدة، يخطفون المغنية داخل تلك التخيلات، يدلقونها على فراش نزواتهم وقهوة صباحهم وسريان دمهم في العروق، وتزوجها بعضهم بتشنج في أكثر من ليلة متوهّمة. وحين تغني وترقص على المسرح البدائي الذي جهز في وسط البلدة يتسابق الجميع لنثر النقود الورقية على رأسها، والعودة بابتسامتها، لتدخل في حلم يقظة جديد. وعندما رحلت بعد انتهاء حفلاتها السبع تذكّروها بمرارة، نحتوا القلوب والسهام على الأشجار، وكتبوا أشعاراً غاية في الرومانسية على حوائط الطين.

استاءت عائلات الحضارم بشدة حين سمعت بالاسم الذي استوحاه مصلح من مغنية لم تنل احترام أحد من تلك العائلات قط، تنازل أفرادها عن كبرياء أخير، جاءوه، من أشيب حضرمي حتى آخر العنقود في عائلة الحضارم، تجمّعوا في حوشه المترب وسط فوضى الغجر، كانوا يحملون وجوهاً حمراء ودماءَ تغلي في العروق وما يشبه لسع الخناجر تحت الجلد، وقد استدعوا أسماء ذات قيم وتاريخ طويل ورماد معنوي، ألقوها أمام أذنيه، قالوا:

- رجاءً يا مصلح، سمِّها فطومة.

قال: لا.

- سمِّها عدنية إذن.

- لا.

- سمِّها جواهر، أو صالحة، أو ملكة الدار، أو أمة الفضيل، أو بلقيس، أو سبأ.

- لا.

- يا مصلح، سمِّها، إن شئت، ماكينة الطحين، أو شيطانة الإنس، أو اللقمة التي تقف في الحلق، لكن اسم المغنية الفاجرة، لا... رجاءً يا مصلح... لا.

قال: لا.

كلّمهم بأعكر مزاج في قلبه استطاع مناداته في تلك اللحظة وأغلظ حبل في حباله الصوتية، نثر على ثيابهم التراب الذي لمّه من الأرض، وقضى على آخر صلة كانت تجمعه بتلك العائلات التي انحدر من صلبها، وتفهها. وارتفع بصوته العصبي أمتاراً، محلِّقاً في مقطع من

تلك المقاطع التي غنتها حورية جوجو وظلّ عالقاً بذاكرته لم ينسه أبداً:

شلال الشعر يا يابا
ونفور الغزال في الغابة.
ومضات العيون يا سيدي
فرحة انتصاري وعيدي.

تفرّق الحضارم في قمة انزعاجهم، والتمّ أصهاره الغجر في الحوش، من أشيب غجري حتى آخر العنقود في قبيلة الغجر، كانوا يحملون سلال التمر والسكر وخامات التنباك والملح والتبغ المعسل الذي يستخدم في النرجيلة. وقد اخترعوا نكات جديدة ابتدأوا في حكيها وهم يضحكون. كانوا مساطيل بالنسب الحضرمي الذي ما كانوا يتوقعونه، وفرحين بأغلى نطفة خرجت من رحم فوضاهم. كانت نساؤهم في الغالب بتلات للشوك، وكان رجالهم حبوب لقاح لأكثر عناوين الفوضى لفتاً للنظر في البلدة. فرشوا حصيراً من سعف مكدود، أوقدوا بخوراً ذا رائحة غريبة، دقّوا نحاساً أجوفَ ورقصوا أمام بيته رقصة "الوز–وزو" التي تحرك الجسد السفلي في تناغم، و لم تكن من تراث الغجر القديم لكنهم ابتكروها خصيصاً لذلك اليوم، احتضنوا الرضيعة، قبّلوها باشتهاء، وعلقوا على جيدها تميمة من الجلد كانت تحوي كثيراً من التعاويذ.

قالوا: أطال الله عمر خيولك يا حضرمي.

كانت جملة متوارثة عند الغجر، ارتبطت بعشقهم التاريخي للخيول، ويرددونها في أذني كل من افتتنوا بحبه، لكن ترديدها أمام مصلح، أو أي أحد غيره في البلدة، لم يكن يعني شيئاً على الإطلاق، فلم تكن للرجل خيل، ولا كان في البلدة كلها سوى ثلاثة أحصنة هرمة ويائسة عند أحد المزارعين، تتمنى الموت في أي لحظة من شدة ما نالها من الظلم، ولدرجة أن النساء في بيت ذلك المزارع كن يستخدمنها موائد للطعام ترصّ على ظهورها القدور والأطباق، أو ملهاة للصغار، بربط أراجيح الحبال على سيقانها.

احتضن مصلح أصهاره الغجر جيلاً بعد جيل، أغرقهم بسجائر القندول المحلي الذي يحبونه، ذبح ثوراً لغدائهم وخرافاً مجيدة لعشائهم.

قال: أحبابي وأنسبائي. وتلقّى، بصدرٍ واسع وألم مكبوت في صدره، قرصة عقرب أليف كانوا قد نزعوا سمّه ورموه على جسده، وكية من النار غرسوها في فخذه وهم يتمتمون بلغةٍ غريبة درءاً للحسد كما أخبروه.

تدرّج الزمن بأيامه المنعشة والمملة معاً في البلدة، مات من مات وولد من ولد، اغتنى من اغتنى وافتقر من افتقر، وهاجر من هاجر وعاد من هجرته من عاد، وتحول تمرّد مصلح القديم وتغريده خارج سرب عائلته إلى ذكريات مرة يعلفها القادمون الجدد للبلدة ويدفنها الذاهبون إلى الموت، وربما تهاجر مع المهاجرين إلى المدن والمنافي البعيدة.

كانت البيئة المحلية ترضع وتفطم، الفرح يهزم الحزن حيناً وينهزم

أمامه أحياناً، والطفرة التنموية التي تحدث في شتى بقاع الأرض لا ترمي على البلدة وسكانها سوى رذاذٍ دائخ ووعودٍ لن تنجز في أي وقت. جاء محسِّنون للتربة من العاصمة، غرفوها شهوراً، غرسوا في طيّها أنواعاً غير مألوفة من البذور، وتركوها تالفة وذهبوا. جاء محصِّلو ضرائب خشنون وقساة، بعثروا دفاترهم وتحرياتهم التي طالت حتى أقفاص الدجاج في البيوت، وانصدموا كثيراً، وانزاحوا؛ ومنقّبون عن نفط خيالي، مدعومون بالخرائط والأبحاث وشهادات خبراء عالميون، نبشوا هنا وهناك، وردموا الأرض من جديد وذهبوا. تجول في ليالي الحلكة المسيطرة ضوءٌ لكهرباء محدود القدرة، ما لبث أن شلّ، وانغرست في العراء أعمدة لأسلاك الهاتف ما لبثت أن تساقطت واحداً تلو آخر. جاء أيوب المغني وفرقته الموسيقية، وأبناء الماحي المتخصصون في المدح النبوي، وهتّافون في حملات انتخابية غير بريئة ولن تنصف ناخباً، وحواة مدفوعون بالسمعة الغبية للريف.

كانت البلدة وعاء التعب الذي تتعب فيه المروءة في أي وقت، وتسحله القبائل بتعصبات وتناحرات وتقاليد فجة؛ كانت وعاء الإمساك الذي يمسك بأقدار ومصائر وقوانين وعرة لا يُعرف من الذي سنها؛ ووعاء الإسهال الذي يتقاطر فيه الدم. لا سلطة للفجر أبداً، إلا في حدود إنارتة العتمة، لا سلطة للمطر إلا في حدود لثم الأرض وإنبات ما يمكن إنباته، لا سلطة للسلطات الحكومية أبداً إلا في حدود القبض على لا شيء.

كانت حورية مصلح أجمل من نما وترعرع وتمشّط وكحّل رموش عينيه وسط بنات جيلها، وأسوأ من كبر وغازل واستخدم لساناً زينته

الوعورة. أخذت من أبيها الميت تمرّده وتغريده الشهير خارج سرب العائلة، ومن أمها، التي تركتها طفلة وفرّت بصحبة رجل من أعراب بادية البطاحين المترحلين عادةً في وسط البلاد، زار البلدة ذات يوم، خفّة القلب وتوهانه. تولاّها أهل أبيها الحضارم، مضطرين، بكفالة كاملة في سنوات الطفولة الأولى العرجاء، تمثلت في إيوائها في أحد بيوتهم وإطعامها وكسائها وتخصيص عنزتين مقتدرتين لإرضاعها الحليب وحمار ذي طبع أليف من أجل تنقلها في البلدة، برغم كراهيتهم للحمير، وامرأةٍ من صميم دمهم المخملي لغسلها وتنظيفها وتسريح شعرها الغجري الذي دائماً ما كانت تفضّله فوضوياً ومتّسخاً. لكنّ تشنّج الكفالة ما لبث أن خفّ كثيراً حين جاءهم الغجر ذات يوم بعيونٍ حمر وألسنةٍ غايةً في الاتساخ، وسّخوها خصيصاً لهم، يطالبون بما سمّوه بدل الدم الغجري، عدّوه من لحظة صرخة ميلاد الصغيرة إلى إرهاصات بلوغها الوشيك، مروراً بالحبو والمشي، والتقاط اللهجة الحضرمية، وبالغ زعيم فوضاهم سمعان رستم حين توغّل بخنجره في المستقبل ورصد من عنده خمسين سنة أخرى محتملة قد تنفقها الفتاة في كفالة الحضارم، وتتحول إلى جدة. كان كشف الحساب الذي قُدِّم في ذلك اليوم مبلغاً جسيماً من المال سيجعل مزارعي الحضارم الصلدين ينهدّون كدحاً، وتجارهم القليلين في البلدة يتاجرون بتجارة لغيرهم لا لأنفسهم، وسائقيهم السفريين محدودي العدد يستبدلون مزاج السجائر الغالي بمزاج التنباك الرخيص، ويضاعفون الشحنة وعدد الكيلومترات. اختصروا شر الغجر إلى أبعد مدى: سلّموهم الفتاة، وبرفقتها قناطير من اللعنات على مصلح وتمرده وخطاياه

وتغريده خارج السرب وقبره الحافي الذي لم يضعوا عليه حتى شاهدين واسماً، و لم يزره قط أحد منهم منذ أن تم حفره.

حين بلغت حورية الثانية عشرة، وهي داخل فوضى الغجر، أرادها الزعيم سمعان رستم لنفسه دون أي اعتبار لأي شيء. كان قوياً في إدارة فوضى الغجر، يحرّكهم بصوت متين البنيان وحنجرة تُفتِّت الصخر، وحين يعرّي كتفه اليمنى في أوقات عصيانهم النادرة يأتيهم وجه (جوتو) جدّ الغجر كلهم، الذي لا يعرف أحد إن كان حقيقة أم مجرد اختراع، والذي كان منقوشاً على كتف سمعان اليمنى، مخيفاً وصارم التقاطيع، ليقضي على ذلك العصيان في لحظة. كان سمعان قوياً بالفعل، لكن موهبته في خطب ودّ النساء، خاصةً الصغيرات منهن، كانت صفراً. كان يتلعثم، ويعرق بغزارة، ويتلاشى في أول صدّ لمغازلته، وينتهج نفس النهج إذا ما غازلته إحداهن. فاجأ الصغيرة في تقلصات أول عادة أنثوية شهرية تأتيها، كانت تتلوى وتنتحب وتحسّ بملاك موت حقيقي يخاطب روحها في تلك اللحظة. قال الزعيم الغجري: تعالي إلي صدري يا بنية، فرمته بكوب خشن من أطباق النحاس فيه شراب مرّ أعدته إحدى الغجريات لعلاجها، وأحدث في ساقه رضّاً بليغاً تحول إلى عرج ظاهر استمر يلازمه إلى أن استبدلته القبيلة بعد أن هرم.

عندما بلغت الخامسة عشرة، وامتلكت خيار أن تتزوج أو لا، ومن الذي يلائمها كما تعتقد، تزوجها قبر قبرسلاس الإريتري الأصل، وكان شرخاً هامّاً في ليالي البلدة، لا تنهدّ إلا به، جاء من إريتريا القريبة من حدود البلدة طفلاً مشرداً من حروب ومجاعات أفنت أهله، تُميّزه

عينان كحليتان براقتان وكتفان أشبه بكتفي نعامة، ويسري في جسده قلق غريزي واضح، يهزهز ساقيه ورموشه الطويلة باستمرار، نشأ في البلدة، عمل مزارعاً بلا أي خبرة أو مزاج، تحول إلى لص قادر على سرقة الرمد من عينين صديديتين، وفي إحدى السنوات اليابسة من الغناء الأصيل، وبعد أن هاجر كثير من المغنين العروفين في البلدة، ليجربوا الغناء في مكان أفضل، جرب صوته بأغنية اسمها "الرموش الجارحة"، كتبها ولحنها بنفسه، بإمكانيات فقيرة للغاية، أمام سكارى ومتسكعين ليليين كان يجلس وسطهم، فطربوا إلى أقصى حد واعتمدوه مغنيّاً منذ تلك اللحظة، وحين بدأ يعرف على نطاق أوسع التقى بحورية ذات يوم، وغازلها بإتقان، فتزوجته على الفور.

-٨-

- يا غشيم كرو.

أنفاس الكنت المهرّبة مازالت عالقة بشفتيها المحمرتين في اليوم التالي، وهي تنادي الغشيم المرابط في مزرعتها البعيدة، حيث أرسلته. لم يحضر بعد. كانت قد قضت ليلة مضعضعة، وبحاجة الآن إلى عينيه المجنونتين لتفسدا على تخيّلها مرارته. خادمها اليتيم المجنون، الجبار، لأكثر من عشر سنوات، هو أيضاً شديد الإخلاص لتهيّجها حين يحدث، يرقده على صدر يتيم، ويهدهده حتى ينام.

كان الغريب الشمالي الآن يلعب في قلبها لعبته المهيمنة، يراوغ كنحلة ويهشّم كمعول. تستعيد مراراً ما سمعته من التاجر المتعاون، ورددته لنفسها: عبد النبي سمارة، من ضواحي مدينة دنقلا في الشمال، مدرّس ابتدائي، يسكن في استراحة الحكومة. تذكّرت تشجيع اللعبة الحلوة الذي ورد على لسان شاطر أيضاً، وانتبهت أكثر، نعم، تشجيع اللعبة الحلوة. هي أيضاً تشجع اللعبة الحلوة، لكن ألعابها خطرة جداً، ولاعبو فريقها الشبقي المدربون جيداً لم يخسروا أبداً في أيِّ تحدٍّ خاضوه من قبل. كان الشمال جديداً على تذوقها تماماً، لم تسمع بالنيل فائضاً، أو

موحلا أو بين بين، لم تسمع برياح السموم اللافحة التي تنضج المحاصيل هناك، وموسم لقيط التمر الذي يُعدُّ عيداً؛ لم تسمع بمناقير طيور السمبر تتقافز بين الجداول، وثعابين الدفان الكبيرة التي تختبئ تحت الرمل، متحفزّة، والشماليات اللائي يختلقن الأسرار ليفشينها، ويودعن رجالهن النازحين في الأرض، ووراء الرزق، بمشاعر الأرض نفسها؛ لم تسمع بجريرة الفيضانات وخيانة المواسم عندما تخون ملقحيها. أقصى مكان وصلته كان العاصمة، ونيل العاصمة يبدو مروَّضاً: مياهه هادئة، وضفافه أرهقتها السياحة، فغفت بلا أي انفعال.

أرادت، منذ شاهدت الغريب بالأمس، أن ترسم له خدوشاً على متعتها فلم تستطع، أرادت أن ترسم لقمته حين يأكل، وثيابه الداخلية حين يجلس متخففاً، وترنّحات لسانه وهو يلحس أطباق البامية والقرع والفاصوليا. أرادت أن ترخي سمعاً مضعضعاً لشخير ليلي ربما يضخ من حلقه ويجاور وسادة أحلامها، فلم تستطع، أرادت أن تسمع نهرة شمالية قاسية من حلقٍ خشن وغزلاً دافئاً من قلب رقيق، فلم تستطع. قبر قبر سلاس المغني، شاشوق رمز القوة، علوب الحضرمي، وهندوب عيسى الأتمني، ثلاثة ندوب التصقت بسيرة العمر الشبقي، وتكاد تنمحي، كانوا يشبهون أشياءهم بشكل غريب، وكانت أشياؤهم أيضاً تشبههم، كأنهم أشياؤهم، أو كأن أشياءهم هم.

كان قبرسلاس خشناً كصوته الذي لم يكن يطرب خلقاً كثيرين في الواقع، وكان شاشوق متسخاً كسراويله التي يحبها متسخة ويأبى بضراوة أن تنظَّف، وعلوب الحضرمي يسيل على غريزتها كلعابه الذي لم ينقطع عن السيلان، حتى مضى، والأتمني شبيهاً بخناجر

صيده التي تتسلق حوائط بيتها الطيني. كانت الآن قادرة على ترميم ذاكرتها المحطمة واستحضار تلك التنهيدة العظيمة التي أطلقتها في ليل بعيد، تلك الضحكة المستلذة التي بكت بها في ليلٍ آخر، كان ممتلئاً بهجة؛ ذلك اللسان المتحفز الذي سنّته في ذلك الوقت ما بين العصر والمغرب، عذّبت به العمدة ومستشاريه حتى زفّوها للأثمني عجلين ومزغردين، ذلك الجرذ الصحراوي الذي قضم إصبعها وهي صغيرة في المهد عند الغجر، ذلك الرمد الصديدي الذي لمحته في عيني صبي مر بالبلدة منذ ثلاثين عاماً، وظنته علامات سحر، ذلك الفخذ الأملس من لحم الغزال الذي التهمه أبوها قبل وفاته بساعتين، لكن خيالها الذي يلهث خلف الشمالي الغريب، يحاول غرسه في التربة الحية، كان معتلاًّ ومهدود الحيل بشكل غريب.

أسسها قبر قبر سلاس المغني تأسيساً فريداً من نوعه، لم يمنحها أي فرصة لانتقاء شفافية العتاب واللوم، أو سن اللسان الأنثوي المتوقع سنّه أحياناً، لتكتمل السعادة الزوجية. كانت أغنياته مخبولة وعصية الإلهام، وكان بحاجة إلى امرأة بلسان مفجوع، ودم معكر، وأخطاء في اللغة والزينة وقياس الفساتين حتى تلهمه. كان يطعمها برطانة أهله الأحباش بعد خلطها بقليل من لغة العرب، فتبدو في الحكي الذي يسمح لها أن تحكيه أراجوز محايداً، يجيئها بمساحيق للزينة صممت لأرستقراطيات فادحات، اقتنينها من "ويللا" و"شانيل" وألقينها في قمامة المدن بعد لحس كثيف، ووصلته من مشردين يلمّونها ويبيعونها في القرى كتذكارات، يسكب على فساتينها المصاغة من أقمشة الكستور والباتستا والبوليستر الرخيصة كثيراً من الماء وحبر الكتابة

الشيني، ويضحك بانفعال، يلقّبها بالبطة، من دون وجه حق، وكانت نحيفة كعود من القصب، يمسكها من سبيب شعرها الغجري الغزير، ويلقي بها في متعة أحادية وغدة لم تحس يوماً أنها متعة، وحين يصفو إلى عوده ذي الأوتار الممزقة، في أمسيات خاوية من النوايا الحسنة والسيئة معاً، ويلحّن كانت تبكي بحرقة، فيندلق بكاؤها إلى ألحانه، ممتطياً أغنيات زفّات العرس وليالي الدخلة و"شحم البنات". كانوا ينادونه أحياناً ليغني في ليالٍ محدودة وأعراس فقيرة، فيغني بصوت خشن عقربي يلدغ، ولا يطرب حتى قوافل الحمير التي يربطها المحتفون في ذيل تلك الأعراس.

كان قبر قبر سلاس الإريتري هو مؤسسها الحقيقي، أسّسها بتأنٍّ وإخلاصٍ تافه منقطع النظير، منح طفولتها الفقيرة أطناناً من الوقت كانت أكثر من كافية لتعلّم السهاد والأرق ومصادقة الوساوس بامتياز، وإنجاح مشروعها الشبقي الذي سيسيطر على مستقبلها بعد ذلك. تحمّلته وحدها، بعيداً عن أهلها الحضارم والغجر، بوصفه قدراً فُصِّل لها لتتحمله، تمنّت مراراً أن يمرض بمرض السل، الذي كانت جراثيمه متاحة بشدة في البلدة، لترى مخاطه أحمر ونزيف رئتيه أحمر وهيكله نحيلاً ويابساً ومهشماً. تمنّت أن يتبوّل على فراشه في كل ليلة حتى تفضحه، تطوف بملاءته المبتلة على الجيران وجيرانهم والبلدة كلها، تمنت أن يمتلك هواية الصيد، يخرج إلى الأحراش القريبة، صيّاداً أبله، ويأتوا بأخبار موته، وسراويله ممزقة إلى خرق. وحين قال لها في ليلة يابسة، تلت ليالي عدة أشد يباساً، لم يستدعه فيها أحد إلى حفل، وكان منتفخاً بخمر الذرة الرخيص: أريد أن انتحر يا حورية، لم تصدّق

أذنيها، أسرعت إلى مخزن داخلي في البيت وجاءته بسم الفئران إثباتاً لتعاونها في الإسراع بتنفيذ رغبته، لكنه ضحك، شدّها من أذنيها إلى تلك المتعة الأحادية الفجّة.

في إحدى المرات خرج لسانها عن سكّة القمع فجأةً، ذهبت إلى أهل أمها الغجر، وصفت لهم المغني قبر قبرسلاس الذي لا يعرفون خفاياه كما تعرفها، وصفته في ليله البيتي عنيفاً وعارياً حتى من سروايل تلملم العورة، ولدرجة أنهم تخيلوا عورته وشمّوا صديداً محتملاً ربما ينزّ من سرته. وصفته لهم حين يقوم وحين يقعد، وحين يضرب ويشدّ الشعر، وحين يدلق طبخها على الثياب، وكشفت لهم عن سبعين أثر لجراح كانت على جسدها، في أي موضع يمكن تخيّله. ذلك اليوم اهتاج الغجر، قنصوا له في فترة استراحة بين أغنيتين في حفل كان يحييه، قيّدوه إلى جزع شجرة قوي، وأجبروه على إهانة الفن بضراوة حين ربطوا بجانبه عشرات الحمير، التي استعاروها من هنا وهناك، ليغنّي لها وحدها سبعاً وثمانين أغنية، بعضها كان مؤلفاً وملحناً بالفعل، وبعضها اضطر لتأليفه وتلحينه تحت زمجرة السياط على جلده، لكنّ ذلك كله لم يغيّر شيئاً من خطة تأسيسه للفتاة، التي كان يتبعها بإخلاصٍ تافه. وفي مرة أخرى، حين أحست به دافئاً بعض الشيء، كلّمته بنصف لسان مفجوع، سألته:

- هل تحبني يا قبر قبرسلاس هيلا؟

فاستغرب بشدة، استغرب حتى كان يؤدي وصلاته الغنائية وهو فاغر العينين والفم وممزق الشعور، سهر ليلتين بليغتين في الإيذاء، محاطاً بالعصي ونشارة الخشب التي تسبب حكّة الجلد وسياط جلد البقر،

حتى استطاع أن يعيد الفجيعة كاملةً إلى لسانها. وحين حطّمه راقصون هستيريون في عرس لم يكن مدعواً إليه، وغنّى فيه تطوعاً ليروج لأغنية جديدة، نهبوا شعره، وضاعفوا من عدد ضلوعه إلى ثمانية وأربعين ضلعاً، لم تحس بأنها ترمّلت أبداً، و لم تبدُ للناس في شهقة الفقد، فاقدة أصيلة، رافقت حطامه حتى النهاية، سمعت أصدقاءه ومعجبي فنه القليلين يترحّمون ويبكون ويلهثون، وهم يردمون القبر، ثم عادت إلى بيتها لتفرد شعرها الغجري كما تريده دائماً، وتعدل فساتينها، وتطرد مفردات الأحباش من لغة اللسان، وتخرج إلى البلدة، حورية جديدة.

كان معجبو فنه وأصدقاؤه يسألونها كلما صادفوها: هل هكذا يحدّ على قبر قبر سلاس المغني الأصيل؟

فتبصق على وجوههم ببصاق الدلال والزينة والشعر المفرود الذي يعانق الكتفين.

- يا غشيم كرو .

الآن نداؤها تجاوز ضيق البيت وخرج إلى اتساع الطريق، و لم يعد الغشيم بعد من منفاه الذي أرسلته إليه. كان النهار شديد الحرارة، وحاقداً بشدة على الحيطان، يسحب من تحتها الظل، على رؤوس المارين في الطرق، يلسعها بلا رحمة، وعلى ندائها شخصياً، يعدو به من شارع إلى شارع، ومن زقاق وعر إلى زقاق وعر.

كان الغشيم كرو الذي شاركها غبار السنوات العشر القاحلة الأخيرة قد اختفى من ذاكرته الخاصة وهو طفل، والآن في قمة المجد الشبقي يستحيل إلى اسم مطارد، لا يمكن أن يكون في المزرعة حتى الآن، لا يمكن.

- ٩ -

كان الغشيم ولداً لكرو شاويش، مبيض أواني الألمونيوم والنحاس في البلدة، الأكثر شهرةً ودراية، وسليل عائلة عبدي الصومالية الأصل التي حقنت أيضاً في عروق البلدة منذ عهد بعيد فراراً من ركود أو لدغة ما في بلادها الأصلية، وتحولت أجيالها الجديدة إلى كيان لا يمكن تفرقته عن كيان البلدة. حتى اسما شاويش وكرو كانا من نتاج ذلك التحول. أنجبه أبوه على كبر، وتلقاه حين ولد بأبوةٍ تعسة، ودشّنه بذلك الاسم الممزق الغريب بلا قصد، لأن كرو شاويش نفسه لم يكن يملك أي فلسفة خاصة أو قصد يمكن أن يقصد به هدفاً. انتظر حتى غسلته الداية التي أجرت ولادته ونظّفته، ودلته على الطريق إلى ثدي أمه، وتأكّد من صفاته الذكورية كلها ثم صرخ:

- مرحبا يا غشيم.

كانت أمه التي أسمته القاصد جبارة منذ كان نطفةً في الرحم، لا يعرف نوعها ومستقبلها بعد، تيمّناً بجدٍّ ورع من أجدادها، وبثّت الاسم لجاراتها وجارات جاراتها وكل معارفها في جلسات الضحى الأصيلة ومساءات ثرثرة الحريم التي تعدُّ جزءاً هاماً من وسائل الترفيه

في البلدة. كانت قد أحرجت بشدة، أحرجت حتى تحول أربعون نفاسها إلى مزيج من الدم والرضاعة والبكاء المستمر. كانت تشاهد القاصد جبارة الذي لم تعاصره أو تره من قبل يتجسد في أحلامها الليلية متجهّماً بلا لحية ولا مسبحة كما كان ينبغي، يسألها عن النذر الذي نذرته إن ولدت صبياً، ثم يمضي متجهماً أكثر، فتصحو مشتتةً، ممتلئةً بالهموم، تحتال على زوجها ليغير الاسم، لكنه لا يعطيها أيَّ أذن صاغية، لكنّ متخصصين في الأسماء والعلاقات الزوجية ومضاعفاتها، وباحثين في التراث المدفون للبلدة وغيرها من البلاد، ومعمرين، زارتهم وزاروها، أسكتوها في النهاية، وأجهضوا أحلامها بجدارة حين استخرجوا لها من تراب التراث وليّاً صالحاً عاش مئة عام أنفقها في الخير والمحبة، ومات في مكة المكرمة وفمه لاصق بالحجر الأسود. كان اسمه الشيخ الغشيم، حدّدوا لها موقعه في إحدى قرى الوسط، وكرامات مزاره الرمزي الذي أقامته له بلدته، لاستحالة نقل رفاته من مكة، ومئات المعضلات التي حطمها بالصلاح حين كان حيا، وحتى بعد أن مات. وفي تجلٍّ كبير نبع من أصالتهم وحرصهم على الروابط الأسرية زوّدوها بغبار من ذلك المزار الرمزي، جلبه البعض من هناك. تخلصت من القاصد جبارة، بتمزيق أحلامها عنه، وفرحت بالغشيم الطفل إلى حدّ الهوس. كانت تدلكه بزيوت الكافور والسمسم، وتعطّره بالكولونيا، تطعمه من لبن البهائم النظيف من الغش والزبادي المصنوع محلياً في البيوت وخلاصات كبد الحوت المغشوشة في الغالب، وعسل البركة الغالي والمنعدم، وتحصل عليه بمشقة. تقلّد تهتهته إذا تهته، وتحبو بجوار حبوه المعوجّ إذا حبا معوجّاً.

حين جنّ الغشيم بعد ذلك وهو صبي، وربط إلى أحد الأسرة في البيت، لم تحزن أمه كما كان متوقعاً من كل من يعرفها، لم تسعَ إلى روث البهائم تستحمّ به، ولا نتفت شعرها أو أراقت دموعها، سمّته الشيخ المربوط، بكلّ سهولة وتلقائية، وبتحريض غريب من فرحتها بذلك الاختراع الذي اخترعته حوّلت سريره السجن إلى مزار أبله تغشاه المغفّلات من نساء البلدة والبلاد المجاورة طلباً لسعة الرزق والحمل المؤكد للائي لم يحملن من قبل واستئناس أزواج فارين أو مستهترين. وتحوّل كرو شاويش، مبيض الألمونيوم والنحاس، من جراء تلك الترتيبات، إلى حاصد فذّ للصدقات، ظلّ يحصدها أكثر من سبع سنوات، غير عابئ بمرض الفصام لدى الصغير، الذي ظل يكبر ويتسع كل يوم، وينبت باتساعه في كل سانحة خللٌ جديد ما كان موجوداً من قبل.

في أحد الأيام ظهر اسم الغشيم كرو عن طريق الخطأ غير المقصود في كشوفات الأمن الوطني للبلاد، بوصفه ناشطاً سياسياً خطراً ومتآمراً على أمن الوطن لا بدّ من اقتناصه. وزّعوا الاسم على سلطات الميناء والمطارات، وصالات السينما ليعرض في فترة الاستراحات، ومنافذ الحدود البرية التي تتاخم دول الجوار، غربلوا اللواري السفرية القادمة من القرى والذاهبة إليها، وحافلات النقل العام والعربات المملوكة والمستأجرة، والخارجة من الميناء بإفراج مؤقت؛ زرعوا في المدن والأرياف عشرات العيون والأذان، والأنوف المتمكنة من الشم، وأنشأوا جائزة خاصة قيمتها سبعون جنيهاً لمن يدلي بمعلومات أو يساهم أو يزيح الغموض عن تلك الشخصية الغامضة. كانت الأحزاب

التي مسّها الضر من جراء تلك الغربلة، وسقط بعض أفرادها في قبضة السلطة، قد تحولت هي أيضاً إلى عيون مفتوحة حتى القاع، تبحث عن ذلك المناضل العتيد الذي لا يعرفه أحد. وحين عثروا عليه أخيراً في البلدة كشيخ مربوط، حوّلته عائلته بلا وعي منه إلى متخصص في طب القرى، فاجأهم لسانه الذي كان لسان طفل ما يزال، وسلسه البولي ما يزال، كذّبت مزاعمهم قيوده المصنوعة من حبال حقيقية وجنازير من الحديد، وأذناه اللتان لم تسمعا حتى بعراك صبية الجيران، وعيناه العمشاوتان اللتان لم تريا شمساً منذ أكثر من سبع سنوات. احتجّت أمه في صمت، واحتجّ أبوه في صمت أيضاً، وأوشك زبائنه الدائمون على تكوين وقفة احتجاج، لكنهم لم يفعلوا. أخذوه إلى المجهول البعيد، داخل عربة مغلقة بإحكام ومظللة الزجاج، كأي ناشط حقيقي، مهاناً، ودائخاً من وجع في الأذن وشرخ في المستقيم وامتلاءٍ في المثانة. وعندما أعادوه إلى البلدة بعد سنواتٍ من ذلك، بعد أن اكتشف الخطأ وكان لا بد من محاولة تصحيحه، كان الغشيم كرو، الشيخ المربوط السابق وطبيب القرى بلا طب، أعظم مجنون أنجبته الأخطاء الأمنية على الإطلاق. كان ساخناً كمظاهرة وبارداً كثلج ومتمكّناً كشرك. كان حافظاً لأشعار لوركا كلها وحكايات مكسيم جوركي وتشيخوف وكافكا كلها، وأغنيات بوب مارلي التحررية، من أول أغنية إلى آخر أغنية، ونكات الطليعيين التي تتمخط على السلطة بلا حياء، وهاضماً لتراسيم الحدود وحقوق الإنسان و كتاب القذافي الأخضر و نظريات الغش السياسي من الماركسية إلى الرأسمالية، إلى تحالف قوى الشعب العاملة. وكانت خطبه التي

استشرت في البلدة بلا هوادة مزدحمة بتفاصيل مزعجة وعبارات مثل: "الرصاص لن يفنينا" و"داون... داون يو إس إيه" و"مرحباً بالنشامى والأشاوس" وever ready حجر حياته أطول". وبدا جنونه في تلك الأيام وسيماً وناضجاً بدرجة كبيرة، لدرجة أنّ مثقفين ريفيين متميزين اصطفوه، جعلوه مرجعاً هاماً لاستشارته في شؤون شتى، وأن مراهقات من طراز حلو ونادر وخفيف الدم أضفنه، بأريحية وطيب خاطر، إلى غزل النهار وأحلام الليل المدلوقة في الوسائد. كان أبوه قد مات "مديوناً للكلب وماشي الدرب"، وأمه، التي حوّلت قيوده إلى بركة كاذبة فيما مضى، قد التحقت بجمعية غريبة اسمها "جمعية مجاهدة النفس" أنشأتها معلمة متفلسفة، وكانت الأولى من نوعها في الريف، حشرت فيها عدداً من النساء العائدات من الخواء والهم وبطش الحياة الزوجية، شغلتهن بجهاد النفس حتى نسين أنهن كن أخوات وأمهات وزوجات، ولدرجة أن أم الغشيم لم تسعَ إلى رؤيته مجدداً أبداً.

كانت حورية مصلح قد رأت الغشيم لأول مرة وهو طفل مربوط، زارته في حمى الزيارات المباركة التي كان لا بد منها أيام سجنها عند الإريتري قبر قبرسلاس هيلا. قالت: الحقني يا مربوط! الحقني يا شيخ! ووضعت عند رأسه سلال التمر وحلوى الحلقوم وما استطاعت توفيره من النقود الفضة والنحاس، وأخذت من جنونه عبارتين غامضتين لم تفهمهما ومضت. وحين عاد من معتقله البعيد بعد سنوات الغياب المعرفية شاهدته وسط حشد من المزارعين الفقراء كان يحدثهم عن مأساة أفريقيا السوداء، تلك القارة الكسيحة إلى الأبد، يحدثهم

عن مأساة العالم الثالث كله، ويعلّمهم صياغة الغضب في وجه من استعبدهم، وكانوا يتلفتون برعب، ويتسربون من صراخه واحداً بعد آخر. لمحها فتوقف درسه في حلقه، رماها بجنية مسيسة، استوحاها من جسدها الرشيق الشحم، حين صرخ:

- مرحباً بغلاء المعيشة... مرحباً بالسوق السوداء.

ثم قهقه بكل ما أوتي من جنون.

انتبهت حورية إلى عروقه المجلجلة في عنقه وآثار مرض الأكزيما على يديه وساقيه العاريتين حتى الركبتين؛ انتبهت إلى عينيه الممتلئتين بنوازع العلة والذهول، وقميص سجنه الدمور الذي يحمل رقماً فظاً؛ انتبهت إلى حسنات ربما تكمن في عيوبه الجلية وسعاله الذي كان كسعال المصابين بسلّ الرئة، وأيقنت، بيقين المتمكنات من اليقين، أنها مُنحت فرصة العمر أخيراً لامتلاك خادم يتيم معتوه، جبار، وطويل النظر إلى أبعد مستوى. وقفت وسط حشد المزارعين الفقراء فقيرة مثلهم، وسعت أذنيها تستمع إلى مواصفات البؤس في أفريقيا، كما كان يوصف، ومأساة العالم الثالث غير المتحضر، كما كانت توصف، وتنفست بأنفاس حارة كان يتنفس بها الآخرون. وحين فرغ الغشيم من خطبته صفقت بحماس، رققت صوتها إلى أبعد حد، نادته: يا غشيم.

جاءها على الفور مثل ومضةٍ من لهب حي، كان يقهقه ويبكي في نفس الوقت، تتساقط نظراته على الأرض، وترتفع إلى السماء، وتستقيم على خط الأفق، لتمتص غبار الشوارع. كان جائعاً بحق ويابس الفم بشدة، تقرقر الحموضة في ثلثي معدته وتسعل مصارين

الجوع في بطنه بذلك السعال الشحاذ. أخذته إلى بيتها، أجلسته على حصير أخضر من سعف الدوم كان ممدداً على الأرض، أطعمته من فطائر اللحم والبيض المهروس بالصلصة وشرائح البطاطا المقلية في زيت عباد الشمس، وأعانت عصارته الهاضمة، التي لم تصادف شبعاً مثل هذا منذ زمن بعيد، بشاي أسود.

كان الغشيم يأكل مثل جرذ، كانت عيناه صغيرتين ومضطربتين ومتجاوزتين للحد المعقول من التماسك، ترعيان في بيت الحضرمية بلا هدف، وكان جسده الذي تهتّك من ضغط الحبال وضراوة التعذيب في السجن يرتعش بين حين وآخر. وحين فرغ من آخر قطرة مرة من الشاي الأسود تجشّأ تجشوءاً كاملاً، كلّمها بلسانه المريض لأول مرة منذ تبعها في الطريق، ولقّبها بلقب هائل تحول بمرور الأيام إلى لقبها الدائم في لسانه بعد كل طعام مشبع. قال:

- شكراً يا عمتي شجرة الدر.

كانت قد ابتسمت بالفعل محتفيةً باللقب، بالرغم من أنها لم تفهمه ولا تعرف مغزاه، وسعيدة أنها أشبعت جائعاً مضطرباً من دون خوف. ضحكت بالفعل حين نهض الغشيم ينقر على بطنه من الشبع. شدّ الحصير الأخضر، لعب به، وحوّله إلى شكل مركب، ثم دوّره وحوله إلى شكل أسطوانة، ثم حمل أطباق العشاء الفارغة حملاً قاسياً، خشناً، ذهب بها إلى حوش البيت، غسلها بالليف والصابون ولمّعها بسائل "فيري" وهو يردد: "قاهر الدهون العصري"، ومضى بها أخيراً إلى حبل للغسيل في فناء البيت، علّقها من أطرافها النحاسية وعاد متأرجحاً إلى الداخل.

تلك الليلة البعيدة، كان القمر محتجباً والنجوم شحيحة الضوء، نام الغشيم كرو في بيت حورية، نام واحدة من نوماته العريضة النادرة، الممتلئة بنعاس غريب، لم يشخر بشخير مرضى الهوس واحتقان اللوزتين أبداً، و لم يحلم بأي حلم ولا كابوس، و لم ينهض في الصباح بصداع في نصف وجهه، أو تلف عصبي مبالغ فيه، أو سراويل مبلولة حتى الأطراف من جراء مطاردة عسكريين وسجانين متخيلين، كما كان يحدث منذ قدومه إلى البلدة وتشرّده في الشوارع، ينام في أيّ جحر يصادفه.

منذ الصباح الباكر تحمّس لشاي بالحليب كامل الدسم، أعدّه بسرعة، للفطور، جهّزه من عدة خامات وجدها. رتّب البيت، وحلب العنزة الوحيدة التي عثر عليها مربوطة في الفناء، ضبط المذياع العتيق الموضوع على رفّ في الصالة على برنامج الصباح في الإذاعة الوطنية، ورقص على أنغام أغنية اسمها شجن كانت تُبثّ في تلك اللحظة، تفقّد الشقوق في الحوائط التي قد تكون مساكن للنمل، ودار حول البيت عشرين دورة قدّر فيها سمك حيطانه وعدد الأمتار التي ترتفع بها عن الأرض، وحين لم يعثر على خلل إضافي يتولى إصلاحه، أو إتلافه أكثر، عاد إلى أطباق الطعام النظيفة وابتدأ في غسلها من جديد.

كانت حورية قد نامت شبه مستيقظة في غرفتها التي أغلقتها من الداخل بحرص، وتأكدت من أنها مغلقة جيداً عدة مرات قبل أن ترقد. كان جسدها مدفوناً في النعاس حتى القاع، وعيناها اللتان أرّقهما خوف التجربة التي تورطت في خوضها مفتوحتين على اتساعهما. كانت أذناها متورطتين أيضاً في ذلك النعاس الهلع، تتنصتان على نوم

الغشيم وتعدّان أنفاساً تسمعانها، ربما لا تكون أنفاس الغشيم على الإطلاق، وإنما أنفاساً متخيلة. وحين تأكد لها أنه استيقظ، ونشط في الاستيقاظ من ضجة كانت تسمعها بوضوح، نهضت، فتحت غرفتها في حذر، اقتربت منه وهو ممدّد على الحصير الأخضر، يتجاوب مع أغنيات الصباح ويهشّ بيديه ذباب الريف العنيد. جلست قريباً منه، شربت من شايه المرّ وأكلت من طعامه المخلوط بكثيرٍ من الهوس، ردّدت معه أغنيات الصباح كلها، وتابعت حاجبيه وهما يتقلبان، يرتفعان وينخفضان، يتقوسان، ويستديران.

- تخدمني يا غشيم ؟

سألته غير واثقة من تجاوبه، وفي قلبها يلعب خفقان غريب، ربما هو خفقان الخوف من خادم محتمل سيقتلها ذات يوم، وربما خفقان الفرح من أنها ستملك ذلك الخادم وتروّضه بما عُرف عنها من براعة في ترويض الذكور. لكنّ الذكر هذه المرة ليس للحب ولا للزواج، والذكر هذه المرة معتوه موثق بماضٍ يعرفه كل من عاش مرحلة الشيخ المربوط، ويعيش الآن مرحلة السياسي الذي يخترع وسائل الرعب كلها بأمانة وصدق.

نهض الغشيم من اتكاءته، استولى على قطعة كعك قديمة وجدها على الأرض، ولم ينتبه إليها في حمّى ترتيب المكان، ألقى بها في حلقه، أغلق المذياع بعنف ومذيعة الصباح تتراقص بصوتها، والتفت ناحية الحضرمية، محدثاً في جسدها قشعريرة. نطق وكان صوته عادياً، أشبه بأصوات ملايين الخدم في لحظات اختبارهم لشغل وظيفة، سأل:

- هل أعجبك عملي؟

ردّت بسرعة وبلا أي تفكير: نعم، أكثر من رائع.

- إذن سأخدمك.

ردّ وأنفاسه شبه ساكنة، ومصارينه تقرقر من شبع هذه المرة، لا من جوع.

-١٠-

الآن ما عاد لهندوب عيسى الأتمني مذاقه القديم الممتع، ولا عاد عطفه الذي بثّته لجنة حماية القيم في شرق أفريقيا، في تلك الصورة التي كوت حورية وأوقدتها، عطفاً أخّاذاً. عاشا معاً في بئر العسل الذي حفرته برشوة العجوز العرّافة، وسقط فيه بإصرار، غارقين سجينين، زادهما الشعر المنمق الذي كان ينشده باستمرار، وفحولة الصحراويين المعروفة، التي لم تنطفئ حتى في أيام تقلّب المزاج العابر، واختلفا في النهاية على تافهة بسيطة من توافه الدنيا، يمكن أن تحدث كل يوم، حين طلب منها أن تعدّ له قدحاً كبيراً من عصيدة التمر فوراً، وكانت مشغولة بحنّائها، ترسمها على يديها وقدميها، من أجل زينتها، فاهتاج بعنف، أطفأ قنديله وخرج من البلدة، كأنه استيقظ من رقاد أو غيبوبة. أراد أن يستعيد ثلاثين شهراً أنفقها في رعشة ريفٍ لا يخصّه ولا يشبه بيئته في شيء، فاستعادها بالفعل، كان شعره المصبوغ، المغطى بالودق، أشدّ حلكةً من أي مأساة، ساقاه اللتان اهتاج بهما ركضتا في بيتها وما جاوره كساقي ناقة سباق، وقفزته إلى عربة النقل التي ساندت رحلته إلى أهله، وحملته مع عدد من المسافرين، كأنها قفزة مراهق.

كلّموها بعد عامين مرّين كانت قد بكت فيهما بأكثر ممّا تستطيع من البكاء، أعدّت آلافاً من قدور عصائد التمر وأراقتها، وخاصمت زينة الحناء، وسافرت فيهما إلى بلاد الأتمن سراً وجهراً، مرات عدة، و لم تعثر على شيء. كانت العرّافة العجوز قد رحلت، ولا أحد آخر صادفته يعرف. كلّموها بكل شيء كانوا يعرفونه، و لم يجرؤ أحد على إخبارها به من قبل خوفاً من تقلّباتها. قالوا: هندوب عيسى الأتمني لم يعد إلى دياره أبداً، شاركه ثلاثون مسافر آخرون في رحلة السفر، وفي حفل استفزازي أقامته إحدى قبائل الجن على شرف ضيف مليح وفارس لا يعبر مثله بالصحراء إلا نادراً، قالوا: انبثق في الصحراء ضوءٌ ساطع بثته آلاف الفوانيس، لعلعت موسيقى راقصة، ورقصت خلاسيات بعيون كالنبال وأجساد كحلوى الملبن، رفع الأتمني سيفه ورقص، عرّى جسده وانكوى بحديد محمّى، إثباتاً للرجولة، وشرب من قدرٍ ذهبيٍّ فاخر ما ردّد أنه خمر لم يذق مثله أبداً. بعد ذلك تعشى الجميع وناموا على أبسطة من الحرير، وفي الصباح، حين استيقظوا، كان البر قاحلاً كما هو معروف دائماً، السفر تعساً كما هو معروف، والأتمني في ذمّة لا أحد. نادوه وبحثوا عنه، وتتبعوا آثاراً ظنّوها آثاره، و لم يكن موجوداً قط.

جلست حورية في بيتها كئيبة، تستحضره قطعةً قطعة، ولهاثاً لهاثاً، تحشره في المساءات المتأزّمة بسبب الملل والجفاف، والصباحات التي بدت لها تافهة وبلا معنى، تقلّد صوته العميق، وهي تهمس في أذني قلبها وتتعذب. وعندما تلمح بعض خناجره، التي تركها، ما زالت منتصبة، تطعن في حوائط بيتها، تخرّ إلى الأرض مغشية.

كانت علاقتها بأهلها الحضارم صفراً في تلك الأيام، علاقتها بأهل أمها الغجر أكثر من صفر، ولدرجة أنها لم تستشر أحداً ولا بكت في حضن أحد، وتفّهت من سحر الغجر، الذي عرضوا تسخيره من أجلها، حينما وصفته بألاعيب الصغار.

وحين جاء الرحّالة المقعد حاكم عذابو إلى البلدة مرة أخرى، في رحلة عادية من رحلاته التي لا تنقطع في كل المواسم، وذهب ليتغدى عند العمدة صابر علي، حاصرته القبائل في ما يشبه المظاهرة، كانوا يسألونه بشغف عن شعائر الحج والعمرة، عن وظيفة أمناء المخازن المنتشرة في البلدة، ما جدواها؟ عن أجود فصائل التمر وفي أي تربة تزرع؛ عن مضاعفات الاستعمار الذي هيمن ذات يوم على الوطن؛ عن الجياد العربية الأصيلة التي سمعوا بها كثيراً ولا يعرفون عنها شيئاً؛ عن الإسلام السياسي الذي سمعوا عنه، وهل يختلف عن الإسلام الذي يعرفونه في شيء؛ ويستفسرون بشغف أكثر عن أحدث الطرق المكتشفة لاختصار مشقّة المتعة وإنجاب صبية يملأون البيوت. كان الرحّالة يجيبهم بتأنٍّ، يغرسهم في خبرة السفر ويقتلعهم، ويرصفهم طوابير من البله حول لسانه المراوغ الحكّاء.

جاءته حورية مصلح بعد أن ذهب الجميع، وكانت لقمته في المسافة بين الحلق والبلعوم، كانت سوداء الثياب، مبعثرة الشعر والزينة، فيها رائحة الهجر التي لم تفارقها لعامين، ورائحة عذاب محموم كان حُماها المفضلة. كان في حلقها متر من حديث، اختصرته في سنتمتر واحد فقط، سألت:

- هل تذكر هندوب عيسى الأتمني يا رحالة؟

تأمّلها الرحالة المقعد بعينين ترحلتا بإتقان في كل شبرٍ من عذابها، ثم أجابها بذاكرة ربما كانت في الأصل تالفة، أو ربما أتلفتها الرغبة في الإتلاف، قال: لا... لا... أبداً.

واجتهد حتى أكملت لقمته الطريق.

وبعد ذلك بعام ونصف، وبعد أن غدا قلبها نظيفاً من وحل هندوب، وارتخى بمزاجٍ جديد لامتصاص أوحال أخرى، ربما تكون متوفرة أمامها، أو ستسعى لاختراعها بنفسها، وصلتها رسالة من العاصمة، استلمتها من مكتب البريد المتواضع في البلدة، كانت من الرحالة الكبير حاكم عذابو، كتبها بالقلم الرصاص على ورقة منتزعة من دفتر من دفاتر الطلاب، وأودعها البريد الذاهب إلى البلدة، من دون حتى أن يلصق عليها طابعاً بريدياً. كانت رسالة مختصرة للغاية، وموجّهة إلى السيدة حورية مصلح، السوداء الثياب والمبعثرة الزينة والشعر، التي اقتحمته وهو يتغدى في بيت العمدة صابر علي:

"نعم سيدتي الكئيبة، الآن تذكرت هندوب عيسى الأتمني بوضوح، إنه بائع الترمس والآيس كريم عند بوابة مستشفى الذرة التعليمي. لك تحياتي."

-١١-

استلم الغشيم مواقعه في تقلّبات الحضرمية المستمرة بسرعة فائقة، واستبدّ في خدمتها استبداداً لم تكن تتوقعه ولم تخطط له على الإطلاق، عرّفها على أصناف من الخدمة الشاقة اخترعتها الجنيات اللائي يسكنَّ دماغه المهووس، جعلت أظافر استرخائها تتقلم، وودّت لو أنها لم توظفه وتركته هكذا متشرداً صعلوكاً، قابلاً للموت في أي لحظة.

كان ينقض شعرها الغجري، ويضفره من جديد، يرطب شفتيها بدهان الفازلين المصنوع أصلاً لترطيب الشعر، يعجن لها الحنّاء، يجهّز ودق الشعر، والصبغة، ودهن الجسد، ويشعل لها الطلح مدفأةً عطرة في أمسيات اليباس العاطفي، سلّمها أكثر من مئة قملة شبعانة استخلصها من ثنايا شعرها المودّق في عامين، وأربعمائة صرصور مسكين، زغردت في البيت في أيام التكاثر العنيف، وتسعة فئران من فصيلة جرذان المحاصيل الضخمة، وجدها تنبش ملاءاتها وأغطية وساداتها القديمة بحثاً عن تسلية، وعدداً مهولاً من ثعالب البرّ وذئابه كانت تتباهى بافتراس الغنم والدجاج منذ سنين، من دون أن يمزق

تباهيها أحد. صاغ لها أسرّة من الخشب والحبال وعيدان الذرة المتينة، ومقاعد من الحصى والطين الصلد، ومساند من ريش الدجاج وقطن الصدقات القصير التيلة، الذي كان يوزّعه محسنون من العاصمة والمدن القريبة يمرّون بالريف من حين لآخر. أجبرها بعنف على زيارة مرضى لم تكن تزورهم من قبل، واتباع جنازات لموتى لم يكن يعنيها أمرهم، وعدم التصويت في صناديق الاقتراع الرئاسية التي نصبت ذات يوم للتصويت بلا أو نعم، واتخاذ صدقة جارية لم تكن لتتخذها، تمثلت في عدة أزيار من الفخار الأملس، نحتها بنفسه وثبتها على مدخل البيت، وكان يملأها بالماء حتى وهي ممتلئة وينزّ منها الماء من الجانبين. وعندما داهمتها أعراض مرض "الزار الحبشي"، وبدأت ترطن بلغة غير مفهومة، وترتعش، وتحاول شد حاجبيها، وتحبو إلى الجمر المتّقد في الكوانين، تلحس طعمه بلسانها، وتتوجع، انفصل عنها ليومين فقط، سافر إلى الميناء القريب، وجاء بطاهر عائشة، اختصاصي الزار المتغطرس الذي سمع عنه، واهتدى إلى مقره بعد نبش وأسئلة عنيفة، انتزعه من إحدى حفلاته الضاجة وسط النساء، وأجبره على إحياء ليلة زار طائشة، لأول مرة في البلدة، أعادت للحضرمية بعض الثبات المفقود، ومهّدت للمجد الخدمي المستبدّ أن يستبد أكثر.

كان الغشيم كرو يعمل كثور، ويأكل كجرذٍ مسعور، ينام واقفاً وماشياً في الطرق، ومتّكئاً على ساق حمار، وينحشر بخدماته إلى أبعد مسافة، لدرجة أنه اكتشف ذات يوم ثقبين في أذنيها كانا يستخدمان لتعليق أقراط الزينة أيام شهر العسل مع الأتمني وحتى اختفائه، وأهملتهما بعد ذلك في أيام الحزن، فسدّهما بالحصى المجروش

والأسمنت وهي نائمة. أيضاً سعى كثيراً إلى وحمة خلقية كانت ترقد مسالمة في كتفها اليمنى، وحاول إزالتها بالماء والصابون غير ملتفتٍ إلى صراخها ونهراتها التي لم تكن تجدي شيئاً أو تخفف من توتره. وفي رغبة صادقة ومحمومة من خدمته المستبدة لإنعاشها حرّض عدداً من صعاليك الريف وشعراء الأغنيات الهابطة لمغازلتها، وتحمّل إهاناتها، كلما لمحوها، حتى تظل نظيفة من خدوش العمر. كان الغشيم غير قابل للطرد أبداً، وغير قابل لأي تغيير اجتماعي أو تحليل منطقي، ولن يدحره نواحها أو شرر عينيها الذي خبا وانطفأ أمام استبداد خدمته.

كانت أميّة النساء في الريف في ذلك الوقت واحداً من عناصر الإغراء المهمة، تفاخر بها النساء كثيراً، تستخدمنها كسلاح مؤثر في الحرب ضد نساء المدن اللائي يعتبرنهنّ لسن نساءَ على الإطلاق. كانت المدارس قليلة، والمتعلمات من الريف يمشين في البلدة كأنهن عرايا، كان الرجال في أغلبهم مزارعين وعمالاً بسطاء، وتجاراً بتعليم كسيح وخطوط مكسّرة يسجّلون بها على دفاتر البيع المؤجل. كان هؤلاء ينأون بزيجاتهم عن كل امرأة متعلمة يمكن أن تشكل نداً في البيت، ويحتفون بالساذجات ولامعات الجلد ومكسّرات المشية، وكجزءٍ من عدّة الشبق العظيمة التي تملكها، وتسعى لتنميتها دائماً، ظلت حورية مصلح أميّة حتى وظفت الغشيم، وصُدمت باستبداد خدمته، ظلّ عامين كاملين يغربلها بعنف، ويحوّر لسانها وأصابعها وجذور السمع في أذنيها حتى وصل بها إلى كفاءة الصف الثاني الابتدائي، وأمكنها بعد ذلك أن تلهو بعدد من جمله المعرفية من دون رعب أو دهشة أو استغراب.

- يا غشيم كرو.

وجدته أخيراً. كان قد عاد من المزرعة باكراً، لكنه لم يذهب إلى البيت، كان في إحدى النواصي المهملة في البلدة، منحشراً في خدمة إضافية، يدرّب عدداً من الصبية الريفيين على مبادئ العشق، نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء. كان الصبية يتدرّبون بملل، ولكن بلاء استياء، فلم تكن في الريف رفاهية تجعل من الأنثى حلماً، يطارد بمبادئ العشق تلك، كانت البيوت مفتوحة والشوارع متاحة، ومغازلة الأنثى سهلة جداً، لدرجة الملل.

جرّته من استبداد خدمته، وكان يحمل مزاجاً آخر سيسعى به إلى أحد المتشددين الدينيين، وكان حلاّقاً اسمه سعد، ترك مهنته فجأةً وتشدّد، وابتدأ ينافس الغشيم في إلقاء الخطب. كان الغشيم يخطّط لانتزاع لسانه من حلقه في ذلك اليوم. أعادته حورية بعد عدة رجاءات ناعمة إلى البيت، يطوّح بحبال صوته يميناً ويساراً، ويخرّب مواءات نشوانة لقطٍّ ريفي كان يطارد قطة في ذلك الوقت. وفي صالة البيت الضيقة، سعت لإجلاسه، أوقدت واحدة من سجائرها، طالعته من بين سحب الدخان، فبدا لها مسكيناً جداً برغم عنفه، لكنها الآن بحاجة إلى خدمة إضافية، جديدة تماماً على استبداده، وتمنّت أن يفهمها سريعاً، لأن مزاجها محموم بشدة. قالت:

- هل أنت مستعد لخدمتي يا غشيم؟

لمسته في الوتر المستبدّ لخدمته، وبدا لها مستغرباً، بالرغم من أنها لا تعرف له عواطف محددة، ولا أحست طوال بقائه معها أنّ في جنبه الأيسر قلباً مفتوناً، أو في عقله المهووس رغبات مكبوتة، لم يقل عبارة

هيام واحدة من قبل، حتى لو كانت في حقّ قطة أو جرذ، و لم يلتفت إلى بنات البلدة المراهقات اللائي انبهرن بثقافته، إلا ليطردهن من أمامه، وحين جاء بامرأة شابة مطلقة إلى البيت مرة، وهو يمسكها من يدها، فرحت بشدّة، وتوقعت أن تكون عواطفه قد حلّت قيدها أخيراً واشتعلت، لتكتشف أنه جاء بها فقط ليخبرها وهو يهمس ويتلفت: إنّ في ثوبها من الخلف مزعاً كبيراً.

صرخ: دائماً أخدمك يا عمتي، دائماً أخدمك.

وهجم على تضعضعها يحاول قراءته.

-١٢-

الخيانة التي حدثت في بيت علوب الحضرمي، تاجر الزجاجات الفارغة، كانت خيانة كلاسيكية؛ واحدة من الخيانات الممتعة التي درج أربعينيون وخمسينيون، وحتى ستينيون، على اقترافها من حين لآخر، وغرس مضاعفاتها في دردشة البيوت وأقاويل المجالس في الطرقات لأوقات طويلة. دخل تاجر الزجاجات الفارغة إلى بيته في أحد الأيام، دخول عاصفة، قال من دون أن ينظر إلى حنّاء زوجته العجوز التي عاش معها زمناً، أو خلاخيل أذنيها، أو تلك التكّة الجديدة التي صاغتها من كتّان أصيل ونذرتها لأناقة زياراته في يوم العيد الذي سيهلّ قريباً. صاح:

- أنت طالق.

وانضبط بعد ذلك في إيقاع حورية الحضرمية.

كانت ليلة عرسه الجديد من حورية واحدة من الليالي العارية غير المألوفة كثيراً في البلدة، والتي سميت بعد ذلك "ليلة النحس"، وقيل إنها انتقام رباني لزوجة علوب الوفية. سبتها رياح الهبباي الموسمية التي جاءت في غير موعدها، وبللها مطر غزير، عظيم القطرات، جاء

في غير موعده أيضاً. مات زكريا الهوساوي، المغني الوحيد ذو الشأن في البلدة آنذاك، وهو يضبط أوتار عوده على أغنية شهر العسل التي أعدها خصيصاً للعروسين، وأجهضت عازفة الطبل الوحيدة أيضاً حملها القوي، من دون أن ترفع ثقلاً. قيل لعبد الغني الذي كان مادحاً من أبناء الشمال المستوطنين في البلدة يحيي أعراس الفقراء في العادة لقاء قروش قليلة: "حوّلها إلى ليلة إنشاد يرحمك الله". فانتقى قصائده بعناية، وتعطّر بالمسك، وجاء لينشد، فانحبس صوته في حلقٍ تمرّ من ثقبه الشاحنات لو أُدخلت. حاول المحتفون الذين حضروا العرس تبييض عمائمهم وجلابيبهم بالنشا والكلور فظلت بلا لمعة، والمزغردات حاولن تجريد زغاريدهن من النحنحة والحشرجة وأوساخ الصوت فأبت، وتصارعت عشرات الحمير على ذبابة بقر واحدة، كانت تنقر عيونها، وأفلتت. حتى الثيران التي ذُبحت، وشكّلت سلوى فقيرة، كانت عجوزاً بالدرجة التي كسّرت لحومها أسنان كل من حاول أن يأكل. التفّ الكثيرون حول علوب الحضرمي، سبّوه بغضب، قالوا: "عريس شؤم في يوم شؤم"، فلم يتراجع، وانغرس بثقله كله، عريساً لحورية مصلح.

علوب الحضرمي لم يضف إلى أساسها القديم شيئاً يذكر، كان مشروعها الشبقي الآن في قمة اكتماله، شرساً، وشرهاً، ومحصّناً ضد محاولات الخدش وجدّة التأسيس. كان الحضرمي كبيراً في السن، وضخم البنيان، ومحتالاً على العاطفة يستبسل في سلبها بوعي وتركيز. لم تكن لسراويله أي نكهة استفزازية، لم تكن لعينيه أي إيماءة يمكن أن تصنَّف إيماءة طاعمة، ولا لضحكته المبتورة في أغلب الأحيان أي

مبرر لتكتمل. كانت زجاجاته الفارغة تُباع في السوق بعادة البيع، معدته تتخم بعادة الشره، وعيناه تبدوان في أحيان كثيرة كأنهما عينا ذئب، وكان أحفاده من ابنتيه المتزوجتين، الذين يجيئون من حين لآخر لنتف لحيته أو تلويث قمصانه أو مدّه بوقار الآثمين، يشتتون البيت كله، يتركون في كلّ مخدع يلجونه خيانةً ما، وفي كل ظل يجلسون تحته رفاتَ شمس، ويرسلون إلى رأسها صداع الشقيقة البربري، حتى توشك أن تنفجر. كان يردد دائماً: "يا حبي" ويرسل لعاباً أحمر، فتلتمّ في غريزتها، وهي مرتعبة. يردّد: "يا قلبي" ويرسل لعاباً أحمر، فتفرّ من يديه الغليظتين إلى جسده المارد، وحين أراد أن يشيخ بالفعل، ويرتد إلى قديمه جدّاً أصيلاً بلا مأساة، أحضر شاهدين ومأذوناً، حرّروها من قيده، وكان يواجهها في تلك اللحظة برئةٍ لاهثة وشعرٍ أبيضَ وفداحةٍ في المشي أسندته إلى عكازتين، ثم مضى.

السيرة الذاتية للمدرس الغريب، التي حُكيت كاملةً من لسانها المضعضع، الآن رابضة في أمعاء الغشيم كرو. مرّت بالحلق مسرعةً، وانهزمت أمام الهضم بإنزيم الخدمة المستبدّ، لتسري مع الدم: "عبد النبي سمارة، يلقب بعبده كورة، من ضواحي دنقلا في شمال البلاد، متزوج وعنده أولاد، مدرّس ابتدائي، يشجّع اللعبة الحلوة"، ها... ها. وحين كحّ الغشيم، وتمخّط، وضحك من طرف أنفه، أيقنت، بما لا يدع مجالاً للشك، أن ثمّة قمصاناً وسراويلَ جديدة ستُعلَّق على حبل غسيلها، ثمّة شخيراً جديداً مختلفاً سيندلق على وسادة نومها، ولقمةً جديدة ستفرّ من أطباق طعامها إلى حلق الغريب. انتعشت قليلاً، وكان انتعاشاً كافياً جداً في ذلك اليوم ستسعى للحفاظ عليه بقدر

ما تستطيع. أعدّت للغشيم وجبته التي كان يمكنه إعدادها بنفسه، لكنه يفضّلها من يديها، ولم تكن بحاجة لإلقاء تعليمات جديدة في شأن اعتبرته قد اكتمل. فقط عليها أن تذهب إلى السوق، تتزوّد بسجائر الكنت التي استهلكتها في يوم ونصف، وربما تشتري ملاءات جديدة وأغطية وسائد جديدة وخفّا بيتياً جديداً لاستخدام قدمين جديدتين.

شاشوق رمز القوة، كما كان يطلق على نفسه بكثيرٍ من القناعة، لم يكن يعرفها حقيقةً. أجبرته السنوات المهدَّمة التي أنفقها في الميناء القريب عاملاً لليوميات على اضطهاد سلالات من العواطف تناسلت في قلبه مراراً من قبل، والترفّع عن ترف النظرات في العيون، مهما اسودّت أو ازرقّت أو كساها الحَوَر. كانت حاويات الوارد من الدول البعيدة، بشبعها الجليل، تملأ أوقاته كلها، وصادرات الصمغ العربي، والفول، والقطن الطويل التيلة التي يحرّك شحناتها برافعة قديمة وصدئة، ويقذفها في بطن سفن الرحيل، تقيّد أحلامه، حتى وهو نائم يحلم، حتى وهو محموم بالملاريا. كان يسكن في حي العرب القبائلي، في أحد أطراف المدينة، يعاقر في وقت فراغه المسائي لعبة "السيجا" المكوّنة من الحصى ومربّعات تُرسم على الأرض. ينغرس أحياناً في بيوت السكر المحلية، ويمكن، في أوقات أخرى، أن يشاهد أفلاماً لبطل الكاوبوي الأمريكي أنتوني استيفن والهندي الوسيم راجي كابور وساحرة السينما الإيطالية صوفيا لورين. لم يكن يعنيه جوّ حيّ العرب المزدحم غالباً، ويبدو في وسط السكان المتداخلين مهدَّداً بانقراض اجتماعي. عاد إلى البلدة ذات يوم، كان بذات توافهه التي سافر بها تقريباً: القميص السمني المصنوع من قماش التيترون، والصديري

الأزرق المفتوح بلا أزرة، وودق الشعر الملطّخ على رأسه بلا إتقان، ومشية الإبل الصحراوية التي زجّت به مراراً في أسئلة المحققين، لأنها مشية غير مألوفة في المدن. ناوشته الحضرمية في سوق البلدة بعد عدة فقرات من عرض للرجولة قدّمه في حضرة قبليين منبهرين، كان يرفع رجلين بالغين بيديه في الهواء، وينزلهما هلعين، يعترض عربة كارو مسرعة ويحوّل اتجاه حمارها بإصبع واحد، ينام على برميل متدحرج دون أن يسقط، ويملأ آخر بالزيت المحروق ويضعه على صدره. قصت ظفراً مربعاً في إصبع رجله الكبير، لتدخله طقوساً وعرة، واندفق بعد ذلك في عشقها. بدا لها نموذجاً فريداً، متميّزاً، نبع من عامة الشعب، يستحيل على مجده أن يكتمل بلا امرأة، وبدت له وجهاً مألوفاً من وجوه وصيفات (تاجوج)، أسطورة قبائلهم الجميلة التي ظلوا يتناقلونها جيلاً بعد جيل. عاشا في ودّ حذر، وتبادلا أرطالاً من توابل القرفة والحبهان وأوقيات الشاي والفول المجروش، وأشرطة من موسيقى مغنّي قبيلة البجة المعروف أحمد رطل كانت تجسّد الحب الريفي في أعنف فوضاه. وحين تزوجا بالفعل بعد ذلك، وانتقلا إلى ضباب العسل محلقين، كافأها بتعليمها قواعد لعبة الجمباز، واستخدام العضلات المختلفة في جسدها استخداماً صحيحاً، لكنه أباد تسعين في المئة من مغريات جسدها في تلك الاستخدامات التي لا تمّت إلى العشق بصلة. حذّرته مراراً من يباس العشق الذي لمحته في خمول عينيها وهي تطالعهما في المرآة، وجعلته يشاهد رغبتها في التقيّؤ كلّما كوّر عضلاته وضحك، فما استمع. طلّقته بعد عشرة أيام فقط من عسلٍ مرٍّ وتافه، وبدا لها، وهو مطلّق وبعيد عن العسل المرّ، جذاباً

وشديد العذوبة، لدرجة أنها فكرت أن تحبه من جديد، وتصطاده مرة أخرى، ووضعته بالفعل على لائحة أزواجها المقبلين، ثم عادت وألغته حين ظهر هندوب عيسى الأتمني أخاذاً في صورة "لجنة حماية القيم في شرق أفريقيا".

كانت لديها مقدرة فذّة على الحب وتدمير الحب، حيّرت الكثيرين، ودفعت بكثيرٍ من النساء اليابسات أن يسألنها، بعد أن تعبت أفكارهن في البحث عن غرائز يدلقنها على أولادهن وأزواجهن وأحبابهن المستعرين:

- كيف تحبين ولا تحبين يا حورية؟

كانت تغتاظ من حسدهنّ الناري، ترميهنّ بألفاظ متّسخة تخرجها من مزبلة اللسان، ثم تقعد يومين كاملين في بخورٍ ملتهب وهي تتمتم بالتعاويذ حتى تعود غرائزها إلى وضعها الطبيعي.

الآن هرّبها الغشيم من سجن السحل التخيّلي، كحّ في وجهها وتمخّط بقوة، واقترب منها بأنفاسه بدرجة أرعبتها، كان مشوهاً، وجائعاً إلى تلك المهمة التي كُلِّف بها، لم يأكل من شرائح البطاطا والفول والباذنجان المخلوط بالصلصة إلا بمقدار ضئيل، و لم يحس بأي رغبة إلى اتكاءة النهار التي يتّكئها في العادة واقفاً على قدميه. طالبها ملحّاً بأطباق أخرى من سيرة المدرّس الغريب، وحدّد تلك الأطباق بدقة متناهية: كانت أطباق السن، والنخوة، وقياس النعلين، وجودة الثوب والعمامة على الرأس، أو القميص والسروال على الجسد، إن كان يرتدي القمصان والسراويل، سأل مهتاجاً: هل يبدو مثل كلب حراسة؟ هل يبدو مثل سجين سابق، أو سجان؟ هل يتمتع بروح

مناضل ثوري في رأيك؟ هل يشبه محرّر العبيد أبرهام لينكولن؟

قالت: لا أعرف.

وكانت صادقة. هي تلك العطسات المتكررة التي سمعتها وتراقصت على إيقاعها؛ اتّكاءة الغريب تلك، التي وتّرتها، ولا شيء آخر على الإطلاق.

أعادت وصفه وسيرته مرة أخرى، ولم تسعَ إلى تخمين أيّ شيء.

اهتاج الغشيم حتى سقط برطمان للعسل من فوق رفٍّ مجاور، تألّمت طاولة صغيرة دحرجها، وفرّ قط شهواني كان يرتكب إثماً في حوش البيت، استعاد في تخبطه سيراً ذاتية لعشراتٍ من الغرباء مرّوا بالبلدة في أزمنة متفاوتة، ولم يشبع، استعاد سيراً أخرى لشاطر تاجر البلدة المرموق، والمحجوب صائغ العرايس، والشيخ قماش المدفون في ذلك الضريح الحجري عند مدخل البلدة، ومناضلي ثورة تحرير إريتريا الذين انبهر بهم ذات يوم، وخفّ انبهاره بعد ذلك، وسائقين سفريين ومزارعين مهمين ووجهاء، ونساء حزينات تدمي سيرتهن الفؤاد، واكتشف في استعادته تلك السير أنّ إحدى سيدات البلدة الراقيات لم تكن في الأصل سوى خادمة عند أقباط في المدينة، وتحولت إلى سيدة؛ وأن مدثر صلاح، الملقب بالغراب، السائق السفري الذي تمجّده البلدة بشدة وتعشقه المراهقات ويطمح المراهقون إلى ذرّة من مجده، لم يكن في الواقع سوى راعٍ للأغنام ركب سكّة السفر مصادفةً. ولولا أنّ صداعاً مباغتاً أمسك برأسه وقلّص من حدّة ذاكرته لكان قد اكتشف شرك التلاعب بالعواطف في بيت بديعة حسّاب، والخلافات الزوجية لأزواج عديدين، وداء الفتاق السري المفتري الذي كان يخبّئه

العمدة صابر علي تحت ثيابه ببراعة. اعتدى على الهيام الجليل لسيدته، والهيام الأجلّ لطائر من طيور اللقلق وتسعة أعشار الصمت المسالم في البيت، وحين خرج كعاصمة، لا تدري إلى أين، ومزوّداً بتعليمات إضافية منها عن مهمته، كان قد وضع إصبعاً في حلقه وبدأ يتقيّأ.

تلك اللحظة، في السوق، كانت ثمّة دربكة فعّالة تستبدّ هي الأخرى، ولأول مرة منذ أن أصبح تاجراً مرموقاً تنازل شاطر عن بيعه وشرائه لصبيّه المترب، وجلس على مقعد من الحبال أمام محله، وبيده ورقة وقلم وفي رأسه دوار. كان يسجّل أسماء اللاعبين المحتملين لفريق النحلة تحت التأسيس، الذين استجابوا للإعلان المعلّق منذ الليل، واصطفوا طابوراً طويلاً أعاق المرور السلس في السوق وأثّر على البيع والشراء في محله شخصياً. أراد أن يلعن حورية في ذهنه، وخاف أن يتبرّأ الذهن من اللعنات ويقذفها للسان. وحين انتصف النهار كانت ورقته تحوي أربعين اسماً قدّر شخصياً أنْ ولا اسماً واحداً فيها يصلح لاعباً للكرة. لكنه سيؤسس الفريق برغم ذلك، حتى لو كان تأسيساً نظرياً، ويسدّ تلك الثغرة الجبارة في سيرة عبد النبي سمارة.

-١٣-

كانت استراحة الحكومة مبنىً ضيقاً في وسط اتساع البلدة، وأنيقاً إلى حدٍّ ما، في وسط بذاءة المعمار الطيني التي تكاد تأكل أبنيتها بالكامل. كان مشيداً بالأسمنت والحصى وأعمدة الحديد، ومدهوناً بجيرٍ أخضر لمّاع، وترقد في أحشائه عدة غرف جُهزت بأسرّة من الحبال وخزانات مقشّرة ووسادات من القطن ومغاسل، ونوافذ صغيرة تطل على نجيلٍ ليّن وعددٍ من أشجار النيم والسيسبان، بلا كماليات، سوى الخضرة وزقزقة العصافير.

كان المبنى قريباً من مجلس البلدة الريفي وبيوت الموظفين المحليين والمدرسة الابتدائية ومركز الشرطة الفقير الذي يحتلّه في الغالب قبليون من المنطقة لا يجيدون حتى أبجديات التحري ومساءلة لص، ولا يبعد كثيراً عن مركز الضجة المتمثل في السوق الكبير والبيوت الطينية التي يسكنها أهل البلدة. كان المبنى قد شُيّد في عهدٍ بعيد، حين كانت للبلدة أمجادها الخاصة: طقسها المعتدل، وقوة مفاصلها وعظامها، وخصوصية بوحها، تبوح بخيراتها وتسربها إلى المدن القريبة والعاصمة، وتبوح بصباياها الرشيقات الجميلات، تزوجهنّ

إلى أهل المدن معززات مكرمات عاليات المهور.

كان الوزراء المركزيون وحكام الإقليم المتعاقبون يأتون من حينٍ لآخر، أنيقين وحذرين ومتفقدين وراسمين لأهل البلدة الصبورين وعوداً من قش وطين لا تنفَّذ أبداً. المدراء الزراعيون وموزعو الأراضي السكنية والزراعية يجيئون بخرائط وخطط وابتسامات واحتمالات للتطوير وإنشاء فروع للبنوك، ويغيبون زمناً، ليعودوا بنفس احتمالاتهم مرة أخرى. الفرق الموسيقية تأتي، مدفوعةً باحتمال وجود ثروة، تلسع الأمزجة الريفية بأنغام من الـ"روك آند رول" والجاز الغربي والجنون الفنّي، وتسافر وفي داخلها حنين للعودة، لا للإطراب في حدّ ذاته ولكن لحصد مضاعفات الإطراب، من ترف ومجون وعيون مكحّلة لصبايا ساذجات منبهرات. حتى الحواة ممّن تألقوا وفتنوا، واحتلبوا انبهار الناس في المدن وجيوب التلاميذ في المدارس، كانوا يأتون؛ ينمقون كوابيسهم ويأتون، قراء الكف، وباعة أحلام الهجرة والسفر، كانوا يبذلون جهوداً مضنية في الوصول، ويرحلون بصيد ثمين في أغلب الأحيان، وموظفو الخدمة المدنية من ضباط إداريين وأطباء ومعلمين، ترسلهم أقدارهم، بلا أي خيار.

في تلك الاستراحة غنّى إبراهيم الكاشف، مغنّي البلاد العظيم، أغنيات عن الهجر والسلوى ولهاث العاطفة المجروحة؛ غنّى النعام آدم، مغني الشمال العريق، بصوته المجروح وآلة الطنبور التي أجاد استخدام إحساسها إلى أبعد حد. أنشد الماحي وأولاده في حب الرسول الكريم، واكتسبوا تعاطفاً أخاذاً، وأمضى سماسرة القطن الأوروبيون، الذين يأتون في موسم جني القطن، أوقاتاً عصيبة.

كانت جدران المبنى، التي طليت لآخر مرة قبل أربعين سنة، تحمل في اتساخها أسماء مختلفة وقلوباً مطعونة بسهام ورسومات هزلية وأشعاراً بالغة الشجن لمعشوقات نحيلات يسكنّ داخل الشعور ولا يبرحنه، كانت الأرض المشققة هي نفسها التي داستها الموضات القديمة للأحذية، وتدوسها الموضات الحالية واللاحقة، وكان الطبخ الذي ينضج، ويشبع، بخبرة طباخين محليين يتوارثون الخدمة في ذلك المكان، هو ذات الطبخ الذي نضج، وأشبع أجيالاً ماضية.

كان عبد النبي سمارة، المدرّس الغريب، قد وجد في تلك الاستراحة مأوىً محذوفاً من أي خارطة فندقية، وجد حجرة باتساع ممر، وممراً باتساع جحر، يعبره بحذر. وجد سلالات من بق الفراش تكمن في قطن لحافه، وروائح لجمال وخنازير، ودموع، وخمر معتقة تنزّ من وسادة رأسه، وآثار لسلاحف وفئران، وأوبئة تتمخّط بجوار غربته. كان عاري الجيب بلا خيارات أخرى، ولا أي إمكانيات تسكنه في مكان آخر، وبدت له تلك السكنى الحكومية المفزعة في ذلك الضيق رائعة ومبهجة إلى أقصى حد، وساترة لعري الجيب. لم يلقِ أيَّ سؤال متوتر، و لم يقم بالطواف على البيوت المتوفرة في بلدة مرصوصةً بدقة في كل فراغ قد يخطر على البال، من نسيج الدلتا إلى الصحراء، لانتقاء مقر آخر، وكان أول ما فكر فيه أن لا يذرف أي دمعة.

في الأيام الأربعة الماضية التي أنفقها في البلدة اختار ملامحه بدقة: وجهاً جامداً، وعينين قويتين، ومشية أقرب إلى الهرولة، اختار عرقاً خاصاً ليعرق به أمام الناس وأمام نفسه، إنه عرق الرسالة التربوية التي تؤدّى في أي بقعة من بقاع الوطن الكبير، أدّاها بصدق لسنوات طويلة

في الشمال، ويؤديها هنا. تعرف إلى المدرسة الابتدائية المشيدة من الطين الرخو، وأحبها لأنها مدرسة؛ تعرف إلى زملاء من أهل المنطقة، أو غرباء شيدتهم المحلية بتشييدها الآخر، وتلاميذ أشبه بالعناكب تسلقوا غربته بعنف، وما زالت نظراتهم لاصقة به، ويحسها تزحف على جلده. لم يرد أن ينسى امرأته أو عياله أو رطانة شماله البعيد، و لم يرد أن يذكر ذلك كله حتى لا يضعف. لم يرد أن يرسل لحيته أو يطور شاربه أو ينجو من شرك الخيالات المتوحدة برواية واقعية، لكن لحيته استرسلت بالفعل، شاربه تطور بلا قصد، والقصص الواقعية كانت تنز حتى من ثقب إبرة. احتاج إلى تنباك جيد يلمّ المزاج المضعضع، فتعثر بشاطر، تاجر البلدة المرموق، القادم هو أيضاً من الشمال. احتاج إلى أخوة ممتلئين وجاهةً، ويمكن أن يسدّ بوجودهم ثغرات يحدثها الحنين أحياناً، فتعثر بشاطر أيضاً، وبصديقه المحجوب صائغ العرائس. واحتاج إلى جلسات حيادية يغتاظ فيها أو يبتهج على راحته أحياناً، يتقافز بين السياسة والفن ومشاكل الدنيا، ويستمع إلى إذاعة لندن ومونتي كارلو، فتعثر بشاطر للمرة الثالثة، حين وعده بإعارته راديو ترانزيستور صغيراً يفي بالغرض. ذلك التاجر النحيل، الذي يبدو مرهقاً طوال الوقت، مجتمع لوحده، مثل مجتمعات القدم القادرة على الحكمة، صنّفه خطراً على القلوب، يأسرها بلطف وينساب سلساً إلى أعماقها. تُرى لو كان مثله غريباً، ومدرّساً لمواد العلوم والدين والجغرافيا، هل كان سيظل واقفاً تلك الوقفة، مبتسماً تلك الابتسامة، ومتّكئاً على طاولته تلك الاتكاءة؟.

بالأمس، في وقت القيلولة، زاره شاطر وبرفقته صديقه المحجوب

صائغ العرائس، المنحدر من الشمال أيضاً ويمتّ بصلة القرابة لشاطر، كما سمع، استحوذا على ساعتين كاملتين من وحدته، حتى ألغيا ملامحه الجامدة وأضحكاه من أعماقه، وسلّماه في النهاية لقباً غريباً لم يكن يظن أنه سيحمله ذات يوم؛ منحاه حظوة كبيرة وهدايا مكلفة للغاية. هؤلاء الشماليون المهاجرون إلى كل بقاع الوطن، حتى الجنوب البعيد المختلف عرقياً، مثل داء النقرس، يمسكون بإصبع الهجرة الكبير، ولا يمسكون بغيره من الأصابع، لماذا هم تجار وصاغة وملاّك أراضٍ بلا حدّ؟ لماذا هم وسيمون وناعمون وذوو أصوات آمرة يستجيب لها الآخرون؟ هو أيضاً شمالي مثلهم، لكن "نقرسه" – مع الأسف – أبله ضعيف الشخصية. أخرج من جيبه رسالة لوّنها بأشواقه وكاد أن يرسلها إلى الشمال، حيث قلبه ونصفه الحلو وآل سمارة، أهله، الذين يملكون عراقيب رجليه، راجعها بدقة، واكتشف أنه نسي بعض الأشياء: لم يصف عراكه ضد ذبابتين لئيمتين أزعجتاه لعدة ساعات حتى قضى عليهما، وعدة عائلات من بقّ الفراش تهجّمت على دمه، وابتسم حين تذكّر أنه عنونها بالبريد الجوي، في حين أنّ جو البلدة كان خالياً من أيّ بريد أو غيره؛ هو ذلك المكتب الصغير المتواضع الذي يرسل الرسائل بأيّ طريقة بدائية يمكن تصورها. أخرج قلماً من الحبر الجاف أزرق اللون، كتب تذكاراً على الحائط المتخم بالتذكارات، أخرج عطر "بولو"، منشّط التعصّب الرياضي لدى مشجعي كرة القدم الذي أهدي إليه من قبل المحجوب، من حقيبته، استنشق قطرة منه، وأحس بغتة برغبة طاحنة في تشجيع فريق ما، صاح: "العب... العب، مرّر الكرة لزميلك المنفرد بالمرمى، غبي"، وانتبه إلى أنه في

خلوة تبعد آلاف الأميال عن أي ترف رياضي، وفريق النحلة الوحيد بالبلدة ما زال تحت التأسيس، وأن ساكنين غريبين آخرين، يعملان في الحكومة ويشاركانه المبنى والقيلولة، وربما التمزّق، فزعا من صوته المرتفع وجاءاه راكضين يسألانه عن الخطب. أحسّ بخجلٍ وعرقٍ لين نزّ من جلده، أمسك بقارورة العطر، خبّأها في الحقيبة مرة أخرى، واعتذر للساكنين بأنه كابوس نهاري داهمه أثناء رقدة القيلولة. أسرع إلى كتاب معقّد يقلبه، كان كتاباً عن الطهو الحديث اقتناه من مكتبة عامرة في العاصمة حين دخلها قبل رحيله إلى البلدة، فرد صفحاته بلا وعي وتعثّر بطبق عن فطر المشروم المهروس بالصلصة، حاول أن يرسم ملامح لذلك الفطر تجعله يستلذّ بالطبق ويحلم بلحس قاعه، فلم يستطع. ألقى بالكتاب على الأرض تحته، وتمدّد على السرير محاولاً أن ينهب ساعة من النوم في قيلولته الرابعة.

فجأةً نبع الغشيم كرو أمامه، جرّده من آخر قيلولة ناعمة في حياته، برغم مرارتها، بصوت مدرّب على استبداد الخدمة وعلى إقلاق أي راحة يكلّفه الجنون بإقلاقها، كان صوت نعليه وهما تهزمان البلاط المشقق للغرفة وتحيلانه إلى تراب. انتبه الغريب إلى رائحة جورب مشقوق تداعب أنفه، وأنفاس رطبة تعوي، شاهد وجهاً متقلّب الملامح وشعراً غارقاً في الودق حتى جذوره، شاهد ما يشبه الكارثة، وكانت بالفعل كارثة. نهض مترنّحاً من سريره، ليواجه الغشيم، ولسانه يابس:

– من أنت؟ ماذا تريد؟

لم يكن قد شاهد الغشيم في تلك الأيام التي قضاها بالبلدة، ولا

كان يدري أنه حين عطس برائحة التنباك أمام متجر شاطر في وجود امرأة مزركشة قد رسم سكّة وعرة لمستقبله، وأنّ الغشيم كرو قد كُلِّف بإلقاء أول حجر مسنّن في تلك السكة.

اعتبره الغشيم أيَّ شيء إلاّ شخصاً يسأل بمشروعية عن هويته وسبب وجوده العنيف في غرفته، لم ينظر إلى وجهه حتى، وخطا بسرعة إلى شعره الذي كان ينزح نحو النضوب بجدارة، جزّ من أغزر منطقة فيه خصلة سمراء بسكين شديد اللمعان أخرجه من جيب قميصه، وأدخل الخصلة جيبه. اعتبره أيّ شيء إلا غريباً مرتعباً يرتجف بجدارة، وخطا إلى سراويله البيضاء المعلقة في الحائط فاقتلعها عنوةً من مكانها وطواها تحت إبطيه. اعتبره أي شيء آخر إلاّ مسكيناً حاول أن يستغيث، و لم يخرج صوته من حلقه. برك أمامه، أمسك بإحدى يديه المرتعدتين، وبحجر مسنّن كان يحمله، حكّ جلده حتى الدم، مسح قطرات الدم التي تساقطت من الجرح بشاشٍ متّسخ ثم نهض، وذهب بخطوات أكثر عنفاً من تلك التي جاء بها.

كانت قيلولة فاجرة، كما قدّر الغريب، رسمت له مكابدات جديدة لم يكن قد وضع لها حساباً، جعلته يحسّ بعيوب أنفاسه التي لم يكن يحسّ بها من قبل، يسمع ترنّحات نبضه بأذنيه، ويحس بألم مباغت في أضراسه الخلفية، و لم تؤلمه من قبل قط.

كانت قيلولة كافرة كما قدّر، وهو يستعيذ ويذكر الله سراً وجهراً، وينادي بأسماء أولياء صالحين من أهل الشمال كانوا محنطين في ذاكرته منذ الصغر، و لم يحدث أن نادى بأسمائهم أبداً: يا شيخ المرابط، يا شيخ جمعة حجر الرحى، يا شيخ على تمساح الفيضان.

كانت قيلولة متّسخة أيضاً، لأنّ رائحة الجورب المشقوق والأنفاس الرطبة التي شمّها عند غزو الغشيم بقيت عالقة في الغرفة لا تريد أن تتزحزح.

لم يكن صاحب خبرة بالنزوات والعيوب الخلقية، ولا كان في أهله وأقاربه وعشرات الذين صادفهم في حياته من قبل مجانين ليستحضر صفاتهم، يلصقها بمقتحمه الغريب ويتوصل إلى تشخيص حالته. بدا له الغشيم كرو في تلك اللحظة، بعد أن هدأ رعبه واستعاد الموقف بتأنٍّ، ومن نظرة تربوية بحتة، ولداً صعلوكا بلا ولي للأمر يقرصه في أذنه ويعلّمه الأدب واحترام الغرباء، وبدت له عيناه المشعّتان جنوناً، من زاوية أخرى، مجرّد عينين هائمتين لمقتحم مخدَّر بمادة ما يسعى إلى سرقة عادية. لكن السروال المنتزع من الحائط والدم المسال من الجلد وخصلة الشعر المقصوصة من رأسه، هل كانت جديرة بالغنائم المسروقة؟

عدّة ساعات متأزمة أنفقها الغريب في غرفته، التي أغلقها جيداً بعد ذلك، وهو يحوم حول وقائع القيلولة الغريبة، يزينها بأصباغ شتّى يخترعها في خياله، فتأبى أن تتزين، يطبخها ويغليها في عقله المحلل للذرات والمعادلات الصعبة التي يدرّسها للتلاميذ، ويستعيدها كما هي، لا تنضج أبداً. يأتيها من الأمام والخلف، ومن القاع والقمة، من نوافذ الحزن ونوافذ الفرح، ونوافذ الشلل النصفي الذي أحس بأنه سيصيبه في ذلك اليوم، فتظل هكذا، راقدة في المسار المعتم، تأبى أن تستقطب أي ضوء. سرواله المصنوع من قماش الدمور العادي الرخيص، استخدمه لثلاث سنوات ماضية، زفّ فيه أعراساً ودفن فيه أمواتاً، وشمّره حتى الركبتين ليعبر خيران غاضبة، وكان في الطريق

إلى المزبلة قريباً بعد أن بهت لونه. شعره استخدمه خمسة وأربعين عاماً، مسحه بزيت السمسم وعباد الشمس والفازلين حين يكون متوفراً، ومشّطه بأمشاط الخشب والحديد، وفي سنوات مراهقته البعيدة سرّحه بما كان يسمى "موضة إبراهيم عوض"، ذات الشق في الوسط، كنايةً عن المغني المعروف، وكان في طريقه إلى النضوب، دمه من الدماء الريفية الأصيلة، مشحون بطفيليات الملاريا وبكتيريا التايفود وحمى المستنقعات الخبيثة، وربما بنقص فادح في مواد مثل الكالسيوم والحديد وفيتامين C، ولن يغذّي حتى بعوضة لو مصّته. أراد أن يضحك، حتى لو ضحكة سطحية واهية، فلم يستطع، وأن يبكي، فلم يبد له الأمر حزيناً لدرجة البكاء، وأن يسخر من صرصور مجتهد يحاول أن يتسلق الحائط أمامه بلا جدوى، فما عثر على مفردة سخرية واحدة. أراد أن يفرغ مثانته الممتلئة، ويسيطر على غمزات لا إرادية بدأت تتكرر من عينه اليمنى، فلم يستطع. نام مضطرباً بلا عشاء ولا أحلام وردية، وفي الصباح احتال على جسده، لمّه من خموله، وعلى خطواته المكسّرة، حاول إصلاحها مئات المرات في سكة السير إلى المدرسة القريبة. تعذب بشدة في حصص العلوم، درّسها وهو يلهث، تعذّب في حصص الدين أيضاً، ارتفع شخيره في فقرة للجهاد لا تحتمل الشخير، وفي حصص الجغرافيا تجلّت معضلته بصدق حين أخطأ في حق نهر النيل العظيم، وصفه باقتضاب، كما توصف الخيران الضحلة، وتفاجأ، في هجمة من هجمات النعاس المضطرب، بمدير المدرسة يهزّه من كتفه، واكتشف أن ثلاثة أرباع تلاميذ الفصل لم يكونوا موجودين في أماكنهم.

الآن، وبعد أن أكمل يومه التعليمي الشاق وحصل على ملاحظة سيئة من المدير، جاء شاطر يركض إلى ذاكرته المتبقية، التاجر النحيل، المرهق دائماً، الذي يمثّل في نظره مجتمعاً كاملاً، لا بدّ سيفسر وقائع قيلولة البارحة ويهيل عليها تراباً من المنطق يقضي على ذلك التشاؤم الذي يسيطر عليه. هؤلاء الشماليون سريعو الولوج إلى البيئات الغريبة، يلجونها من الشمّة الأولى لعطورها، وتصبح سنوات الشمّ اللاحقة مجرد تحصيل حاصل. كانوا يلقبون بأبناء البحر في غرب البلاد، كنايةً عن سكناهم بالقرب من نهر النيل، وبالجلاّبة في الجنوب، كنايةً عن جلبهم خامات التجارة التي لم يعرفها الجنوبيون. هو أيضاً شمالي، لكنّ أنفه ممتلئ بالمخاط الفقير ولا يعرف كيف يشمّ به عطر البيئة. خرج من المدرسة متهوراً سريع الخطى، وقد نسي أن يصحّح اختباراً عاماً وضعه شارداً، وأن يعاقب تلميذين مشاغبين قلّداه في كل شيء وقصّا خصلاً من شعرهما في حلاقة متعجّلة أُجريت بمبراة أقلام الرصاص بعد كسرها، وسمّيت "موضة عبد النبي".

-١٤-

كان الغشيم كرو، في مرافقة السنوات العشر الأخيرة، قد أحاط بعالم حورية مصلح كله: عرف أدوات نصبها وحروف ضمّها وجرّها بالكامل، وأتقن إعراب تقلباتها مهما تعقدت، طوّع جنونه للخدمة المستبدة حتى ليؤديها بوعي كبير وهو مجنون: نقض الشعر، وإعادة تمشيطه، عجن الحنّاء وصبغة الشعر، وإعداد مساحيق الوجه ومرطباته، وملء الأزيار، ونصب الشراك لصيد كل شيء ممكن، وحتى الصوم كفّارةً عن آثامها الشخصية حين ترتكب آثاماً. حين التهم السيرة الذاتية للمدرّس الغريب التهم معها مهمة لم توصف له بدقة كافية. عرف فائدة الشعر والسراويل وقطرات الدم وفوائد أخرى لأشياء أخرى عديدة؛ إنها عدّة الشبق المفضلة لسيدته، لم يرها تستخدمها في فترة التصاقه بها، لكنه يعرف أنها استخدمتها من قبل في انتزاع علوب الحضرمي من ماضيه وعائلته، وشاشوق رمز القوة من جفاف عاطفي كان يعيشه، ولا بد ستحتاجها الآن في تحاومها حول المدرّس عبد النبي سمارة لتضمه إلى عقد العشاق بعد ركودٍ طويل. حين واجه الرجل في استراحة الحكومة لم يعنِه أبداً إيذاء الحس، والخدش المعنوي، و لم

تمثل له تجاعيد الهلع التي يعتقد أنها ارتسمت على وجهه، و لم يرد أن يراها، أيّ معنى. كان في قمّة خدمته المستبدة، سخّرها لجلب خامات الصيد، ومضى دون حتى أن يلتفت خلفه. الآن سينال طبقاً إضافياً من الفول المخلوط بالصلصة، وعدة شرائح من البطاطا، وربما نال شرفاً غالياً بأن تجعله سيدته، وهي راضية، يسدّ ثقوب أذنيها بالحصى والأسمت، ويغسل وحمتها الخلقية المسالمة بالليف والصابون، وكان قد اعتاد أن يفعل ذلك في غفلة منها. الغشيم كرو، أعظم مجنون أنجبته الأخطاء الأمنية، الآن وقد نجح في مهمة خارقة، يستطيع أن ينظم أشعاراً على غرار لوركا ، يضمّ وركيه حين يجلس، بطريقة رؤساء بلديات، يحكي بلغة اشتراكيين، تعلمها وأجاد في تعلمها لدرجة الملل، ويستبد بخدمته إلى آخر مدى. لو كان أطول قليلاً لمدّ عنقه اليابس من حوائط البيوت وضحك على البيوت كلها، لو كان أقصر قليلاً لتعدّى على عالم الطفولة الريفي ولعب ألعاباً رائجة كالحجلة، والاختباء، وركوب العصي باعتبارها سيارات. لو لم يكن مجنوناً لربما كان سينتَخب ممثلاً شرعياً لهذه البلدة التعيسة في أقرب انتخابات ديموقراطية، ولو قدِّر له ذات يوم أن يحكم هذه البلاد سيحكمها بسياسة مخترعة لا يعرفها غيره.

في حياته الأولى نقاط مظللة بالأسود لم يستطع تنقيتها أبداً، وحين سافر بعيداً، وتثقف وعاد، لم تعد تلك الظلال تؤرقه، ولا عاد يتذكرها حتى في أقصى لحظات الجنون كآبة. في السجن كان الزملاء يرعونه كحملٍ شارد، يربطونه إلى ثرثرة ألسنة مسنّين ثرثارين ومعتادين على الحياة المرة في السجن، ويتركونه ليرضع، ثم طوروا ثقافته بعد ذلك

بأسلحة الغسيل والكي، والورق المسطّر، لم يكن مسطرتهم المفضلة، لكنهم استخدموه بالفعل في تسطير حائط من حوائط السجن، في غفلةٍ من الحراس، غمسوه في دواة بحجم بئر، كانت ممتلئة بدمائهم، كتبوا به على الحائط: "يسقط العملاء"، وحين غسلوه بعد ذلك بالماء والصابون لم يذهب حبره أبداً، ظل يكتب كل صباح، على كل تربة يعبرها: "يسقط العملاء". حين أُفرج عنه بعد أن اكتشف الخطأ ودّعه الزملاء بكثيرٍ من الأسى، أوصوه بالتقشف والحذر وضبط النفس ومقاومة الضحك في الصدر حتى النهاية، ولم يكونوا يدرون أنه مجنون حقيقي، هدأ وتعلّم منهم في السجن، لسببٍ غير معروف، وأنه سيستبدّ، ويتجلّى خادماً مخلصاً لنصف غجرية تعشق اقتناء الرجال: عمتي شجرة الدر، كان يناديها بذلك الاسم كلما جاع أو شبع أو اهتاج بلا مناسبة للهياج، يتعرّى من الحيطة والحذر. وفي أكثر من تلاحم بيتي باح لها بأسماء رأسماليين متسلقين تنوي القوى الحديثة هدمهم حين تحكم، ومفكرين خرافيين من منطقة سوق ليبيا وحي القمائر الشعبي كانوا يخططون لخطبٍ جلل سيهزّ البلاد، ووزراء من عامة الشعب لن يقسموا بقسم الولاء إلا إذا دخلوا دورات المياه عشر مرات. قال: أبّكر، وموسى وعبد الله جاهو، وخالتي المسكينة ست النساء، ينصر دينكم جميعاً يا أبطال، وقال: تموت الحرة، ويموت الحر، وقال: أستغفر الله العظيم. وباستثناء بكاءاته المخبولة، في ساعة الهياج، لم يبكِ من ضعفٍ أمامها قط.

كانت تبتسم وهي تستمع إلى هذيانه الذي كان، واستمرّ، طلاسم عصية على فهمها وفهم كل من يسمعه. لم تسأله عن أبكر وموسى

والخالة المسكينة ست النساء أبداً، ولا حاولت تخمين شيء. تبتسم مفسحةً لسنّها الذهبية التي ركبتها عند طبيب أسنان في المدينة مجالاً لتبرق، وللسانها الشديد الحمرة من أثر عافية الدم مجالاً ليبرق هو الآخر. لن يصبح الغشيم كرو إلا خادمها وحدها فقط بعد أن روضته وروضها، ولن يستبدّ بخدماته في أي بيت آخر، وقد كانت عشرات البيوت تحسدها عليه. الجبار اليتيم المعتوه الطويل النظر غير قابل للطرد أبداً، ولا ينحني للنواح أبداً. في أحيان قليلة جداً كانت تشتهيه، يرتقي في اشتهائها فجأةً من خادم معتوه إلى جلاد للمتعة، يرتقي ساعداه من ساعدين مسخّرين للخدمة الشاقة إلى ساعدين يصلحان للكيّ. تنسى أنه بلا عواطف، تقترب منه قليلاً، تشمّ رائحة فمه الزفرة، وتكتشف تفاهة الاشتهاء. ليس خادمها في واقع الأمر سوى خادمها فقط. قال لها طاهر عائشة، اختصاصي الزار المتغطرس في تلك الليلة البعيدة، حين جاء به الغشيم من المدينة لإحياء ليلة زار من أجلها، وكان موجوعاً من كدمة في كتفه، ودامع العينين من تراب كثيف دخل عينيه، قال لها بصوته النسائي المحقون رقّةً: كيف تعيشين مع رياح الهبباي في بيت واحد يا شابة؟

تلك الليلة كانت قد رقصت وغنت في حفل الزار، وشفيت تماماً من أعراضها. طيّبت خاطر الرجل بكلام ناعم وعدة جنيهات تعويضية، وأخبرته صراحةً بأن لا جدوى من تقديم بلاغ بواقعة اختطافه، كما كان سيفعل، لأن الغشيم بلا عقل يميز، ثم صادقته. ضحكت حتى تشابكت مصارينها، قالت: هل أُسلّفك الغشيم ليخدمك يوماً واحداً فقط؟

قال: لا... لا، أرجوك. وغطّى وجهه بأطراف عمامته.

كان سوق البلدة ممدّداً وسط اليباس العريض، كجدول ضحل، كان يشبه أسواق الريف الوطني كلها، يشبهها لدرجة التوأمة: نفس المطاعم الفقيرة التي تعشق الذباب ويعشقها؛ نفس المقاهي المملوءة بالثرثرة وتقدّم البن والشاي الأسود؛ نفس تجارة الخردوات واللحم والخضار، والباعة السمر، والنساء المحاججات على قرش وقرشين، والرجال الذين يشترون في الغالب بألسنتهم فقط، وشيء من رائحة الإفرنج في عطور أو ملابس أو ذهب، أو سلع مهربة تأتي من منطقة الخليج العربي بمراكب البحر. تستشري طريقة البيع بالسداد المؤجل، وتقبض الدفاتر بذاكرات قوية على كل قرش مستحق، وقد فكر كثير من التجار فيما مضى أن يرتقوا بالبيع أكثر ويحولوه من رطانة مقيدة في الدفاتر إلى سيولة نقدية، أغلقوا دفاترهم وعلقوا لافتات قماشية على مداخل دكاكينهم كتبوا عليها بخطوطهم المكسرة: "ممنوع الدين"، لكنّ أميّة الشراء المعتادة المستشرية صدتهم، تفّهت من تلك اللافتات، واستغنى معظم الناس حتى عن أشياء ضرورية، فأنعشوا دفاترهم من جديد، وعادوا إلى السداد المؤجل مرة أخرى.

في طرف حيوي من ذلك الجدول الضحل غرس شاطر دكانه، غرسه في البداية شتلة صغيرة ما لبثت أن نمت بجهده المتواصل، وتكسّرت كثيراً، ونمت من جديد، وهو الآن محشو بالبضائع، ويفوق في امتلائه دكاكين أخرى مغروسة في السوق منذ أمد بعيد.

-١٥-

انتظم عبد النبي سمارة بعد خروجه من المدرسة في سكة السوق، يشم رائحة دمه بوضوح، ويسمع بوضوح أكثر حديث قلبه الواجف لعروقه الواجفة، ولم يستطع، وبرغم مناداته المريرة للثبات منذ قيلولة أمس، أن يمنع يده من تحسس جرحه في اليد الأخرى، ومدها من حين لآخر إلى فروة رأسه، لتمر على الخواء الذي تركه الغشيم حين جزّ الشعر. صادفه في الطريق عشاق للغرباء، حيّوه بابتسامات ومصافحات ودعوات لتناول العشاء في بيوتهم، وجهلة ضد التعليم بوصفه مفسدة للأخلاق، سبّوه بعنف، وأشارت إليه إحدى النساء من باب موارب أن يقترب، فلم يلتفت، وحين استوقفه شابان موشومان في ذراعيهما، وطلبا منه أن يصبح حكماً في مباراة مصارعة سيلعبانها الآن، اضطر أن يرطن بلغة لا يعرفانها هي لغة شماله البعيد.

كان شاطر داخل دكانه، مختبئاً خلف بضاعة جديدة وصلته بالأمس وهو في قمة انشغاله بتأسيس فريق النحلة الكروي، فلم يلمسها. كان الآن يعرّي البضاعة بصبر، يزيل عنها أغلفة الكرتون والبلاستيك السميكة تمهيداً لعرضها على الشراء في البلدة، حين جاءه الغريب.

في الصباح الباكر، وقبل أن يفتح دكانه جيداً، شمّ رائحة حورية مصلح، وارتعب. التفت فرآها بنفس زركشتها العادية، لكنها كانت تحمل حقيبة يد من القماش البني، فتحتها في صمت وأخرجت منها خاتماً صغيراً من الفضة، قالت: هدية مني لك.

كان تصرفاً جديداً تماماً جعله يستغرب بشدة، فمهما كان متعاوناً معها، ومهما تعب ومات من أجل إنعاش البؤر الكذّابة في قلبه لاسترضائها، لم يكن يتوقع هدية. ابتسم بابتسامة ناداها على عجل وشكرها، وارتدى الخاتم في إصبعه أمامها ثم نزعه حالما ذهبت. كانت هدية مقلقة بكل تأكيد، هدية يجب أن تبقى على إصبعه على الدوام، وكان بحاجة لإذن من زوجته حتى يضعها.

لم يكن ظهور الغريب يشبه ظهوره في الأيام الماضية. كان متوتراً، ومبعثر الملامح، شعره محفور في الوسط، إحدى يديه مربوطة بخرقة، وسرواله الذي يرتديه بدا من قماش دمور قديم، وضيق، يعضّ على أسفله بشدة. ظنه في مرحلة اكتئاب أو جنون طارئ، كما قد يحدث للغرباء في أيامهم الأولى في بلاد لم يعرفوها من قبل، أو لعله اشتبك في تجواله داخل البلدة مع متعصبين قبليين استضافوه بعنف وسقوه من لبن الإبل المعروف بإرهاقه بطون الغرباء غير المعتادين عليه، ويمكن أن يدخلهم صراعات نفسية حادة يؤذون فيها أنفسهم. ترك انشغاله مضطراً، قدّم له مقعداً من الحبال وقهوة مرّة وأذنين ليستا جاهزتين تماماً لامتصاص الحكايات، لكنهما مضطرتان.

ارتمى الغريب على ضيافة شاطر بثقله المهموم الذي فاق في الوزن، كما يعتقد، حمولة عشرات الصدور، جاد بوقائع قيلولته الرابعة

الفريدة، بحديث طويل ومفصل كان يتساقط في معدة أذني شاطر حتى أتخمت. كان يشير إلى رأسه المحفور، ومزق الخرقة ليظهر الجرح، وقال إن السروال الذي يرتديه ضيق لأنه لا يملك سوى سروالين، سرق أفضلهما. وحين تطرق إلى وصف الغشيم، ورائحة أنفاسه، وجوربه المشقوق، كانت ثمة دمعة تنزلق على خده.

لم يضحك التاجر أبداً، ولا شردت إلى شفتيه المضمومتين عن عمد وإصرار أي ابتسامة، عرف أن تحركاً سريع الخطى قد بدأ، وأن الطريدة لا بد واقعة في شرك الحضرمية عما قريب، وما ذلك الخاتم الفضي المستهلك سوى عربون وقح قُدِّم له بسبب تعاونه. أراد أن يرسم خواطر عادية مثل أي خواطر، فما استطاع، أراد أن يحذو حذو جنتلمان ريفي غير موجود بداخله حقيقةً منذ زمن بعيد، ويقطع الخيط الصائد قبل أن يصيد، وذلك بأن يخبر الرجل بكل شيء، ويحرّضه على الفرار، ويدعمه بمصاريف السفر، لكن تلك الذكريات المرّة، حين غدا بلا وزن ولا تجارة من موقف مماثل، إضافةً إلى التحريض العائلي السلس الذي يسمعه يومياً في البيت ويحذّره من الرجولة الكاذبة وسكك الغواية، كل ذلك قيّده بشدة، أحاله إلى مجرّد مستمع سلبي عادي يسمع ويهزّ رأسه، ويتقبّل الصداع راضياً. نهض إلى نداء بيع عاجل من امرأة تسأل عن كيس من العدس، لبّاه، وإلى نداء تسوّل مُلح من رجل أعمى يأتي عشرات المرات في اليوم، قهره. حكّ رأسه عدة مرات بحثاً عن صيغة للرد، قال في نفسه: يا لطيف! ثم شجّع لسانه، انعطف به إلى سكة خطرة. اخترع نصاً غوغائياً نسبه إلى تراث البلدة العريق في غمضة عين، من دون أن يضع في تكهناته

أن التراث يكتب، ولا بد من رواة حقيقيين سيشنقون نصّه المخترع في أحد الأيام، ويحاكمونه بعنف، لا لسبب سوى أنه كان يحمي نفسه وتجارته من التدمير.

لم تكن ثمة طريقة لاستشارة المحجوب، ودكانه في الطرف الأخر من السوق، ولكنه سيخبره بكل تأكيد. قال :

- إنهم بعض شباب البلدة الذين يحيون عادة قديمة عند القبائل. يستبشرون بالضيوف والغرباء، يأخذون دمهم وسراويلهم وخصلاً من شعرهم، وأحياناً يمزقون ملابسهم، نوعاً من البركة، صدقني إنها عادة قديمة، تكررت معنا كلنا حين أتينا، فقط أبقِ الأمر سراً ولا تخبر به أحداً آخر.

ثم ابتلع ما وجده في حلقه من الريق، وعاد إلى بضاعته الجديدة يكمل عريها. سيرسل الرجل إلى حلاق في السوق ليسوي شعره، وسيأخذه إلى خياط من أجل سراويل جديدة.

استرخى الغريب على ظلال كلمات شاطر استرخاءً مبالغاً فيه، استند بظهره على كرسي الحبال أكثر، ونام مغتسلاً من كل أدران الشك. هؤلاء الشماليون ملاعين أكثر من اللعنة نفسها، حتى لغة القبائل يهضمونها، وتجاعيد التراث تعرفهم وتقفز إلى ألسنتهم عند أي استدعاء، هل سيأتي عليه يوم هنا يصيّره مثل شاطر: نابهاً، ومدركاً، وأخضر اليد؟

قال: شكراً، وهو في أعمق طبقات النوم.

ردّ التاجر: عفواً، وهو في أقصى درجات الانشغال.

حين استيقظ الرجل أخيراً كان البيع قد هدأ في السوق وشاطر على

وشك أن يغلق دكانه. أخذه من يده إلى حلاق مقتدر، وبالرغم من ذلك واجه صعوبة في تسوية شعر حُفر بعشوائية، أخذه إلى خياطه المفضل جبريل، الذي هاجر إلى المدينة وعاد، وكان يلقّب نفسه بالمستر، أخذ قياساته من أجل قمصان وسراويل جديدة، موّل تفصيلها شاطر، ولأن الوقت كان وقت غداء، ولا يعرف شاطر إن كانت أسرته مستعدة لاستقبال ضيف أم لا، تغديا معاً في مطعم، وافترقا. كان شاطر يحس بورم خطير في الشعور، ومثله في اللسان، وهو يدخل دكان المحجوب صائغ العرائس.

-١٦-

كبر الليل بعد عدة ساعات من ذلك، وتمدّد على جسد البلدة. كانت الفوانيس المضاءة في البيوت شحيحة الضوء، والأصوات القادرة على نبش الخوف من أقصى أماكنه قد التمّت كاملةً: ثمة نباح للكلاب، ونقيق للضفادع، وتخاطب عائلي سري في عدد من البيوت، ثمة رائحة خوف، ورائحة موت، ورائحة بن يعدّه ساهرون هنا وهناك. كانت البلدة الآن قريبة من سوء الفهم، يفهمها الغرباء حياةً تحتضر، أو موتاً كاملاً، ويفهمها السكان مرجلاً يغلي من وراء ستار. في مثل تلك الساعة يتّخذ اللصوص مواقعهم في أماكن يختارونها بدقة، والمشتهون يزحفون بشهواتهم المستعرة إلى حيث تطفأ، وتتكاثر بكتيريا التخمير التي تخمّر النميمة لتطلقها في مجالس الثرثرة.

التمّ عبد النبي الغريب في حجرته الحكومية التمام مسيئٍ لفهم البلدة، بوصفه غريباً عنها. كان ينسب اليقظة المهمومة لنفسه فقط، التمّ بسراويله الضيقة القديمة، لم ينزعها عن جسده و لم يعلقها على أي حائط، بالرغم من أنه تأكد من قفل الباب جيداً. وكان قد التقى زميليه اللذين يشاركانه المبنى في أول المساء، و لم يشاركهما أي حديث.

كانت الحفرة ما زالت في رأسه، بالرغم من اجتهاد الحلاق، تذكّره بذلك الطقس الغريب، وجرحه على اليد ليس خطيراً ولكنه جرح، وضع عليه شيئاً من القطن وسائل الجنشن البنفسجي الذي استعاره من شاطر أيضاً. لقد استراح كثيراً لقصة التاجر الغوغائية، المخترعة، بدت له منطقية ولن يسأل مرةً أخرى. عاد إلى كتاب الطبخ المعقّد مرة أخرى، بعد أن التقطه من تحت سريره، بدأ يقلّب صفحاته، ينقّب عن وجبات يعرفها أو سمع عنها، ربما تسرّبت إلى تلك الصفحات مصادفة، لكنها لم تكن. كتاب أرستقراطي، عنصري، مملّ، لا بدّ سيصيبه بتسمم المعرفة.

ما معنى الأرز البسمتي؟

ما معنى شرائح الكيوي، والأفوكاتو بالكريم شانتييه؟

ما معنى الفقرة التي تقول: أضيفي قليلاً من عجينة الفوتي إلى الكريم باتسيار تحصلين على الشوسون؟

كتاب عنصري فعلاً، كاد يخلق في قلبه مظاهرة تهتف بسقوط طهو الأسر الراقية. لو كان طاهياً لردّ على تلك الفقرة بفقرة تقول: "أضيفي قليلاً من عجين القمح إلى مرق الدجاج تحصلين على وجبة مقوية لك ولعائلتك". ألقى الكتاب على الأرض مرةً أخرى، إلقاء قارئ متعجرف لن يهمّه لو التهمته القوارض أو شقّقته القطط أو تبرّز كلبٌ على ألوانه الأنيقة. الآن ليست في ذهنه أي ضغينة تجاه البلدة وأهلها. سيدرس الدين والعلوم والجغرافيا بنفس كفاءة المعلمين التي يملكها، ولن يبعث بأيّ رسالة إلى رئاسة التعليم في العاصمة، محتجاً على تأخر ترقيته، وتعيين تلاميذه وكلاء للمدارس، كما اعتاد أن يفعل

كلما اكتأب. تذكر امرأته الصابرة في قريته البعيدة، وخدوشها الناعمة على وجهه ومشاعره في مثل هذا الليل، حيّاها بابتسامة. تذكر أبناءه الأشقياء وهم يتكالبون على أبوته وراحته، ويتصارعون على صدره، زجرهم بدمعة. تذكر غطرسة الغشيم وهو يقلبه في الرعب، ويستولي على ثلاثة من أخصّ العيوب في عالمه، بلا وجه حق: يحيون عادة من عادات التراث بإحياء غريب لم يكن ليخطر بباله. نتف الشعر، وسرقة السراويل، والدم - إنها حقاً عادة مزعجة، لو احتفى في الشمال بضيف أو غريب احتفاءً كهذا لسلّموه إلى والده الشيخ ليربطه في زريبة للأغنام، وربما يجلده بسوط خشن من سياط جلد البقر. في أيام طفولته البعيدة حين كان الغرباء يجيئون إلى بلدتهم لأيّ سبب، كانت دماؤهم تتبعثر وأنفاسهم تتلاحق لإبراز حسن الضيافة. يسرعون نحو الغرباء حالما يعرفون بوصولهم، يربطون حميرهم، ينظفون غبار سفرهم، ويوقدون لهم شموعاً من التبجيل حتى يرحلوا. لا يذكر أنه التقى بسروال أو دم أو خصلة من شعر أولئك الغرباء أبداً، ولا تخيّل أنه سيلتقي بعيوب ربما كانوا يحملونها. وحين كبر بعد ذلك، وعمل في التعليم، وتنقّل في القرى المحيطة بمنطقته واجه احتفاءات شتى من سكانها، واجه الخراف المذبوحة، والابتسامات النابعة من القلب، واجه الغزل وعواطف النساء المتأججة، لكنّ أحداً لم يسرق منه أي عيب من تلك العيوب المتقنة.

كان الليل قد اكتهل بالفعل حين غفا أخيراً، لكن في بيت المحجوب، صائغ العرائس، كانت ثمة رواية تروى:

قال شاطر وهو يرطب شفتيه بلسانه، ويرمي بورقة رابحة من

أوراق لعبة اللونا على طاولة اللعب:

- تراهنني يا محجوب إن الحضرمية ستقتنصه، وتستعبده؟

كان المحجوب قد حاول طوال ذلك المساء أن يبدو منزّهاً عن أي تكهّن طائش، مرتوياً بشبع أبناء الشمال المهاجرين، يعطي للهجرة تمكناً، حتى في الصمت والتنفس وضبط إيقاع المشاعر. منذ عشرين عاماً جاء إلى هذه البلدة، ومنذ خمسة عشر عاماً تمكّن فيها، ومنذ عامين فقط نادوه إلى المدينة المجاورة، كرّموه بالحلوى والفطائر والمكسّرات وتصفيق الأيدي، وسلّموه شهادة الجودة في تنسيق الخواتم لذلك العام، متفوقاً على صاغة المدينة الذين شاركوا في تلك المسابقة. قالوا: "تهانينا الحارة يا محجوب! لقد أضفت إلى سلم الريف المتهالك درجة راسخة، لكنك لم تستبدل السلم"، فلم يفهم شيئاً، لكنه انتشى من دون أن يوحي بانتشائه. ليست الصياغة مهنة لأبيه حتى يراقبها وهي تلهو في معاصم النساء وأعناقهن وأصابع أيديهن، وينبهر بصنعة أبيه. يذكر بلدته البعيدة التي أبت أن تموت بداخله رغم سنوات الغربة الطويلة، وتومض في الشعور بين حين وآخر، يذكر ذهب قبيلة الرشايدة المهرّب عيار ١٨، هرّبوه رغم أنف ثمانين خيبة جمركية لاكتشاف التهريب وآلاف العيون التي تراقب ضباب البحر، ودسّوه في جيبه وجيب صاحبه شاطر دون جيوب التجار الآخرين. كانت شقاوة الصاحب في ذلك الوقت قد جرّته إلى الصفقة الشقية، وانجرّ، وجرّه معه. الآن ثلثا مصاغ الحضرمية من ابتكاره، وثلثا أناقة النساء في البلدة من ابتكاره أيضاً، ولو أحنى ظهره أكثر، ومطّ أنفه واستنشق أكثر، لفاق مئات من الكذابين كانوا يغشّون

عطور المهن بالماء. استمع إلى أنفاس صاحبه بتلذذ حكيم، وحاول قهره في عدة فقرات مراوغة، حدّثه عن الوهم والوساوس وجنون الغشيم كرو المسيطر على حركته، واستحالة أن تسعى حورية مصلح بتلك الخطوات السريعة لاقتناص غريب بعيد عن كل جاذبية محتملة. في قاع نفسه يؤمن بالخبل، وبالمستحيل، يؤمن بمفردات الجسد التي لو عولجت بالسحر لأنجبت خللاً لا يمكن التغاضي عنه. هل يكفي سروال ودم وشعر مقصوص من القاع لملء شبكة صائدة؟ هل تكفي يومان أو ثلاثة، أو حتى شهور كاملة، لتحويل نمر إلى أرنب؟ خوّف صاحبه التاجر الثقيل كل ذلك الثقل، أقلقه لبرهة، حاول أن يقلق على الغريب هو الآخر، وجد القلق يرحمه ويذهب بعيداً:

- ما علينا.

قال في وهن ناعس، وألقى بورقته الأخيرة منهياً بها اللعب.

وهو يودعه عند الباب سأله شاطر فجأةً:

- وفريق النحلة الرياضي، هل نكمل تأسيسه؟

- لا... لا ضرورة لذلك.

قال المحجوب، وعلى وجهه أرق ناعس، ثم أغلق الباب خلف صاحبه.

-١٧-

- نعم يا حورية، لبيك يا حبيبتي حورية مصلح.

لم تكن تلك الصيحة من أثر الملاريا أو حمى المستنقعات أو السحائي، أو التايفويد حين تمسك بالعقل وتؤرجحه.

لم تكن تجربة من تجارب الهزل الممل، تؤدّى على مسرح ريفي، ولكنها صيحة حقيقية، كوّنها عبد النبي الغريب في داخله، وداخل حجرته الحكومية، ليتلقفها اللسان بعد ذلك، ويطلقها.

حين هبّ من رقدته وصرخ كان مبللاً بالعرق واللهاث، وطرقعة الجسد، مشلولاً بلا حكمة، ومستعداً للتشرد، وارتداء جميع سفاسف العشق التي جمعها المؤرخون بتأنٍّ، عبروا بها عواطف التاريخ، وألقوا بها إلى الحاضر. حتى الاستغراب، الذي كان يفترض أن يستغربه ويلكزه لإيجاد حكمة أو مخرج، لم يكن موجوداً، والعرق التربوي الصارم الذي اختاره، ليعرق به منذ وصوله إلى البلدة، اختلط بعرق آخر، غريب، وتبخر. ارتسمت في عقله برهةً صوراً براقة لامرأة شاهدها عند شاطر في صباح مشرق، و لم يكتشف أنوثتها إلا الآن فقط، لم يكتشف أنه عشقها من النظرة الأولى، إلا الآن فقط. سمع

التاجر يردّد اسمها أمامه، وظنّ نفسه قد نسي الاسم، لكنه لم ينسه حقيقة، ولن ينساه إلى الأبد. حورية مصلح، لبيك يا حبيبتي، لبيك.

لقد نجحت المهمة نجاحاً منقطع النظير، وقامت بديعة حساب بواجب إكرام الاشتهاء خير قيام، المرأة الطاعنة في العنوسة، المحظية السابقة للجني شاخور، والشرهة لاقتسام الحريق مع النار، والمدورة الساقين من أثر داء فيل قديم، تكبر في كل يوم، ولا يصغر عطاؤها أبداً، ساحرة برتبة بروفيسور، وعرّافة برتبة جنرال قدير يستطيع أن يوجّه الحرب كيف شاء. في بيتها المنزوي عن تضاريس البلدة، نكايةً بتلك التضاريس، يكمن الهوس، وتكمن الضغينة، تكمن العورات المخصصة لأكثر أهل الريف نزاهةً، والعورات المخصصة للضائعين أيضاً. يلهو الشياطين بلعبة الأسرار واقتفاء الأسرار، وتبدو الحياة برمتها كابوساً جديراً بالفرار من وطأته. كانت ثمّة أباريق قديمة صدئة، وجماجم مهشمة، وبقايا كلاب وقطط، وزينة من أسنان الثعالب، وألسنة البوم معلقة على الحوائط. كانت ثمة نيران للطهو المر، لا تخمد، وعطور مستخلصة حتى من الغرغرينا ورياح الهضم. كانت المرأة العرافة تحب حورية الحضرمية، والحضرمية تحبها بالتوتر الأخاذ، تستعير مطبخها المهووس كلما اشتعلت، وحتم عليها الاشتعال أن لا تنطفئ، وتلقي إليها بالتكلفة التي كانت مرضية ومشبعة دائماً. في ذلك المطبخ المهووس طبخت تميمة الشبق التي جاءت بعلوب الحضرمي، كبيراً، وضخماً، ووالداً، وجدّاً لكثير من الأحفاد. طبخت تميمة الاشتهاء التي جاءت بشاشوق رمز القوة عاملاً لليوميات برافعة صدئة وتوافه ومشية مستجوب في التحقيقات الأمنية، لا تعنيه العيون

مهما اسودّت أو ازرقّت أو كساها الحور، ولو كان هندوب عيسى الأتمني فارساً من البلدة، و قريباً من شقاوة المأساة، لكانت قد جاءت به بدلاً من تلك العرافة الأتمنية في بلدته، التي كلفت حورية تلك الرحلة الشاقة إلى بلاد لا تعرفها و لم تسمع بها إلا في صورة لجنة حماية القيم التي أوقدتها.

الآن تميمة الاشتهاء الجديدة مختلفة المذاق، من شعر أحد مواطني الشمال وسراويله وقطرتين من الدم انتزعتا من جلده.

في بيتها لم يكن لحورية وقت مغفل تنفقه في استمالة تلك الأشياء التي جاء بها الغشيم، لا شم، ولا قضم، ولا لثم بالأشداق، كان شعورها في حالة مزرية. ثمة لحم حي يسعى إلى لحم حي، وتنفس مريض يسعى إلى تنفس سيداويه، ثمة سعر حقيقي يسعى إلى العضّ.

اعتدلت أمام أنظف مرآة في البيت كله، كانت تخبئها عن زينة الخروج العادي في البلدة، وتبرزها لزينة الخروج الهيمان. تلك التي تريها في العادة الوجه بلا شقوق أو تجاعيد، والجسد بلا معضلات عصية الحل، انتبهت لأول مرة إلى دوالي رفيعة تشقّ الساقين شقّ نهرٍ لصحراء، ولحاف من السهاد يزاحم الكحل في العينين، وغطاء من الجير وترسبات التبغ المهرب يستولي على شيء من بياض الأسنان. انتبهت إلى ثدييها المدورين، وبدتا لها أصغر من ثديي أي قطة، وإلى صياغة الصبغة في الرأس، والمانيكير على الأظفار، وبدت لها أحلى صياغة في القرن العشرين، وحين أرادت أن تكتشف أكثر اكتشفت أنها صبية ورشيقة الشحم، وطويلة إلى حدّ ما، وممتلئة بالطلاسم، لها شامة في الخد الأيسر، وحمرة داكنة في اللسان، وضحكة من

حرير، جربتها أمام المرآة، واقتنعت، ويمكن أن تلفت أنظار عشاق في الخدمة المدنية، والعسكرية، وعاطلين، وآخرين في أي موقع آخر من مواقع الحياة. اليوم بالذات حصلت على حسنات كثيرة: أعطت متسولاً ريالين، وصائماً من جيرانها فطورَ يومه، وجارة فقيرة رداءً من الصوف؛ فرّقت قروشاً بلا عدد على أطفال في الشوارع، منحت الغشيم كرو طبقين أكثر من مشبعين، من الفول المخلوط بالصلصة وشرائح البطاطا التي يعشقها، وحاولت إعفاءه من أي خدمة إضافية، بإرساله إلى المزرعة البعيدة ليراقب نوم الطيور، لكن الغشيم لم يذهب، تصنّع الذهاب، وغاص في الليل، قريباً من البيت، وفي داخله رغبة نبعت من وعي طارئ، لتتبع نوبة الاضطراب الفرح التي شاهدها في وجه سيدته.

اليوم بالذات بلغت سن رشد آخر، إنه سن الرشد الذي يدخل المرأة عنيفاً، ليس من كوة ضيقة، ولا نافذة صغيرة بستائر مسدلة، ولكن من الباب الكبير، يحولها إلى عطر مركز، وجلد مدبوغ بحنكة، و مكنسة من الشبع تكنس الجوع إلى آخر العمر.

أكملت زينة الخروج الهيمان إلى أبعد مدى، وأضافت بخة من عطر كوكو الخيالي الحالم، الذي تخبئه أيضاً لمثل تلك المناسبات، أعدمت رسائل لهواة تعارف ومراسلة، صادفتهم في العاصمة أثناء سفرتها الوحيدة إلى هناك، وأرادوا مراسلتها، بغضّ النظر عن أنها لا تقرأ ولا تكتب في ذلك الحين، و لم تقرأ رسائلهم إلا حين علّمها الغشيم القراءة. أنزلت خناجر هندوب الأثمني التي كانت لا تزال تطعن في حوائط بيتها، ودستها في خزانة قديمة تحتفظ داخلها بشيء

من الماضي، ولا تقترب من ذلك الماضي، إلا نادراً. أطفأت شمعتين كانتا موقدتين، خفضت من ضوء فانوس موقد أيضاً، وتسربت إلى الطريق، بكفاءتها العريقة، كفاءة حورية التي تصلح لصاً، وشرطياً، وناراً، وبرداً، وسلاحاً وغمد سلاح.

أمامها البلدة مطفأة، البيوت مظللة، والشوارع بارزة في الانطفاء والظل كأنها لغة على تخت، مشوارها الليلي لبديعة حسّاب في العادة مشوار للعسل، واليوم هو أيضاً مشوار للعسل، وكانت قد مضت سنوات طويلة جافة لم تمشه. شمّت في أحد البيوت رائحة تنفس رطب، وفي أحد الشوارع رائحة خبث رابض، وفي سبيل للماء تعثرت فيه رائحة صدقة كاذبة، طاردتها كلاب عاوية، وتمسحت على جسدها اللاهث قطط أليفة، وزغرد خفاش بالقرب من أذنها، لكنها لم تكترث، كأن خطواتها المنسابة إلى بيت بديعة حساب بلا أزرار، مفتوحة تماماً. في صرة مربوطة تحت أحد إبطيها كانت تربض أشياء الغريب طرية وتدغدغ الإبط بجنون، وفي ذلك البيت المنزوي عن تضاريس البلدة، نكايةً بتلك التضاريس، ستجود تلك الأشياء بالغريب نفسه بلا أدنى شك. كان الغشيم، بوعيه الطارئ، يتابعها في الظلام، يتابع خطواتها، وتعثرها، ويتمنى لو استطاع الظهور ليستبد في تلك الخدمة التي حرم منها، لكن وعيه الطارئ انهزم فجأةً، غيّر طريقه وانزاح إلى المزرعة البعيدة.

استقبلتها بديعة حسّاب استقبالاً يليق بعميلة ذات مؤونة محترمة وثقل غرائزي، لم تأتِ منذ زمن طويل، كانت تحب خاماتها الملتهبة، وتفرح حين تراها تخرج من عندها مشرقة الوجه، احتضنتها بقوة،

أجلستها على سريرها الشخصي، واضعةً تحت جلستها حصيراً من سعف أحمر، وتحت مرفقها الأيسر وسادةً ناعمة لا تلائم خشونة المكان. أمسكت بخامات اللعبة كلها، مصّتها بعينين تعودتا خطر المصّ، وفردتها أمام مقدرتها الفائقة. كان في الشعر المنتزع من قاع الرأس شحمٌ لزج، لعله من زيت أو ودق، وفي السراويل نكهة سوائل مخمّرة، وفي قطرتي الدم الجافتين على قطعة الشاش رائحة متفردة. اندهشت قليلاً من خبل الغشيم كرو، وخدمته المستبدة التي منحته شرف المجيء إلى مطبخها المهووس بخامات جيدة لأول مرة. حين حدثتها حورية بالأمر، قالت: آه يا غشيم! ورفعت حاجبيها وابتسمت، لعلها استشارت جنيّاً مختبئاً يساعدها في تقشير الطلاءات العصية، لأنها التفتت بقوة نحو ركنٍ معتم في المكان، تمتمت بسؤال ثم عادت، وامتلأت بشاشةً من جديد، لعلها اشتعلت بنار خفية مطلوبة بشدة في مثل هذه المواقف، لأن وجهها تفحّم فجأةً، صوتها اختنق، وصبّ من جسدها العرق.

أشياء الغريب الآن في قدر من النحاس بطول حائط، وضعت بدقة عالية، وترتيب خبير. بركت بديعة على ركبتيها أمام القدر ملقيةً بتركيز مدرَّب على محتوياته، شخرت مرتين، وبكت مرتين، نادت على سرب من طيور الجنة الملونة، وفوج من الجراد الصحراوي، وحمام أبيض بريش غزير، ينقر الحب تحت عمارة في العاصمة. عبد النبي سمارة، عبده كورة، من ضواحي دنقلا في الشمال، وج... وج، مدرس ابتدائي، وج... وج، أشارت بيدها إلى كماسرة للباصات في أكثر المدن ازدحاماً، ومفتشين تربويين، وعساكر مرور قابلين للرشوة،

ولاعبي كرة سابقين، وحكام وشهداء ماتوا في حروب عدة. قالت: يا بشير، ويا ضرير، ويا حمزة، ويا سيد النو، والقرشي، يا كباشي، ويا جقلب، وثور المحراث. وحين أرادت أن تصرخ بهستيريا العرّافات، التي اشتهرت بها، مدت للحضرمية قطعتين من الفلين ورداءً أبيضَ وقناعاً واقياً من لفح الذباب.

كانت تجربة عادية لحورية مصلح، اعتادتها بمزاج الشبق المتين، وتحضرها للمرة الثالثة في نفس المكان، دون ذرة من خوف أو قطرة من ندم.

علوب الحضرمي سلّمها لعابه الأحمر في منديل أبيض، عن طيب خاطر، حين دارت حوله، اشترت عدة زجاجات فارغة من محله، وحدثته عن دهان جيد لتجفيف اللعاب، يحتاج مصنّعوه إلى عينة، وجاءت باللعاب إلى مطبخ الهوس عند بديعة.

شاشوق رمز القوة، غافلته في عرض الرجولة الذي لمع به في سوق البلدة، بعد عودته من الميناء يائساً. قالت: أرني رجولة قدميك يا بطل، فمدّ إحدى قدميه، وكانت يابسة وشديدة المتانة. قصّت ظفراً مربعاً في إصبعه الكبير وجاءت به إلى مطبخ الهوس أيضاً، محبوساً في خرقة قديمة.

عبد النبي الغريب، كان صارماً، وبعيداً عن متناول رغباتها، ومن اختصاص الغشيم وحده. مزاجان التقيا مصادفةً ذات صباح عند تاجر البلدة المرموق، تعارفا واحتكّا، و لم ترد لهما أن يذهبا أبداً بلا ندوب. حضرت التجربة الأخيرة لسنّ الرشد الجديد، من دون أن تترك ذرة في عصير الليمون الذي قدم إليها تفلت من تذوقها، ومن

دون أن ترمش حتى عيناها، اللتان رمشتا أضعافاً أيام سجنها الوعر عند المغني قبر قبرسلاس.

ترى في أي طبقة من طبقات الهلع يرقد الآن قبر قبر سلاس؟

لو كان حياً إلى الآن لجروه مؤكداً إلى الخدمة العسكرية، صرفوا له زيّاً كاكياً وسلاحاً قديماً وشجاعة طارئة، ولمات في تلك الحرب العمياء في الجنوب، التي لم يعد منها أحد ليحكي.

علوب الحضرمي أيضاً مات، صادقه أحد الزوار الذي قدم من العاصمة، تعرف على غرائزه الهوجاء وما أصابها من الخلل، وأهدى إليه مقوياً من مقويات المتعة، قال: "هاك اكتشاف القرن، هاك الفياغرا"، استخدم الحضرمي تلك الحبات الزرقاء، من دون وعي أو إرشاد طبي، وفي ساعة من ساعات نحسه الكثيرة، فدلق لعاباً أحمر، ومات. شيّعوه بجنازة عادية، حضرتها الحضرمية باعتبارها زوجة سابقة، كان زيّها أسود، وحذاؤها أسود، كانت حناؤها سوداء، ولمعة المانيكير على رؤوس أصابعها سوداء جداً.

شاشوق رمز القوة لم يعد مرة أخرى إلى توافهه القديمة تافهاً عادياً، تأسره الميناء وسفن الرحيل والرافعات الصدئة، كبر في العمر وتهدّلت عضلاته، ويعيش في هدوء حذر في بيت أحد أقاربه، ولا يوحي أبداً بأنه كان زوجاً لواحدة مثل حورية ذات يوم. كانت الحضرمية تزوره أحياناً، تتطاول على يده التي ضعضعتها ذات يوم، تلاعبه لعبة القوة، وتهزمه وتنتشي.

هندوب عيسى الأئمني في ذمة لا أحد، هو الوحيد الذي قد يعود ذات يوم كفيفاً، أو عصبياً، أو أبيض الشعر، ليبرك على ذكريات

متخمة بالفروسية والشعر وفحولة الصحراويين التي لا بد انطفأت منذ أمد بعيد. نهبته قبائل الجن في عراء السفر، بحضور ثلاثين مسافراً آخرين، في ليلة احتفاء نادرة، لا بدّ قد ندم، لا بدّ أغمض عينيه مراراً، وتذكّر حورية الحب؛ نعم حورية الحب التي توسّد عواطفها ثلاثين شهراً ثم مضى في لحظة تفاهة إلى ذمة لا أحد، بائع الترمس والآيس كريم عند بوابة مستشفى الذرة في العاصمة، يا للتفاهة وقصر النظر! لو امتلكت أجنحة في وقت استلامها رسالة الرحالة حاكم عذابو السخيفة لطارت إليه في أي بقعة يوجد فيها، وقرصته في خدّ ذاكرته التي كانت بلا أخلاق.

حضرت طقوس بديعة حسّاب المهووسة المقتدرة حضورها لطقوس ولادة طبيعية حين كانت صغيرة في أيام سجن المغني قبر قبرسلاس، تمنت لو تحولت إلى داية، كانت داية البلدة في ذلك الحين تعجبها، سعيدة المحترمة، بردائها الأبيض وعينيها العسليتين وشامتها اللطيفة على الخد وصوتها الزاجر والمشجع معاً في لحظات هرج المخاض، تعجبها، أخرجت عشرات الرؤوس إلى المجتمع، من دون أن يخرج من رحمها رأس، ولم يكن لها قبر قبرسلاس كريه ليعبث بحياتها ويحيلها إلى جثة. الآن، لا قبر ولا علوب ولا أتمني ولا شاشوق، ولا إعجاب نيء مراهق، فقط ظفر الشمال الذي سيجرح جلود المتعة إلى أقصى حد.

وهي عند الباب، استدارت مرة أخرى، همست:

– الغشيم يا أمي الكبيرة؟

– ماذا به؟

سألتها طاهية الهوس وهي تضع يداً دافئة على كتفها.

- أخاف أن يؤذيني إن استغنيت عنه ذات يوم.

ضحكت بديعة حساب، كانت أسنانها تلمع ببريقٍ مخيف، وجسدها يرتجّ مشاركاً في الضحكة. أمسكتها من يدها، قادتها إلى ركنٍ معتم في البيت، وكان ثمّة قدر صغير موضوع على نار خامدة، مما يبدو أن ثمة ضغينة أقل شأناً قد طُبخت في شأن الغشيم، قالت:

- لم أكن بحاجة إلى تذكيري، كل ما يمكن أن يرضيك أعددته. اذهبي يا عروس العرائس، لن يؤذيك الغشيم أبداً. اطرديه من الآن إن شئت.

- لا... لا يا أمي الكبيرة، ليس الآن.

همست وابتسامة أشد غموضاً من البحر تراقصت في فرح شفتيها.

خرجت من عند بديعة حسّاب عروساً فعلية، لأن خجل العرائس داهمها بشدة، وانكسار طرفهن داهمها بشدة أيضاً، فكّرت في عطر جديد وفستان أبيض وطرحة بيضاء طويلة وحيل متطرفة لإكمال مشروعها حتى النهاية، وتخيلت الأقاويل المحلية التي ستتناقل أخبار اشتهائها وصيدها وزواجها المرتقب، وابتسمت بعمق.

كان الليل في شهقته الأخيرة حين اقتربت بخطواتها الفرحة من استراحة الحكومة، حيّتها بودّ، وهمست في آذان حيطانها الخضراء همسات كثيرة هائمة، قبّلت راحة يدها اليمنى، ثم كورت القبلة المتخيلة، ألقتها إلى داخل المبنى، وللحظة خُيل إليها أن الغريب تلقّاها، لأنها سمعت عطاساً وهرجلة وتنهدات حب تفور من الداخل. ابتعدت بسرعة، لا تتلفت خلفها. حين عادت إلى بيتها أخيراً كان

الليل قد انطفأ تقريباً، وكان الغشيم هناك، مستبدّاً في غليانه الصباحي، انتهى من حلب العنزة وتخليص جثث الثعالب من الشراك المنصوبة، أعدّ الشاي، وأوقد البخور، وأدّى نيابةً عنها صلاة استخارة. لم تنتبه إلى مسألة المزرعة التي أرسلته إليها، ولم يذهب كما يبدو، أمسكت بكتفيه وضمّته إلى صدرها لأول مرة، وكانت، في الحقيقة، تضمّ روحاً أخرى.

-١٨-

الآن كل شيء في بيت الحضرمية يُعدُّ بخبل وخطوات متسارعة. منح الغشيم كرو فقرة مستبدة جديدة في خدمته الطويلة، عشر سنوات كان فيها مرافقاً أصيلاً لتقلبات سيدته كلها، لم يتزحزح سوى أشبار قليلة. شمّر عن ساعديه وسراويله وهياجه، جدّد طلاء حوائط البيت كلها، غسل الملاءات وأغطية الوسادات ومساند الجلسات كلها؛ نظف البيت من حوشه العريض إلى غرفه، طرد أي جرذ وجده وأي صرصور وجده وأي نملة مغرورة كانت تتباهى بالدبيب أمامه، لمّ مساكن الأرضة من خزائن الخشب، وبقايا الدهون من الحلل والأطباق، وديدان الأرض من عمق الأرض، والذباب المزعج من جو النظافة العام، عجن ودقّ الشعر المعطّر، والحناء، وصاغ من الخامات التي زودته بها الحضرمية عطور الشبق الليلي المعروفة في الأعراس، وبلغ من استبداد خدمته أن ألّف أغنية عرائسية محشوة بالتفاصيل الغريبة، واستخدمها كوقود منشّط لخدمته، تماماً مثل تلك الأناشيد التي يردّدها العساكر وهم يركضون في الصباح، وكتب رسائل تهنئة بالوفاق العربي، ودحر التمرّد في الجنوب، والعام الهجري الجديد، باسم عبد النبي سمارة

وحرمه حورية مصلح، وذهب بها إلى مكتب البريد المتواضع طالباً إرسالها إلى رئيس الوزراء.

كان يعمل كثور ويأكل كجرذ مسعور، يتسلق الفرصة الفريدة لخدمته بعطش لا يرتوي، كان يضحك أحياناً، يبكي أحياناً، يتشاجر مع ظله في الحوائط أحياناً، وأيقظ التعاسة القديمة لدى عدد من الحضارم كانوا مرابطين في البلدة ولا يزالون، رغم انطفاء لمعتهم القديمة والكآبة المسيطرة وشلل في الرزق، أمسك بتجارتهم وزراعتهم مؤخراً، أجبرهم مهدِّداً على تمويل الحفل من رأسه إلى قدميه، واختراع وجوه مبتسمة، وأزياء نظيفة، ووقفات بلا رعشة يقفون بها في ليلة العرس المرتقب. ذهب إلى قبر مصلح صفوان الحضرمي، الذي كان مجهولاً وسط قبور مجهولة، عرفه من انبعاج في تربته وسيل من البصاق واللعنات كان يغلفه. ترحم على الفقيد بتهور، وأبرّ رقدته بباقة من ورد زنبق الصحارى. وسافر إلى الغجر الذين كانوا يبثّون فوضاهم الآن في بلدة أخرى مجاورة، ربما حول مغرّد جديد خارج سرب جديد، حيّاهم باحترام، قبل حطام زعيمهم المعتزل سمعان رستم، وسلّمهم بطاقات للدعوة نسقها بيده على غرار بطاقات التموين الحكومية. جمع، في عدة ساعات فقط، مئات الخيبات والانكسارات والأظفار المقلّمة، ودسّ في مفكرة البلدة اليومية أعرافاً جديدة لمنظمي الأفراح سيطبقها الكثيرون فيما بعد. فكر في الإنارة والشبع وبساط المخمل الذي سيسير عليه العروسان، وفكر في دعوة الرحالة القديم حاكم عذابو، الذي كان يشغل الآن منصب وزير السياحة في حكومة شكّلت على عجل، ثم طرد الفكرة من رأسه حين أحصى أقدام حاشيته،

كما تخيلها، وعيون رجال الأمن الذين يحرسونه، والتي قد تفسد أناقة العرس، تحوّله إلى ميدان للتلصّص، وفي دعوة طاهر عائشة، اختصاصي الزار المتغطرس، الذي جاء به ذات يوم، ثم عاد وألغاه حين تذكر أن رقصات الزار المتوحشة تلائم هستيريا العازبات أكثر ممّا تلائم عروساً في ليلة الفرح.

كان عبد الله الخضر، المهاجر الشمالي القديم، قد عُيِّن مأذوناً في البلدة منذ وقت قصير، بناءً على حلم رأى فيه البلدة كلها عريساً وعروساً وأنهاراً من العسل يغرف منها الجميع، وبمساندة وإلحاح من عمد ونظار ومشايخ فسّروا حلمه تفسيراً يتماشى مع مفردات البيئة. كان يحلم بعقود القران، وقسائم الطلاق أيضاً. يمشي في البلدة مسوك الأذنين، يشمّ في كل صرخة أنثوية تصدر من بيت رائحة طلاق وشيك، وفي كل غزل منكود يندلق في الطريق رائحة عش سعيد سيبنى قريباً، وكانت عدّته، من دفتر وختم وتوقيع ابتكره خصيصاً لتلك الوظيفة، في طور التجريب لا تزال، جرّبها في تزويج ناقة من جمل، وقطة من قط يهواها، وفي تطليق حمارة من جحش يصغرها بعدة أعوام، ثم جاءته الفرصة الكاملة بغتةً حين اقتحم الغشيم تجاربه ووظّفه عاقداً للقران في الزواج المتآمر الذي سيتم قريباً.

كانت أبرهيت الحبشية هي ماشطة الشعر الأكفأ يداً في البلدة، جاءت بصنعتها الراقية في زمن كان الرقي فيه وصمة عار، وتزيين النساء بلفّ شعرهن بالشرائط الملونة أشبه بنزع فساتينهن عن الأجساد وتركهن عرايا. عاشت في البلدة معذبة من بوار صنعتها ومطاردة الكثيرين الذين وجدوا في شخصها امرأة جديرة بالمطاردة، وتحلت

بالصبر حتى اعترفت البلدة بيديها حين تقدم الزمن وسقطت كثير من المعتقدات القديمة. في أيام كثيرة كان الغشيم كرو يأتيها، يمتص الطرق المبتكرة لتمشيط الشعر من عندها وينزفها على رأس سيدته. كانت تنساق لخبله، تعلمه أشياء وتدسّ عنه أشياء، وحين جاءها في ذلك اليوم ساعياً وراء تميز لشعر سيدته في ليلة العرس، أكرمته بصدق، زودته بتصميم تسريحة "لَمّ الشمل" الذي وصل حديثاً من إثيوبيا، وسرّبه المهربون من ضمن سلع التهريب. قالت: مع تمنياتي الخالصة لحورية مصلح.

أخيراً انتهى الغشيم من كل شيء، غسل يديه وعينيه ولسانه، واستعد لالتهام طبقين من شرائح البطاطا والفول المخلوط بالصلصة، والاتكاء على ساق حمار ربطه على مقربة، ثم صدر القرار البيتي المباغت بترقيته من خادم إلى ولي لأمر العروس، لا يشبه أولياء الأمور إلا في الشوارب المتأزمة، وفي إصرار العينين أن تظلا ضارّتين. نادته العروس، المجهزة لليلة العمر بمئة حيلة، نداءً جديداً، عامراً بودٍّ جديد، سلّمته زيّاً نظيفاً، وعطراً عصرياً اشترته من شاطر، وعلبة من الفازلين لترطيب شعره، ودبوسين من الذهب المغشوش لأناقة قميصه. قالت: يا غشيم، منذ اليوم، أنت ولي أمري الجديد، اذهب الآن وتعدّل واستعد.

ضحك الغشيم واحدة من ضحكاته المعقدة، تلك التي تلمّ بداخلها رطانةً وبكاءً واحتضاراً بشعاً، ولم يضحك بها من قبل إلا حين قرأ دساتير بعض الدول، أيام وجوده في السجن. تلقف ولاية الأمر بامتنان متهور، وارتداها على الفور، لدرجة أنه نسي جوعه ونعاسه

المهيمن، وانتقد نقوش الحناء في قدمي سيدته المبهرجة، وكانت قد نقشتها بنفسها. قال: الورد ليس منسّقاً كفاية، والقلوب المنقوشة تشبه بعر الحمير.

-١٩-

في استراحة الحكومة كانت الغيبوبة المسيطرة على الغريب تأخذ مجراها الطبيعي، والتلبية التي لبّاها تتحول إلى فعل. نجحت المهمة الشبقية نجاحاً أخرق، وبقيت بديعة حسّاب، الطاعنة في العنوسة والمدورة الساقين من أثر داء فيل قديم، تكمن في النتائج باسمة وراضية، منذ عدة سنوات لم تقم بمهمة نظيفة كتلك، مهمة بأقل قدر من العورات وأكبر قدر من الترف، جعلتها تضجّ فرحاً وتغلق مطبخها المهووس في إجازة مفتوحة.

منذ الصباح الباكر هبّ الغريب إلى لحيته الثرية، أفقرها بعنف، وحوّلها إلى لحية مراهق، إلى شاربه الغزير المطور، أخّر من تطوره كثيراً، أعاد التنقيب في جسده أمام مرآة تالفة، وصمم على ترتيق فتاق في السرّة، وحشو ضرسين تالفين، في أقرب زيارة له للمدينة. التقط كتاب الطهو الأرستقراطي المعقّد، قلّبه برقة، واكتشف أنه يملك كنزاً، تذوق وصفة فطر المشروم المهروس بالصلصة بشدة، وحلم بلحس قاع الطبق، أحب وصفات الفستق والكاجو بالأرز البسمتي، وشرائح الكيوي والأفوكاتو، وعجينة الفونتي المضافة إلى

الكريم باتسيار، تسلل بجسده إلى زيّ واسع جديد، استلمه مساء أمس بصفة مستعجلة من الخياط مستر جبريل الذي أخذه إليه شاطر، وكان قد خبّأه في قاع حقيبته تحسّباً لمناسبات قد تداهمه في البلدة كالموالد والأعياد والأعراس، ولم يكن يدري أنه زيّ عرسه المتآمر، تعطر من عطر كان يملكه، ولم يكن عطر "بولو"، منشط التعصب لدى مشجعي كرة القدم. أمضى عدة دقائق مستغربة وهو يتصفح صوراً لعيال متّسخين وجدها في ذاكرة محفظته، ودقائق أخرى مستلذّة أمام طائرين عاشقين من طيور الجنة الملونة، وحمامتين تضخان الهديل، وصفوف من أشجار المسكيت المالحة شاهدها تتمايل أمام نافذته، وعندما فكّر في شاطر، تاجر البلدة المرموق، والمحجوب، صائغ العرائس، لم يفكر فيهما كصديقين تستوجب استشارتهما في هذا التبدل الطارئ، ولكن كمهاجرين شماليين يشاركانه الامساك بالإصبع الكبير للهجرة. لم يتذكر أي امرأة، سوى تلك التي كانت ترتعش في السوق ذلك الصباح، وعضّ على شفته بحنق لأنه لم يقدّرها حق قدرها حين كانت متوفرة أمامه. وفي اللحظة التي فكر فيها في الخروج، ومحاولة الاستدلال على بيتها ليصارحها بودّه، شاهدها أمامه وارتبك. جلست بجواره مشجّعةً وباسمةً وعارضةً خفقان العرائس كله، وضاربةً عرض الحائط بكل أعراف المجتمع القروي الذي لا يمنح امرأةً حق زيارة من تحب أبداً. كانت تحمل طعاماً مقويّاً وشاياً بنكهة النعناع في تيرموس صغير، وتحمل عينين تشعّان ودّاً وحرارة، وألبوماً لصور رمادية تمثلها في مراحل مختلفة من سن الهياج. ارتمى في أحضانها باكياً، كان يعرفها بالفعل، يعرفها ربما

أكثر من عشرين عاماً، واستغرب بشدة أكثر كيف أهملها في ذلك الصباح وهي بتلك المغريات. أراد أن يتذكر مجيئه إلى البلدة، متى كان ذلك؟ لا بدّ أنه من سنوات طويلة، لكن كيف استطاع أن يعيش بلا امرأة كل تلك السنوات؟ فجأةً نادت على خادمها الغشيم كرو الذي كان يربض عند الباب، متهيّجاً عجلاً للحظة مناداته، قدمته إليه بوصفه وليّ أمرها، وبدا في تلك اللحظة وليّاً حقيقيا للأمر برغم كل علامات التناقض التي كانت تكتسيه، لم يعرفه أبداً، ولا خطر لذهنه المجمّد عند بديعة حسّاب أنّ ولي الأمر هذا إنما هو معتوه القيلولة الذي سرق الشعر والسراويل وقطرتي الدم. لم تكن في الأصل حكاية كتلك قد حدثت، هو هكذا، شعره محفور في الوسط، وذلك الجرح الذي في جلده لعله نتج عن إصابة ما. لقد قامت بديعة حساب، المرأة التي تقتسم الحريق مع النار، والحموضة مع مهيّجات الحموضة، بالمهمة خير قيام، نظفت ذاكرته من كثير من الشوائب، تركت له بعض ذكريات الشمال المراهقة والصبية، ومؤهل التدريس، وصحبة شاطر والمحجوب، واحتفظت بالباقي في مطبخ الهوس. وحين ذهبت حورية أخيراً، بعد إتمام خطبتها وتحديد موعد الزفاف، الذي سيكون مساء اليوم نفسه، انساب في الشوارع بسلاسة، يحرّكه وقود غامض، ويحسّ بوجود المتعة إلى جانبه، ويكاد يتحدث إليها، تعرّف على الشوارع بعينين جديدتين، وصافح أشخاصاً نادوه يا أستاذ، يا عبده كورة، وفي لحظة من لحظات الهيام القوي أغمض عينيه وقبل المتعة التي ترافقه في المشي.

في المدرسة الابتدائية كان الجميع قد عرفوا بسقوطه، واستثمروا

تلك المعرفة بعيداً عن المساس بما يمكن أن يغضب الحضرمية، أو يشعل ضغينة الهوس عند بديعة حساب تجاه أحد منهم. قيدت حصص العلوم والدين والجغرافيا إلى وتد التأجيل حتى ينجلي الأمر، واستبدلت أوقاتها بحصص الرسم والجمباز، وسط تلاميذ مهللين، يسرّحون شعرهم بموضة عبد النبي سمارة، ذات الحفرة في وسط الرأس، يدهنون أجسادهم بصبغة الجنشن البنفسجية في مشاركة خائنة، ولكنها ليست ضارة. دخل الغريب المدرسة، فهنّأه الزملاء وقدّم له مدير المدرسة موافقة فورية على إجازته التي يحتاجها من أجل الزواج وشهر العسل، من دون أن يقدّمها حتى. قُدّمت التهنئة مقدماً، في شكل ورود من زنبق الصحاري داخل برطمان مشجر، وحين أراد أن يدعوهم إلى الحفل المسائي البهيج أخرجوا بطاقات الغشيم، التي تشبه بطاقات التموين الحكومي، وحركوها أمام عينيه. كانت مكتملة حتى في التوقيت ووصف المكان وآيات خلق الأزواج من الأنفس للسكون والرحمة، ومنتهية بالعبارة الأشد مللاً وتكراراً في كل زيجات الوطن: العاقبة عندكم في المسرات.

كان شاطر، الذي وصلته بطاقة الدعوة أيضاً، وتورّم قلبه، قد اختفى من ذاكرة السوق في ذلك النهار، اختفى لدرجة أن أصحابه غربلوا سكك البيع والسمسرة، وتتبعوا آثار المهربين، فلم يجدوه. كان قد خاف من ورم قلبه، وخاف أن يسعى بقدميه إلي بيت الحضرمية، ويقتلها بلسانه، ويساهم في محو تجارته إلى الأبد. تتبع سكة البرّ راكباً عربة قديمة استأجرها، و لم يعد إلا في المساء، حين خفّ الورم، وأصبحت تجارته في مأمن. المحجوب كان متأثراً،

لكنّ صائغ العرائس لن يتبع إحساس أزمة أبداً، ولن يبرح دكانه إلا إلى ساحة العرس، وأمامه الآن أفكار جيدة يريق فيها تأثره ويصنع المستقبل. عمل بجد على أسورة وعقد وأقراط طلبتها الحضرمية لزفافها، سيسلمها آخر النهار، كان يردّد في سره بين حين وآخر: ما علينا... نحن تجار، ولسنا ضمائر.

-٢٠-

عرس الاشتهاء الشبقي المتآمر ألذّ عرس في البلدة منذ أن وجدت الأعراس، برغم إقامته بتعجل شديد، فاق أعراس التجار وملاك الأراضي وعمد القبائل والمهاجرين المشتعلين بالوجد، الذين يعودون بعد غياب طويل خارج البلدة بالنعومة والحقائب الممتلئة واللهجات المتحضرة، ليتزوجوا من الغيد الحسان.

ألذّ عرس في البلدة منذ أن وجدت الأعراس بلا شك. لم يقل أحد ذلك لكن الوقائع تقول:

مولد الليستر العملاق بطلائه الأخضر المميز، وكهربائه النظيفة، والذي جاء به الغشيم من أحد التجار، وأضاء مساحة الحفل في ليل البلدة، ليحولها إلى مساحة نهار صريح واضح القسمات.

الحمير الكثيرة المربوطة في ذيل العرس، بيضاء وسوداء ومتناسقة لون الجلد، والتي كانت تأكل بطرب وتنهق بمتعة، تحب وتغازل، وفاقت في ضخها البعر حمولة عدد من الشاحنات.

الخراف والثيران التي انتقاها الغشيم باستبداده من حظائر الرعاة وزرائب تجار الماشية، والتي نُحرت وعُلّقت من عراقيب الذبح

وطُبخت، وأشبعت الكائنات التي في البلدة كلها بدءاً من الإنس إلى الجن الذين كانت أصواتهم مميزة وهم يمصّون نخاع العظام ويقضمون الأظلاف حتى القرف.

النساء الممشطات بإتقان برغم العجلة، بضفائر الشعر المستعار وعقود القصدير وأساور العاج المزيف والخرز، وعطر الشاكوين المحلي الذي يصنع من نبات الريحان، ويسيطر على تذوق العطور في البلدة، والمضيئات بابتسامات شهية احتلبنها من قاع القلوب، وأطعمنها الحضور المتعطش، بطيب خاطر.

المغنون الذين جاء بهم الغشيم، إما من عزلتهم، إن كانوا قد اعتزلوا، أو لمعانهم، إن كانوا ما زالوا لامعين، جاءوا بألبستهم الحضارية وأجسادهم الرشيقة وطبقات أصواتهم المختلفة. كان يطمح في الفرصة الفريدة لخدمته المستبدة أن يطرب حتى أذواق الغجر، والجلفين والصم والبكم، وإخوانه المجانين الذين جمعهم من البلدة والبلاد القريبة المجاورة، ووظفهم كورساً في الغناء أو مصفقين أو مضيفين، أو في أشدّ أحوال العلة تعقلاً كانوا يطرون الزينة النسائية التي أهملت من فرط الشبع وتشتت الأذهان:

في المغرب ولاد ناسا شربنا الشاهي
كبينا الغنا، وعشق البنات يا باهي
جن مثل الربيع في سيسبانه الزاهي
وجات حورية بت مصلح قمر والله

في المغرب ولاد ناسا شربنا القهوة
كبينا الغنا وعشق البنات يالسهوة
جن مثل الحرير ناعمات نعومة الرغوة
وجات حورية بت مصلح جليلة الخطوة

حياها الغنا وقال مرحبا حورية
وصفقت الربابة المن زمن مكوية
وينك يا غشيم، ستك عروس بي مية
ووينك يا غريب، لابس العسل طاقية

أناشيد المدح، والدفوف، وسخونة الزغاريد، وتلاميذ المدرسة الابتدائية بالرؤوس المحفورة في القاع، وصبغة الجنشن البنفسجية، والذين تجلوا بصدق، قدموا أوبريتات مثل: "البدو أحباء الحضر" و"دنقلا في قلبي" و"يا سائق تمهل" و"من كدّ وجد"، وأحاطوا بالعروسين إحاطة علمية صرفة، رسموا فيها صخور البازلت بجماجمهم اليابسة، ومثلوا خروج الفرخ من البيضة، ودفن النعامة لرأسها في الرمال، والتحام الأكسجين بالهيدروجين لتكوين جزيء الماء واهب الحياة للكائنات. كان معلمو المدرسة الابتدائية، زملاء العريس، هم الكبار الذين يدلون ويرشدون وينسقون الغوغائية. الغجر، أصدقاء الفوضى، منحوا فرصة العمر الكاملة لإيقاد فوضاهم، وبيع أواني النحاس والألمونيوم، وحلاقة شعر الحمير وتقليم أظفارها، وإحياء رقصة "الوز-وزو" الغجرية بعد أن كادت تندثر. رتقوا زعيمهم

القديم المعتزل سمعان رستم، ألبسوه نظارة طبية، ووضعوه في قلب الشبع، يحبو ويبتسم ويشير إلى كتفه اليمنى حيث يرقد وشم لم يعد يرهب أحداً من أتباعه. والحضارم أكرموا بترف خاص، حين استلب الغشيم دموع أعينهم، وعينهم عكاكيز مخملية يتوكأ عليها النسيان.

العمد والنظار ووجهاء القبائل، الذين كان بعضهم معمّماً وبعضهم يرتدي الزي الإفرنجي، والذين ارتجوا بعنف، قرروا في تنفس واحد سلس أن يستغنوا عن حريم مشاكلهم القدامى بالكامل، ويغربلوا الأرض بحثاً عن حوريات باهيات يشبهن حضرمية الاشتهاء في دلعها ودلالها وكحل استفزازها وموقفها الأقرب إلى مواقف الطبقة الراقية، حين أطعمت الشمالي العريس أمام الجميع من ملعقة شفتيها شخصياً، مبعدةً يديه النظيفتين عن وسخ الدهون والنشويات وما شابه ذلك.

مراهقات الريف ومراهقوه، الذين استغنوا عن أي خيال مسائي معتاد، وتبادلوا من دون حذر لغة العيون والأيدي، والرسائل، وحصلوا من بعضهم البعض على قلوب مرسومة بالحبر، وأشواق من النار، وطواقي وولاعات، ووعود مؤكدة بالوصال.

حراس الحدود اليابسون، الذين قدموا من شقاء الخدمة المرابطة خارج البلدة، فتحوا رئة الحدود قليلاً، وسمحوا لعدّة سلع من سلع التهريب بالتنفس، وعدة سفاهات وطنية وغير وطنية بتبادل الزيارات، ثم قدموا إلى العرس جوعى وعطشين ومنبهرين ومشاركين في البهجة النادرة بالرقص والغزل وغناء الأناشيد العسكرية، وإطلاق رصاصهم العجوز في الجو من حين لآخر:

في إيدي سلاح... أي والله.
في قلبي كفاح... أي والله.
شقيت الليل... أي والله.
وخجيت النيل... أي والله.
التومة هناك... أي والله.
عندها تنباك... أي والله.

تجار الريف، الذين أبهجهم العرس الشره في التهامه للبضائع، نضبت معلباتهم وأرغفتهم، واختفت سلع الفحم والكبريت والبخور من تجارتهم، أغلقوا الدكاكين في نشوة، وأتوا.

بديعة حساب العرافة نفسها، والتي كانت متأنقة في ثوب من فراء ذئب وعقد من أسنان ضبع، وتضع على جسدها عطراً استخلصته من لبن بهيمة ولدت حديثاً، في أول ظهور علني لها في البلدة منذ خمسة عشر عاماً، كانت وحيدة، وفي إجازة مفتوحة، وتتنزه بعينيها في فداحة العرس الآثم، باسمة وراضية، وكان عفاريتها الذين شكرتهم على حسن سعيهم، ومنحتهم إجازة أيضاً، يطلون من وقت لآخر، يمصمصون عظماً أو يخيفون كلباً أو يتحولون إلى مكبرات للصوت تحمل صدى الغناء إلى أماكن بعيدة. خصّتها الحضرمية بسلام خصوصي، وخصّت الحضرمية بخدمة إضافية تمثلت في النظر المتأني إلى عيني عريسها، إمعاناً في غرسه أكثر. وكان من شدة اكتظاظ المكان أن لا أحدَ خاف منها، ولا أحدَ استعاذ من الشيطان ساعة ظهورها.

كان الغشيم كرو موجوداً في كل شاردة وواردة، متأنقاً بزيه

العصري، يلمع دبوس الذهب المغشوش على ياقة قميصه، كان محقوناً في ابتسامات الضيوف وجريرة الشبع الكثيف، وراكضاً بين الغناء والتصفيق، كان صوته مشؤوماً حين غنى أغنيته العرائسية التي تصف العروس وصف هرة أليفة، واختار عدداً من أصدقائه المجانين ليصفقوا ويرددوا الغناء من خلفه، وكانت مياه شبيهة بدموع الفرح تتساقط من جنون عينيه. توسّط مائدة عقد القران حتى رُفعت، ودسّ في يد المأذون عدة قروش كانت كافية لاستفتاحه الحقيقي.

كانت مفاجأة الحفل هي انضمام ببغاء مزركش إلى استعاره، أحضره زائر من العاصمة وألقى به في وسط جوقة الغناء، مربوطاً بخيط طويل، ليرطن ويصفق ويوزع البهجة على الجميع.

كان شاطر والمحجوب هما فانوسي الحفل المنطفئين بلا منازع، أدّيا واجب المؤازرة لصاحبهما الشمالي العريس بتعجل لم يحدث لهما حتى أيام حظر التجول الشهيرة، في أعقاب انقلاب عسكري دموي بعيد، حين كان حراس الحدود اليابسون يشمّون رائحة الثورة حتى في خاتم منقوش وعلبة مربّى واستياء حمار، يسدّون مداخل السوق القروي ببنادق الطبنجة وأسلحة الآر بي جي والكلاشنكوف، ويردمون هوة الربح بجنون. أدّيا واجب المؤازرة بإخلاص متأزم، وصاما عن الفرحة والشبع والكلام المثالي المجامل، وقالا للعريس وهما يدسّان في جيبه عدداً من الجنيهات وأكياس التنباك العماري وصورة كئيبة لنلسون مانديلا أيام مجده في السجن: Hard luck.

كانا منطفئين وخشنين بالفعل، أعينهما كأنها مستنقعات رماد، وأكتافهما كأنها أكتاف نوق صحراوية، أديا واجب المؤازرة الأخير

بلسع الحفل بأقسى تجهم في المظهر والمحتوى وتبعثر الدم، ثم غادرا مهمومين ليلعبا "لونا" فراغية قاسية.

مضى الحفل مزغرداً، بلا مشادة واحدة، ولا أي نشاز أو زفارة كلامية، يتبادله المغنون والمادحون والسكارى وراقصو الهستيريا والجن وحراس الحدود، وعدد من النسوة أبدين رشاقة غاية في الأهمية، وظفنها في الرقص. وتبدو العروس في وسطه خزانة للفرح بحجم بلدة، لم تنضب من الابتسامة أبداً، ولا من إطعام الحلق للحلق أبداً، يلقحها المهنئون بالتهنئة، والمغنون بالقصائد المادحة المرتجلة، وتحذو الفتيات الصغيرات حذوها حين تهمس أو تضحك، أو تعري الضفائر الممشطة بتصميم لم الشمل المهرب. وحين انتهى، بعد أن وصلت رجة الطبول وأصوات الغناء والتفاؤل إلى هوة سحيقة في الإشباع، صدر القرار الأشد تقطيعاً لنياط القلب، ذلك الذي يقضي بإعفاء الغشيم كرو شاويش من ولاية الأمر التي تقلّدها لاثنين وعشرين ساعة فقط، وطرده من البيت، وإبعاده من جو الأحلام الجديد بلا رجعة. أصدرته حورية مصلح، وهي في الدرك السحيق من النشوة، حين كانت القطط تموء بتكاسل، والكلاب تنبح برقة، وثعالب البر وذئابه تمد ألسنة الشبع للدجاج، والسكارى يتحسسون الطرق إلى أسرتهم ومخادع نعاسهم. أصدرته من دون أن تلقي أي ذاكرة ولو عجلى على ذلك السجل الخدمي الفادح ذي العشر سنوات مستبدة، كانت بين دفتي نهر شمالي في فيضان مدمر، تغطس، وتقلع، وتتهدم من رأسها إلى شقوق قدميها.

-٢١-

عسل ضبابي متآمر يضخ من نحل أربعيني ثمل.

تلك السمة الفريدة، ذلك الرداء المفضوح المخصص لإحياء المتعة لا لنومها، ودق الكركار المحلي الملين للشعر، والشعر المصبوغ بصبغة بيجون، ومساحيق التجميل المهربة من ماركات ويللا وشانيل، عطر كوكو الخيالي الحالم، ومزاج سجائر الكنت المهربة، ومغريات الأنثى التي تغري بإتقان وهي تطرق أبواب سن اليأس.

افتتحت حورية بدايات شهر العسل، الذي فضلت أن تقضيه في بيتها، بالشهقات. التزمت بكل مضاعفات الاشتهاء التي وقعتها بمداد سن الرشد الجديد، وبقلم الضغينة العنيف الماكر في بيت بديعة حسّاب. نفضت لقب سكر البيت المستخدم أيام هندوب عيسى من غبار الزمن، أعادته إلى الخدمة من جديد، والتزمت بتشتيت ذلك السكر في كل ركن من أركان البيت، حتى وهي نائمة في العمق البعيد للنوم، منعت صداع الشقيقة البربري من اللجوء إلى رأسها طلباً لأي مأوى، وبخور التيمان الرخيص، ذا الرائحة النفاذة، من العربدة في مباخرها تحت أي ظرف، وأفسحت لبخور الصندل

الظليل مسام مباخرها كلها. سلطت ضوءاً ساطعاً على شامة في الخد كانت صغيرة ولا ترى بسهولة، كبّرتها بقلم الكحل، قاطعت أغنيات الهجر والنزيف والعواطف المشروخة التي كانت تبثها الإذاعة الوطنية، واستبدلتها بأغنيات الجاز والريقي الموجودة في أشرطة كاسيت اشترتها، وبأصوات غاية في التحليق، سعت إلى إبراز سن الذهب في مقدمة فمها بلمعان لائق، وحمار اللسان في فوهة ذلك الفم أكثر ممّا ينبغي، سعت إلى إسكات هياج الدوالي الرفيعة في ساقيها بجورب شفاف، وغسل ترسّبات التبغ في أسنانها بالفحم، وإلى حشو ثقبي أذنيها، اللذين تعذب الغشيم بسببهما مراراً، بأقراط الذهب التي أنجزها المحجوب في يوم العرس. صغرت عشرين عاماً في نظر مرآتها، وفقدت ستة كيلوجرامات حقيقية، وجرؤت عيناها على الخجل وكسر الطرف في معظم ساعات اليوم، وحين كان سوء الهضم يتمرد على أوامرها الطاردة للعلل في تلك الأيام الخصبة، وينكتب تافهاً بعد عشاء كثيف، كانت تحول البطن المنتفخ إلى وسادة ناعمة ينام عليها العريس المسكين.

كانت الدلتا المحيطة بنهر المبروك الموسمي هي الوعاء الأنظف لريّ العواطف في البلدة، خاصةً في أيام بزوغ الذرة وتفتح لوز القطن، تغشاها الصبايا لاستيراد أحلام اليقظة، وينفق فيها المحبون ساعات جليلة هي أجل ساعات الهيام. وبناءً على هذه السمعة أخذت حورية عريسها الشمالي إلى الدلتا مراراً، سقته من وعائها النظيف، كان يشرب بلا عطش حتى ينتفخ بالعواطف، وحين يرجعان إلى البيت تبرك على ركبتيها أمامه، تمصّ عواطفه، وتدلقها في قلبها.

عسل ضبابي متآمر يبثّه نحل أربعيني ثمل.

تلك السمة الفريدة، ذلك العرق التربوي الصارم، المحبوس بفداحة في بيت بديعة حسّاب، ذلك الأنين المتقن، والنسيان الفذ، والتهاب القلب المخصص له وحده.

كان الغريب سخياً في عواطفه بشدة، التهب بلوثة الحب حتى أتقنها، محذوف من خارطة سابقي الزواج، وأرباب الأسر الفقيرة، والمهاجرين الذين يمسكون بالإصبع الصغير للهجرة، ومضموم إلى عقد الاشتهاء المتين، يحكي باختصار غير مألوف في أبناء جيله، جيل ما بعد الاستقلال، لا يعرف من أي ثدي يرضع، ومن أي مائدة من موائد العشق المجهزة في كل وقت يأكل، وفي أي مرحلة من مراحل الليل سينال تقاعده الأخير وينام. مستفز إلى أبعد مدى، تهزمه المغريات في لعبة شد الحبال الوقحة، يشدّ، يشدّ، يشدّ، ويهوى في النهاية مكسّر الاحترام، ممنوع من اصطحاب ذكريات الطفولة إلى عالم الصباح، وذكريات الصبا إلى عالم الظهيرة، وذكريات الشباب إلى وسادة النوم، يلحس أطباق المقويات التي تقدّم له لتشعله أكثر، يبدي اعتراضات غير جدية على نظام الشبع، ويلهو في أوقات الحرية القليلة بشراك الطير والجرذان التي خلفها الغشيم في كل ركن من أركان البيت. كانت لياليه تكاد تكون ممنوعة من بث الحزن والشجن، لا يبكي إلا حين لا يعثر على ضحكة في الصميم يكمل بها خيط اللذة، لا يدمع إلا من التهاب صديدي في العينين، أو تراكوما، لا ينام إلا حين تهوي الشفتين السعيدتين على خده، تهمسان: تصبح على خير، ولا يصحو إلا حين تهويان مبكراً في الصباح، وتهمسان: صباح الخير.

كانت الأمسيات في أغلبها امتحانات نقل عصية الأسئلة، يسأل بأسئلة اكتسبتها حورية من احتكاكها بالغشيم تلك السنوات العشر. يسأل عن برجه، وموقع نجمه في السماء، وألوانه المفضلة، وسعرات الحرارة التي تبقيه قوياً ومتماسكاً، وعدد الحماقات التي سيرتكبها بالفعل لو كان أحمق. وحين ينعقد لسانه في حلقه من شدة الصعوبة، ويبدأ بتقطيع الكلام، كانت المرأة تغششه، تلقحه ببرج الثور الذي هو برجها، كما أخبرها الغشيم، وطالع المحظوظين، الذي هو طالعها أيضاً، واللون الأخضر الذي تحبه، وثلاثة آلاف سعر حراري متوازنة، وعدد من الحماقات معظمها يخص الحب وشؤون الحب.

كان عبد النبي الغريب الآن ملتمّاً بعناية في الشرنقة، لا يرقة ولا هيكلاً متكاملاً. شاهد شاطر، التاجر المرموق والصديق المفترض، عدة مرات، وكلّمه بلغة عادية، رسمية، هي: السلام عليكم، وعليكم السلام، اشترى أسورة من الذهب من عند المحجوب بإيعاز من الزوجة وتمويل منها، وكلّمه بلغة البيع والشراء فقط، أقلع عن تعاطي التنباك أمام زوجته حين وصفته بالمزاج القذر، والأسبرو الذي كان يستخدمه لوجع المفاصل، وكان يلمع حذاءه بطلاء مخلوط بماء الورد تشريفاً للحب، وفي الفرصة الوحيدة التي سنحت له لاختيار وضع جديد للنوم حين كانت حورية الاشتهاء ساهرة على حفرة للطلح الموقد، تقسو على جلدها، وتتعطر، لم يغتنمها، وظل راقداً تلك الرقدة الزوجية المهلكة للغضاريف وعظام الظهر. محذوف من خارطة وجهاء المجتمع الفاعلين، نسي فريق النحلة الكروي تحت التأسيس، وكان سيكون في إدارته، نسي الفانلة والشورت الضيقين، ولا يعرف أين

ذهب عطر بولو منشط التعصب الرياضي لمشجعي كرة القدم. لم يهنّئ عريساً صادف زواجه في تلك الأيام قط، و لم يشيّع ميتاً شيّعه الجميع، وما عادت تستهويه أخبار السياسة عبر إذاعة لندن ومونت كارلو. كان مقيّداً إلى البيت وتوابع البيت، يضع زينة الكحل ويغسلها سراً، يخضب الشعر ويغسله سراً، ويتلقى دروساً منتظمة في إجادة الهمس ومعالجة الشخير ومضغ لقم الأكل بفم مغلق.

في أحد الأيام أيقظته حورية من غفوة نهارية طالت على غير عادة غفواته السريعة المختصرة، خمنت أنها لا بد أن تكون غفوة الحلم بعيال عفاريت يخضرون بوار البيت، بعد أن شق العسل الضبابي المتآمر طريقه أكثر من شهر و لم يثمر. كانت في الحقيقة محشوة بحمل كاذب، اجتهدت في اختراعه وتربيته، بعد أن سألت عدداً من المجرّبات كثيراً عن أعراض الحمل ومضاعفاته. قربت يده الخامدة من بطنها المتكور بغازات سايكولوجية لا علاقة لها بالخصوبة، قالت:

– سمِّ طفلك القادم يا عبد النبي.

فانتفض الغريب مستيقظاً بالكامل، ضغط على البطن بنشوة وهو يصفر، و لم يبذل أي جهد في البحث عن اسم، اعتبره ذكراً على الفور، بلا احتمال آخر، سمّاه مصلح تيمّناً بالجد الذي غرّد خارج السرب ذات يوم واتّبع خطرفة الأباء المعروفة في اشتهائهم البنوة، أرقدها على سرير الراحة رقدةً مرفهة، منع عنها الراديو وعطر الطلح وسجائر الكنت المهربة، وتحول إلى خادم بيتي فذ، يطبخ ويغسل وينظف. يخاف من تنهدها لو تنهدت، ومن رمشة عينها لو رمشت، يخاف أن يختنق مصلح لو غيّرت رقدتها على السرير. كان يردد:

- زينة الحياة الدنيا، زينتها يا أم مصلح وبنت مصلح.

وعندما أيقظته من غفوة أخرى بعد عدة أسابيع من ذلك، وكانت غفوة الحلم بطقوس ختان مصلح وآليات تدليله ورشقه بالهدايا، وقالت: "سقط الجنين مع الأسف يا عبد النبي"، لم يقل شيئاً، اكتفى بتحسس رأسه ونتف شعيرات هزيلة من شعره. كان مصمّماً بدقة، وقادراً على أن يلبس حالاتها، وينزعها حسب الضرورة.

الغشيم كرو الآن في سن رشد جديد هو الآخر، أُعفي من الخدمة المستبدة وهو في أوج طاقته الخيالية وعمره المعطاء، وكانت في ذهنه خطط بلا حصر لاستدرار العسل. أُعفي من ولاية الأمر وهي طازجة لم يدخلها إلى عقل المجانين بعد، ينقحها ويخرجها ولاية جديدة فذة تستهزئ بكل ولايات الأمر المتاحة في البلاد. كان سيتجلى في تولّي الحضرمية، يحوّلها إلى طفلة ساذجة الشعور، بضفيرتين ناعمتين وفستان قصير ومقلّم، تناديه بأبي الغشيم، وتطلب الصفح منه عند أي خطأ، وهي زوجة. كان سيوصيها بالوصايا العشر، في طاعة المرأة، التي يحفظها من فقهاء معارضين للسلطة زاملوه في المعتقل وغرسوها في ذهنه المعتلّ، يخنقها بنظريات الماركسيين الذين يحيّون تحرر المرأة، ويلهو بعيالها القادمين، إن أنجبت عيالاً، لهو جدٍّ بأحفاد.

الغشيم كرو، أعظم مجنون في تاريخ الأخطاء الأمنية، اخترع أصنافاً من الخدمة لم تخترعها الجرارات، ولا الشاحنات، ولا عربات السكك الحديد. الآن يجرح يديه، ورجليه، وينتف سبيب حاجبيه من شدة الملل؛ الآن يلفظ من شاي الصباح، وقهوة الضحى، وإشعال الطلح المعطر، وطبق الفول المخلوط بالصلصة، وشرائح البطاطا التي طالما أحبها.

في الليالي الأولى لطرده حاول في أحلام يقظة كثيرة أن يتسول، وفي أحلام أخرى أن يضيع وينتفي، ويذيع أحوال الطقس في بقعة مثل كليمنجارو أو كازاخستان، وأن يصبح القرشي أول شهيد في إحدى الثورات التي نشبت في البلاد في الستينيات. وفي أحلامه الستين والسبعين، والثمانين بعد المئة، اقتنص عاطفة وشهوة لأول مرة، تزوج من شقراء من بنات الحور، وعاشرها في زنزانة ضيقة، تحت وطأة سلاح ومراقبة سجان.

الغشيم كرو، متميز المتميزين ومعلم النخبة العرجاء في البلدة، كما وصف ذات يوم، الآن مجرد معتوه عادي، متسكع لا يساوي وزنه وزن أسورة من القصدير، سعى إلى نشاط البلدة المحموم، حاول أن يخدم ويستبدّ عند أحد ما، ويخترع المشاق مجدداً، فطورد بالعصي والسكاكين وأصوات السخرية والاستهزاء. سعى إلى عمد ومشايخ وأرباب حظ، تقدم للعمل مساعداً لسائق من سائقي السفر، وحفّاراً للقبور، وحمّالاً في السوق، وجليساً للأطفال، وزوجاً لعدد من الأرامل والمطلقات، ومدرّساً خصوصياً للتدبير المنزلي، وشاتلاً لخضار الزراعة الموسمية، فلم يُقبل في أي مهنة. وجد الكثيرين يهدمونه بصلف، أو يخافون من اقترابه منهم، والقليلين جداً يعطونه لقماً من الطعام لا تشبعه، فقط تبقيه حياً. التقى أمه التي انغرست في جهاد النفس حتى القاع، ومنحتها العانس المتفلسفة شهادة الخلو من رذائل الدنيا، خاطبها ببنوته الغريبة، وزجرته بأمومة خاوية حتى من التطلع إلى وجهه والتأكد من أنه ولدها الغشيم الذي كان شيخاً مربوطاً ذات يوم. وفي محاولة أخيرة ومضنية لاحتقار الظمأ والبقاء حياً

كما هو، حاول أن يعود القهقرى إلى سيرته القديمة المعتمة التي سطعت أمامه فجأةً، وكانت عصية على السطوع فيما مضى، شيخاً مربوطاً متخصصاً في جلب الذرية واستئناس الأزواج الفارين والمستهترين. أوقد بخوره، وربط نفسه إلى جذع إحدى الأشجار، وابتدأ يتمتم، فما صدّقه أحد، كانت مغفّلاته القديمات الآن عجائز يعشن في عتمة الشيخوخة، والجيل الجديد من نساء البلدة تطور بشدة، تعرّفت النساء على طرق حضارية لنظافة الرحم وإثارة المبايض ونفخ الأنابيب، يمكن إجراؤها في المدن القريبة، وأجدن الغزل الفرنسي المستورد لدرجة أن أزواجهن كانوا يستهترون معهن وحدهن ويفرون منهن إليهن. وحين التهب الحريق الحتمي في أحشائه، وبدأ ينز من قلبه في شكل نبض خطر، ومن منخريه العريضين في شكل تشوه ملموس، راسل قادة في الأمن الوطني للبلاد، بعضهم حقيقيون وبعضهم أشخاص كان يعرفهم فيما مضى، وتوقع من خلال فهمه للشخصية الأمنية أن يكونوا قد دخلوا الأمن وأصبحوا قادة، زوّدهم بصورته الشمسية، وسيرته الذاتية القديمة والجديدة، وخبرته في صياغة السلاح الأبيض من الشوك وجذوع نبات القنا ومناقير الطيور وعيدان الطلح، وعدّد الحماقات المخلّة بالأمن الوطني، التي ارتكبها منذ خرج من السجن. أعطاهم قياس أذنيه، واتساع حدقتي عينيه، ولونه المفضل: لون الدم، وزوّدهم بخريطة شديدة الدقة تبين موقعه تحت إحدى الأشجار الذابلة، وعلامات الطريق التي ستقود حملتهم إلى تلك الشجرة. وحين تفّهوه بعثوا إليه بخطاب رقيق للغاية، يبثّه التحايا ويخبره بأسف بالغ بعدم استيفائه المؤهلات المطلوبة للاعتقال التحفظي. هاج بمغص

أحرق مشاريع تنموية في طور اليرقات، ما تزال، ومحاصيل زراعية كانت تبشّر بموسم خصب، وقاد أول مظاهرة في الريف تهتف بعودة العسكر إلى الثكنات، كوّنها بهياجه الشخصي، وعدد من صبية البلدة المراهقين، أعجبتهم نبرات صونه الذاهلة، فقلّدوها بلا أي تفكير.

الآن هو موجود بالبلدة، يتحاوم حول سرة الوقائع بلا مقدرة على لثمها، أو غسلها بمطهرات استبداده وشقاء الخدمة المخترع، يفتعل اللقاءات بحورية الحضرمية وعريسها سمارة، ويلقي إليهما بنظرات ضارة متوعدة، لكنه لم يبدُ عدوانياً قط، ويقيم المتاريس سراً في الليل حول بيت العسل، مانعاً جرذان المحاصيل من هوايتها القارضة، والنمل المجنح من لدغاته المستلذة، وثعالب البر وذئابه من صيدها المتباهي، والأرضة من عشقها للخشب، وباعة الخردوات الجائلين من الوصول بخردواتهم. وحين يضبط في ليلة مقمرة، يخرج فيها العاشقان إلى الطريق ليتناجيا في الضوء الساحر، يفرّ ملتاعاً وملثماً. هو موجود في قلوب مثقفين ريفيين لم ينسوه، وفي رقم فظّ مدون على حائط ما.

-٢٢-

النميمة في الريف ليست ترفاً، ولكنها خطوات ملحة وفاعلة في تطور الألسنة، لا تحبو، ولا تمشي، ولا تركض، ولا ترتفع محلّقةً في الأجواء إلا بها.

والوقائع في العادة تلقح، وتنفخ، وتكمل دورات مجيدة، وينزح بها إلى ساعة المخاض كأي أنثى.

كانت الطرق الترابية المغبرة تنمّ للطرق المعبدة بالأسفلت.

الطير المتمترس المقيم ينمّ للطير المهاجر ذي الأجنحة، القرى للقرى، والمدن للمدن، السكارى للواعين، والرضع اليافعون ينمّون عن قشور الحلمات واتّساخ الرضاعة وتوافه الأمهات التي تتجلى خليعة في جلسات الضحى أمام مواقد القهوة.

كان الليل يخمّر الحكي، يكسبه مكانة خاصة، والنهار يبعثره للملأ. وكان الغرباء هم أكثر الخمائر شعبيةً في نزيف الألسنة، تحتفظ الذاكرات الريفية دائماً بوثائق تخصّهم، ومواقف ربما تكون قد اخترعت لهم أثناء وجودهم في أي عهد من العهود.

لم يكن ثمة مبرر إطلاقاً لتغطية الحدث الشبقي المتآمر، الذي جرت

وقائعه في البلدة، بلحافٍ من أي نوع.

لم يكن ثمة مبرر لطلائه أو تلوينه، أو دفنه في بئر لن يحفر ذات يوم. لم تكن الألحفة تجدي أبداً، ولا الطلاءات تجدي، ولا تستطيع خرق الدنيا كلها، ولا حتى يد الحكومة القوية، الباطشة، الخشنة الأصابع، أن تكمّم الفم المتعطش للحكي عند سائق سفري يحمل البضائع بين البلدة والمدن، أو مسافر متجه إلى العاصمة، أو حاج إلى بيت الله الحرام في موسم الحج، أو طالب للعلاج الراقي في مكانٍ راقٍ، أو بائع متجول، أو سائح ساح في الرمل واليباس، أو زائر ثقيل الظل، أكل من شبع العرس، وتجشأ، واحتفى ورقص، وتآمر مع الآخرين، ومضى ببقايا شبعه إلى مدى بعيد.

خبر العرس المتآمر اللذيذ، ألذّ عرس في البلدة منذ أن عرفت الأعراس، الآن في الطرق التي عبّدها الخريف بخيران الوحل، والتي شبعت؛ في الطرق المكسوة بإسفلت الهبات، وتلك المحذوفة من خطط الموازنات العامة للدولة. الآن في العاصمة، عاصمياً أصيلاً، في: المحطة الوسطى، حيث تدلق باصات السفر ركابها، وميدان أبي جنزير المطروق بكثافة، في أحياء أمبدة والقلعة، وبيت المال، وجبرة، والصحافة، وحتى أحياء الرقي السلسة. يتفرّس فيه الكثيرون ممن لم يسمعوا بالريف إلا خطرفةً مملة في أناشيد حصاد الصمغ العربي، وقطن التصدير الطويل التيلة، أو دروس الإنشاء المبكرة في المدارس الابتدائية، حين كان يذكر كرم الأخلاق، والنسيم العليل، وتذكر الرجولة كسمة فذة من سمات ذلك الريف.

يتفرّس فيه أئمة في المساجد خطبوا، وتهيجوا، وتذمروا من

خطأ الحفل، وعدم شرعية النظرات، وفصائل الدم التي انغرست فيه بالثقل كله، يتقاذفه أطباء صارمون، وممرضون نوبتجيون، وموظفون متقاعدون، وطلاب في المدارس، وعاملات في بدالة الهاتف، وعدد أكبر من الراغبين في استثمار فرص الدعاية والإعلان إلى أقصى مدى.

كانت ثمة نساء منبهرات بزينة عروس لم يعرفنها إلا رذاذاً في خبر، وآباء لبنات في سن الزواج، خائفون على خزائنهم من نهب عرسان وصوليين، وعزاب خجلوا من خرائط أعراسهم التي رسموها في الأذهان، واكتشفوا فقرها وفقر دمها الشديد، وشرفاء استكثروا عدد الخراف والثيران التي ذبحت، وتفاهة الشبع الذي لازم العرس، وتمنوا في قرارة أنفسهم لو ذهبت تلك الغنيمة إلى أي أيتام أو مرضى عاجزين. كان ثمة خبر عريض مرصوف في الشوارع، وخبر أعرض متمترس في باصات النقل، ووقائع تنهض الآن من أربعين الولادة أكثر بهاءً، وريفيون من الشمال البعيد، من ضواحي مدينة دنقلا، التقطوا الوقائع القائمة من النفاس وأربعين الولادة، التقطوها بشغف، لقحوها بجنين جديد وحملوا أمومتها القادمة لا محالة إلى ريفهم البعيد.

الوقائع الآن، بجنينها الجديد الذي تحمله، بكساء شعرها المصبوغ، وطلاء رموشها الكثيف، بعطرها المهيج وزينة الطلح والكحل الكثيف، وجسدها الممتلئ، بملابسها الداخلية الشفافة، تنزلق سلسةً في أمعاء مواطني الريف الشمالي، لم تأخذ أيّ وقت معقّد لتهضم، ولا أساءت إلى المعدة بالحوامض، والأمعاء بالنفاخ وعصبية القولون. كانت مثل الحساء الناعم، والسلطة الخضراء، والفاكهة المقشرة، والبطاطا المسلوقة على الماء فقط.

كانت الوجبة التي لاءمت كل شخص، وكل ذوق، وتجرّدت من سوء النية وهي تطعم.

الوقائع عند عائلة "سمارة" في تلك القرية، في ضواحي مدينة دنقلا، حيث ولد عبد النبي ولادة بيئيين خشنين، حيث رضع، وحبا، وتمخط، واستاء، وضحك ضحكته الأولى، ورقد على أرجوحة القماش التي تستخدم لتهدئة الصغار، حيث وسخ على ثياب البيت.

الوقائع عند عائلات أخرى زامل متعلميها، وغازل صباياها في سن المراهقة، وجالس مسنيها، واحتسى قهوتها المرّة بالزنجبيل، ودفن موتاها، ورقص منتشياً في أعراسها، وتحسّر في ساعات التحسر مع متحسريها. عند عائلات أبعد قليلاً ربما صاهرها، أو درّس أبناءها، أو لمع نجماً في عيون أفرادها، عائلات أبعد وأبعد، ربما كلّم أفرادها في الطرق أو اشترى من تجارها في السوق، أو صلى مع المصلين منها في المساجد، أو تماسك مع مشاغبيها بالأيدي، أو ردّ على المحيين منها السلام.

تجمّع كل ذلك اللهاث المتخم بالوقائع، والعاشق أصلاً لتخمة الوقائع كأيّ ريف وطني أصيل، تجمّعه الذي لم يحدث من قبل قط، إلا حين قفز عسكري مغمور من تلك الأصقاع البعيدة إلى رئاسة البلاد في إحدى الحقب، وطالب بالدعم العرقي لقفزه، تجمّعه الذي ما استهلك كل تلك التقوى، وكل ذلك الهم، إلا حينما ارتفعت أسعار الديزل، وحبوب البن، وتكاليف ري المحاصيل، ومكافحة الجراد، وأرسل مئات من الخارجين حديثاً من طور المراهقة إلى حرب في الجنوب تهدّ الكتف وتفتت السلاسل الفقارية، تجمّعه الذي ما تحزب،

ولا تكور، ولا هرجل، إلا حين كانت مكبرات الصوت الديمقراطية مدعومة بكرابيج السادة وأموالهم، تلهث في تلك البلاد بحثاً عن أصوات انتخابية.

استضافتهم عائلة سمارة استضافة تعسة لا تشبه استضافة الريف في شيء؛ استضافتهم بلا شاي ولا بن ولا حتى ماء عادي أو ابتسامة، واستضافت معهم فقهاء في شؤون الكبت الجنسي وجنون العواطف ومراهقة خريف العمر، وشيوخاً متصوفين أقسموا بمسابحهم الطويلة ذات الألف حبة، وتاريخ النزاهة المهنية الذي يحملونه منذ أن جرّدوا أحد التماسيح المغيرين على السابحين في النهر من رجولته، وعدد من طيور السمبر اللئيمة من مناقيرها، وعشرة لصوص معروفين من لصوص المحاصيل من طاقة أجسادهم، أنهم سيعودون بعبد النبي الغريق في بحر بعيد إلى البرّ سالماً، أبيضَ من غير سوء، وأخضرَ من غير جلد يابس، وربّاً أسرياً من غير شبق أو اشتهاء دخيل على حياته. ونوعاً من الدعم لمعاناة تلك الأسرة، جاء رجالٌ للأمن، بعضهم سابقون وبعضهم ما زال في الخدمة، أوقدوا العيون البصّاصة، نظموا الصراخ الذي كان يعلو في جلسات التشاور وأولويات الدخول إلى دورة المياه التي ازدحمت بالطوابير.

كان ثمة إسهال غزير، ثمة توتر وخجل، وحذر، ثمة حرف كبير للجرّ يبذل طاقة مضاعفة في جره للوقائع، حرف ضم كبير يضم، وحرف نصب هائل يرتقي بالوقائع إلى القمة. كم من الفوضى طاشت هنا وهناك! كم من الرياح الهضمية انطلقت هنا وهناك! كم من عراك الأسنان بلا أي وجبات، وندب للحظوظ، حتى عند أولئك

المحظوظين! وجاء أفراد قبائل البدو والرحل المقيمين في الصحراء المعانقة للبلدة، حين علموا بالهجر الذي حدث، وأبدوا استعداداً نزيهاً لنظم الشعر، وهجاء طرق السفر والباصات التي تحمل الناس إلى مصائر قاحلة.

كان الضحى الشمالي، الذي حدث فيه كل ذلك، هو أقسى ضحى، حين ارتاحت في ظله الهرجلة، وأفردت أسرة الحبال المنتشرة بلا ألحفة ظهوراً جد صعبة، كان أقسى ضحى، حين تخطاه النعاس، وأكثر الضحاءات الصيفية مدعاةً للحذف من الذاكرات الموجوعة إلى الأبد.

كان المساء المخصص في العادة لبري المتعة الروحية والجسدية، استعداداً لليل، وإعداد فطائر اللبن وعجين السمن، وإرخاء آذان الهلع الريفية لنشرة أخبار الوفيات في الإذاعة الوطنية، يبدو غير وفيّ، وغير ممتع أو مستمتع، وأبى بشدّة أن يخمد.

كان الليل المخصص لمنح اللظى طاقة الإنجاب ليلاً من أرق، وكانت الزوجة الحقيقية لعبد النبي، الغريب في ذاكرته، والمتقهقر إلى الوراء سنوات، عريساً شبقياً لخلطة الغجر بالحضارم، تلك التي طارد قوامها وهي فتاة، وغازل شعرها وكحلها وعينيها، وتملق أهلها حتى زوجوها له، وأنجب من التحاف لياليها البعيدة عياله المتسخين، غير متماسكة، وهي تحاصر بالوقائع. أرادت أن تذم أحداً ما، أن تبكي، وتندم بلا نهاية، وتطلب الطلاق البائن من أقرب جذع نخلة، أو أعكر ماء جدول، وتقعد في وسط الأهل والصديقات، مطلقةً حكيمة، تحكي عن تجربة الشقاء بترفّع، وتردّد

أقوال النساء المأثورة عن خطّاب عديدين ينتظرونها لتتحرر.

قالوا لها في سخط: هو مسحور يا امرأة، وتائه مسلوب حتى من شبهة الندم، وغير متألم لأنه بلا ألم. سكتت، واندسّت في التشاورات العريضة التي كانت تبحث عن مخرج للفاجعة. ربما أدلت برأي واهن لمجرد المشاركة في الحديث، أو تذكرت نكتة ساذجة ردّدها الزوج ذات يوم، أو حادثة مهمة من تلك الحوادث التي تشرّف العائلات، أو اتكأت في النهاية على رطانات أهلها وهم يبحثون عن الدرب المناسب ليسيروا عليه.

الوقائع، بجمالها الذي لا يشبه سوى جمال لوحات فناني عصر النهضة القدامى، موناليزا بديعة تتراقص في عقر وطن الشمال، وبائعة خبز حافية الأحلام، تقتات من جرذان وعناكب.

وجّه اللوم بشدة إلى وزارة التربية والتعليم التي تمنح أولوية لشخبطة الطباشير، من دون أدنى حد من صيانة ذمم المعلمين، بشدة إلى وزارة المواصلات التي ترصف الطرق، وتتيح استخدام اللاسلكي، وتوصل البرقيات الصفراء المجحفة إلى أي زقاق في أي بلدة، بشدة أكثر إلى وزارة التوعية والإرشاد التي تترك الظلال حيث وُجدت، والتثاؤب حيث وجد، والضلال حقيقة تلتهم الحقيقة. وُجّه انتقادٌ لاذعٌ إلى السينما المتجولة التي تأتي أحياناً إلى الريف، لعرضها أفلاماً من طراز "أحبك" و"حبيبي" و"حبيبان إلى الأبد"؛ إلى قادة اللجان الشعبية المحلية لعدم التزامهم بأي برامج تنموية أو تموينية؛ وإلى طلاب المدارس الابتدائية لسرحانهم المتصل والدائم في حصص العلوم والدين والجغرافيا. ارتفعت في المكان أصوات تطالب بالقصاص العادل،

وأصوات تطالب بالهدنة، وأبدى المئات من أصحاب الحماس والأقدام المشققة استعدادهم العريض لتسيير مظاهرة حتى وادي حضرموت ومضارب الغجر في أي مكان. نكشت سيرة حورية مصلح الحضرمية كلها، نكشت كسيرة متورمة لواحدة من بنات آوى المخمليات بحاجة إلى تأديبها، وانتزاع أنيابها، ونتف شعرها، ورجيم قاس لتحويلها من قط إلى فأر. ذكر اسم سمعان رستم الغجري، كزعيم محطم لفوضى الغجر في الشرق، جلس بنظارة طبية في العرس، وحبا وابتسم، وأشار إلى كتفه الموشومة، فلم يشدّ أي انتباه. ذكر اسم شاطر واسم المحجوب كمتجهمين وحيدين في العرس، وفانوسين منطفئين في قلب فداحة الوقائع، فحيتهما الألسنة بغزارة. ذكر اسم بديعة حسّاب، وجنيّها القديم شاخور شمرّس، فارتعد الجميع، صرخوا: يا نبي نوح، وعندما ذكر اسم الغشيم كرو شاويش عرضاً في ذيل فداحة الوقائع، ليس كوقود محرك، ولكن كجرذ ساهم بفعالية خدمته المستبدة فقط، انتفض المتشاورون بشدة، أخرجوا سكاكين وعصي ومسابح من ثمار اللالوب الصلدة، جلدوا بها الهواء بشدة، ثم انتبهوا إلى قول ردّده أحدهم، ونسبه إلى رئيس البلاد شخصياً، قال إنه سمعه في الإذاعة ذات يوم، ولا يعرف أحد إن كان حقيقة أم لا:

– الغشيم كرو شاويش، وزمبل ابن الغرب، وسليمان طه، هؤلاء الثلاثة هم ألدّ أعداء قلبي، لكن قلبي يحبهم، أتركوهم طلقاء.

فترمّلوا من الحزن والخوف، عضوا على شفاههم، أعادوا السلاح الأبيض إلى مكمنه والدم إلى لزوجته. وتكالبوا على الهواء لتضميد ظهره الملسوع. لم يكونوا في الحقيقة ضد أي بلدة، ولا ضد أي

دستور، ولا مجندين ضروريين في مشادات القبائل وهتك أعراضها، لكنّ قلقاً ضدّاً يكبلهم، وكان حديث الرئيس، إن صح، على العين والرأس.

سبعة عيال متّسخون باتساخ البيئة والظروف، وانعدام العطف والهدايا، وعدم نزاهة الأبوة والأمومة في كل زمان ومكان، هم حصيلة ولع عبد النبي القديم بأنثاه القديمة، تعلقوا في ذيل المشاورات كقرود مشاكسة، لا يبكون، ولا يضحكون، ولا يشمون أبعد من مخاط أنوفهم، لكنهم يلتهمون لقماً مرّة من حين لآخر، وسمعة سيئة لحقت بالمستقبل الدراسي إلى الأبد.

جدات عريقات، طاعنات في السن والحكمة، ممن شهدن دموع الوطن ومجاعاته وإحباطه، وتشردن من صلف الجهادية الذي رافق إحدى الثورات، حين كانوا ينخرون القرى والمدن بحثاً عن طعم، ويمصّون حتى العجين المخمّر، الآن لبسن عافية مهلهلة، تعكزن باقتدار، وتكومن في الضحى الناري، يسمعن، ويفهمن بتشوش، ويبدين وجهات للنظر تخرج في الغالب كسيحة من فراغ الفم.

خارجون على القانون ولصوص محاصيل معروفون وقطاع طرق، يملكون سكاكين القطع كلها، شموا رائحة غنيمة هنا وهناك، استبدلوا عطر وظائفهم بعطر المسكنة، واندسّوا في الزحام، كانوا يراقبون الفوضى بصبر، ويلحسون الجيوب المنتفخة والضامرة، ويكادون يقتلعون دبل الخطوبة والزواج من الأصابع.

كانت أكبر الخيبات تلك التي وصفت بلسان رجل من بين الحاضرين، اسمه عثمان الجريفي، كان في ما مضى عسكرياً مرموقاً

عمل في الجيش ثلاثين عاماً، والآن سائق لإحدى عربات السفر، من تلك التي تحمل الهجرة والتفاهات بين الشرق والشمال، قال الجريفي وهو يستعيذ من الشيطان:

- اسألوني يا سادة، طلاسم الشرق عصية على أي فك أو حل أو تهيج، ترووا، ترووا يا سادة.

الآن، فقه الريف الشمالي البعيد ليس طيراً يغني على الأغصان، ولا بعيراً يخور، ولا كرماً أو بشاشة وجه، أو قمحاً بشرائط من ذهب، ليس لقمة طيبة، ولا ابتسامة حقل، ولا زيراً من فخار عجوز، لكنه يسقي. كان انغماساً في المعضلة أكثر، ودرءاً للحدود بالشبهات، وتوصل المتشاورون في النهاية إلى تكوين وفد عدّوه رفيع المستوى، وكان في الحقيقة مجرد وفد تائه مذعور كان يضم عدداً من عائلة سمارة، أهل المدرّس المسحور، وعدداً من عائلات قريبة وعائلات أبعد، وشيخين من المتصوفة المتهيجين، وعرافة قديمة في البلدة اسمها بنت النيل، أغروها بقليل من النقود وضمان راحتها وراحة طقوسها في السفر، واحتمال أن تنشر صورتها في الباب المخصص لقراءة الطالع في إحدى الصحف العاصمية إن نجحت في فك سحر المسحور.

كان الوصول إلى الشرق بحاجة إلى عربة جيدة وسائق من طراز فريد وطن من الوقود. تجاوزوا كل ذلك، وانتظم وفد النقمة الكبير، الذي يكتب الآن خطواته في طريق السفر.

كان الوداع ساخناً في بلدتهم، لدرجة أن كثيراً من العواطف احترقت، وكثيراً من الأيدي تصاعد من لحمها الدخان المعنوي، وأقسمت الزوجة المسكينة أن لا تضع الحناء على يديها، أو الكحل

على عينيها، أو تتثاءب مجرد تثاؤب، إلا حين يأتونها بالزوج وقد خرج من غيبوبة السحر إلى غيبوبة الوعي قربها.

هم الآن في طريق السفر الذي يستغرق أياماً طويلة كما أخبرهم سائق العربة، من صحارى الدبة وطيبة والعتمور اليابسة نهبوا خشونةً، من أحاديث الأعراب في مقاهي السفر ذات الشاي العكر واللقم المغبرة نهبوا سفاهةً، من النيل الضحل في أطراف قرى المناصير نهبوا ضحالةً، من العاصمة أم الصلف كله نهبوا صلفاً، وفي بدايات خط الشرق، في أوبو وسلوم وتهاميم، امتلكوا يقيناً نزقاً بأنهم فاتحين أكيدين، لأن عبارات الفتح الأكيد ظهرت على ألسنتهم نظيفة من دون خدوش، وعلامات نصر هوجاء اشتعلت في اعوجاج أصابعهم. كان عتادهم مرضياً وبديعاً، وأسلحتهم قوامها العاطفة وغير العاطفة، لم ينسوا أن يحضروا مخاط أي ذاكرة قد تغشّ وقد تصدق، و لم ينسوا حتى أن يحضروا الضحكة الأخيرة لطفل ملائكي، والسعال الديكي لطفل مريض، وسكرات الموت لجد كان يحتضر ساعة أن سافروا، وأحضروا، بشكل خاص، مناديل مطرزة وشالات من القطن وطواقي ملونة صاغتها الزوجة على عجل، ورشّت عليها شيئاً من عطر كان يحبه الزوج المسحور، وأحضروا أيضاً سلاماً خاصاً من سائق معدّية في النيل، أوصاهم بتسليمه لعبد النبي، وعلقه في ذممهم. كانوا يشترون مساويك الأراك الخضراء من عرب الشرق، مثل أي مسافر، يشكون من آلام الرأس والظهر والركبتين، مثل أي مسافر، ويتجرعون الشاي الخلوي الخالي من أي نكهة، مثل أي مسافر. سدّوا الآذان عن نداءات عدد من العرب الرشايدة العاملين في التهريب وجدوا عربتهم غارزة

في الوحل ويحتاجون مساعدة، وتحايا من مواطنين من البدو الرحل خاطبوهم رطانة، وتفّهوا بلدة أشيت الشرقية، التي كانت متراساً حتمياً في طريق السفر وسوقاً رائجة للبضائع المهربة، حين مرّوا بها مرور الريح، من دون التفات إلى عطورها الرخيصة وسجائرها ونسائها الدافئات وألحان آلة الربابة التي كان يغزلها المغني ضرار أوشيك في أحد المقاهي ساعة أن وصلوا. وعندما كان سائقهم عثمان الجريفي يصاب برعدة بين حين وآخر، ويصرخ مردّداً قولته عن طلاسم الشرق العصية على الحل، كانوا يتسمون بوهن، يغطونه بألحفة من الصوف، يسقونه من دواء مرّ، ويغرسونه في قيادة العربة، بلا أي خيار.

وصلوا البلدة أخيراً، والإذاعة تحمل أنباء عن موت ملك في مكان ما، وحياة ملك آخر، وسقوط صاروخ بلا شفقة على طفلة مسكينة، وفرض عقوبات اقتصادية على دولة اتُّهمت بإيواء الإرهاب، وتولّي عساكر مغمورين خشنين زمام الحكم في بلد مقهور من بلدان أفريقيا. كانوا خطرين بلا شك على أمن الشبق والاشتهاء والقيلولات، ومستعدين، بشدة وحماس غريب، لخسارة بلازما الدم وفقدان السوائل وإراقة ثلثي الصفائح الدموية في دم ربما يتجلط. كانت رياح "الإيتاب" الموسمية، التي يُعتقد أنها تقود نهر المبروك الموسمي إلى البلدة من منابعه في إثيوبيا، نشطة للغاية في ذلك العام، استولت على الطقس، وشوشت من الرؤية كثيراً. الذباب الصحراوي نشط أيضاً، يشاكس ما تبقى من المتعة بتلذذ. صلوا العصر والمغرب هادئين في مسجد البلدة الكبير، انتشروا بقرصات الجوع في عدد من المطاعم، وآذوا ذروة البيع في السوق الريفي حين شدوا الشراء إلى ملامحهم التي

التمّ من حولها الناس، تاركين البيع والشراء.

كان شاطر أول من آذوا بيعه في السوق ساعة دخولهم، شدّوا من أمام طاولته رجلين وامرأتين وعدداً من أعراب الرشايدة الذين كانوا فاكهة السوق، يأتون من مضارب خيامهم في الصحراء مرتين في الأسبوع، ويشترون بترف. تعقّب زبائنه الفارين إلى حيث يوجد الغزاة، وانتصب مكتئباً أمام ملامحهم، أكلها وشربها وهضمها بعسر، عرفهم على الفور، ذكّروه بعبد النبي سمارة، عبده كورة المفترض ذكرى حقيقية وأليمة. كانوا صوراً مكررة للمدرّس المتورّط في الشبق والسحر، والمنفي من صداقته مجبراً. سيطر على مشاعره ولسانه بصعوبة، وكلمهم بلغة مستفسر عادي يسأل عن وجهة أبناء العم، وسبب تشريفهم البلدة، وكاد أن يعرض عليهم ضيافته وتعاونه، لكنه تذكر الساعة الجوفيال القديمة، تذكر تشرد الميناء، وقصة فرعون وقلة عقله. عاد إلى دكانه سريعاً، أغلقه وانفلت ركضاً إلى صديقه المحجوب صائغ العرائس، لا ليستشيره في أمر، ولكن لينفق معه عدة دقائق خالية من بكاء الضمير.

-٢٣-

الريف الشمالي ريف وطني كذلك، نفس السمة، نفس الخرق الممزقة، والوجع المكدس في الشوارع، نفس حبال الغسيل، والليف والصابون، ونفس حبوب اللقاح التي تلقح الوقائع، تهلكها بالنطف وتعدو بها إلى لحظة المخاض كأي أنثى، ولا تستطيع حتى يد الحكومة القوية الباطشة، الخشنة الأصابع، أن تمنع سائقاً من السفر، وزائراً من الزيارة، وعداءً من العدو، ويمامةً من الهديل، وحاجّاً من الحج، وخائناً حضر جلسات التشاور عند آل سمارة، وناقش، واقترح، وذهب بما التقطه في تلك الجلسات إلى مدى بعيد.

بنفس تلك العراقة الريفية، الآن ثمة وقائع ملقّحة بعنف، وفي انتظار تقلصات الطلق سافرت، مرت بالقرى والمدن والعاصمة، ووصلت إلى البلدة، وفي إحدى المغربيات النازفة عسلاً متآمراً، كانت في حوزة حورية مصلح قائمة شديدة العري تضمّ غزاة قادمين من الشمال سيأتون حتماً مسلّحين بكل ما يمكن التسلح به، يريدون رجلها، وقود نشوتها الذي جددته، وخسرت في ترتيقه وقتاً ومالاً، يريدونه قديماً كما كان:

صالح سمارة، الشقيق الأكبر لزوجها، قائداً للغزاة.
ساتي سمارة، الشقيق الأوسط، نائباً للقائد.
فقيري سمارة، الشقيق الأصغر، عضواً.
القرشي نقد، من إحدى العائلات المعروفة هناك، عضواً.
جبارة حسن، عضواً.
سليمان طاهر، عضواً.
موسى أحمد، عضواً.
الشيخ المديد، عضواً.
الشيخ جابر الكسر، عضواً.
بنت النيل العرافة، عضواً.
آخرون، ليسوا بذي أهمية كبيرة، أعضاء.

وعثمان الجريفي، سائقاً متمكناً للعربة التي ستقلهم، يحمل وجه أرنب، وعيني صقر، وشهادة عليا في طرق الشرق حصل عليها عن جدارة.

استلمت القائمة والزوج العريس باركٌ على قلة احترام الذات أمام كانون مشتعل، يصنع القهوة، ويتغزل بعينيها المكحلتين ويئن. مرّرتها أمام ذاكرته المحدودة السعة بفعل تجليات بديعة حساب ومهمتها الأكمل في تاريخ المهمات التعسة، طالعها عشرين مرة وما تعرّف على أحد بداخلها أبداً، وظن آل سمارة المتصدرين نية الغزو، قادة ونواب قادة، مجرد مفتشين تربويين من أولئك الذين تبعثرهم وزارته في الريف من حين لآخر، لا ليطوروا أو يقوّموا اعوجاجاً ولكن لبعثرتهم شخصياً فقط، والآخرين، ممن وردت أسماؤهم في القائمة، زملاء

-٢٣-

الريف الشمالي ريف وطني كذلك، نفس السمة، نفس الخرق الممزقة، والوجع المكدس في الشوارع، نفس حبال الغسيل، والليف والصابون، ونفس حبوب اللقاح التي تلقح الوقائع، تهلكها بالنطف وتعدو بها إلى لحظة المخاض كأي أنثى، ولا تستطيع حتى يد الحكومة القوية الباطشة، الخشنة الأصابع، أن تمنع سائقاً من السفر، وزائراً من الزيارة، وعداءً من العدو، ويمامةً من الهديل، وحاجّاً من الحج، وخائناً حضر جلسات التشاور عند آل سمارة، وناقش، واقترح، وذهب بما التقطه في تلك الجلسات إلى مدى بعيد.

بنفس تلك العراقة الريفية، الآن ثمة وقائع ملقّحة بعنف، وفي انتظار تقلصات الطلق سافرت، مرت بالقرى والمدن والعاصمة، ووصلت إلى البلدة، وفي إحدى المغربيات النازفة عسلاً متآمراً، كانت في حوزة حورية مصلح قائمة شديدة العري تضمّ غزاة قادمين من الشمال سيأتون حتماً مسلّحين بكل ما يمكن التسلح به، يريدون رجلها، وقود نشوتها الذي جددته، وخسرت في ترتيقه وقتاً ومالاً، يريدونه قديماً كما كان:

صالح سمارة، الشقيق الأكبر لزوجها، قائداً للغزاة.
ساتي سمارة، الشقيق الأوسط، نائباً للقائد.
فقيري سمارة، الشقيق الأصغر، عضواً.
القرشي نقد، من إحدى العائلات المعروفة هناك، عضواً.
جبارة حسن، عضواً.
سليمان طاهر، عضواً.
موسى أحمد، عضواً.
الشيخ المديد، عضواً.
الشيخ جابر الكسر، عضواً.
بنت النيل العرافة، عضواً.
آخرون، ليسوا بذي أهمية كبيرة، أعضاء.

وعثمان الجريفي، سائقاً متمكناً للعربة التي ستقلهم، يحمل وجه أرنب، وعيني صقر، وشهادة عليا في طرق الشرق حصل عليها عن جدارة.

استلمت القائمة والزوج العريس باركٌ على قلة احترام الذات أمام كانون مشتعل، يصنع القهوة، ويتغزل بعينيها المكحلتين ويئن. مرّرتها أمام ذاكرته المحدودة السعة بفعل تجليات بديعة حساب ومهمتها الأكمل في تاريخ المهمات التعسة، طالعها عشرين مرة وما تعرّف على أحد بداخلها أبداً، وظن آل سمارة المتصدرين نية الغزو، قادة ونواب قادة، مجرد مفتشين تربويين من أولئك الذين تبعثرهم وزارته في الريف من حين لآخر، لا ليطوروا أو يقوّموا اعوجاجاً ولكن لبعثرتهم شخصياً فقط، والآخرين، ممن وردت أسماؤهم في القائمة، زملاء

مهنة قدامى ربما تمّت ترقيتهم مؤخراً إلى وكلاء أو مدراء للمدارس.

مررتها أمام ذاكرته المحبوسة في مطبخ الهوس للمرة الحادية والعشرين فتعرف أخيراً على صالح وساتي سمارة بوصفهما لصين عريقين من لصوص المحاصيل في الشمال كانا يسرقان القصب والبرسيم وخراف الأضحية والصدقات، وبقي الآخرون في نفس مواقع الظن السابقة لم يتزحزحوا شبراً، وحين مررتها للمرة الثانية والعشرين، وهي تهزه وتصرخ فيه، بدا متذمراً وغاضباً لأول مرة منذ أن عرفته، كاد يطفئ كانون الفحم، يوقف إعداد قهوته، ويلقي بلعاب متعته الجاف في وجهها، ويغادر البيت. اهتزّت بخوف، وبدا الاهتزاز واضحاً عليها، حين استنشقت بخار النشادر من زجاجة لديها، وحين وقفت مطولاً أمام مرآة خروجها الهيمان، من دون نية في الخروج. أعدّت له عصيراً من البرتقال وعشاء من الزبادي، ورمت في حلقه حبتين مهدئتين، وبكفاءتها القديمة، كفاءة حورية التي تصلح سلاحاً وغمد سلاح، وناراً وبرداً، وشجراً وبقايا شجر، انتظرت حتى تضخم الليل، وتحول الرسم القروي إلى لغة على تخت، ألقت بلحاف على نوم الزوج الذي ترنّح بفعل الدواء المهدئ، ارتدت صندلاً ذا كعب متوسط وثوباً من ثياب شهر العسل الجديدة بني اللون، تعطرت من عطر كوكو، وحملت مفردات جديدة انتقتها بدقة من خصوصيات الغريب التي كانت تملكها الآن كلها، واندلقت إلى بيت بديعة حسّاب.

كانت قائمة الغزاة القادمين تلعب في عقلها بضراوة، وسلاحهم الشمالي المتخيل يطعن في جسدها بضراوة أشد. تخيلتهم واحداً

واحداً، شمّت بصاقهم وعرقهم المتخيل، وازداد النحيب في قلبها.

شمّتها بديعة حساب وهي في منتصف المسافة بين البلدة ومطبخ الهوس، كانت مدربة على شم التجاعيد، وقادرة على اللحس في النار، عرفتها من طقطقة كعبها المرتعشة ورائحة عطرها الخيالي الحالم. استقبلتها عند الباب فاتحةً ذراعيها، قالت: "ادخلي... ادخلي يا حورية"، قبّلتها بشوق، قاست نبضها، وتأكدت من كفاءة أسنانها، ورائحة الأنوثة التي تجتهد على إبقائها متقدة في جسدها. رشّت عليها شيئاً من توابل غريبة حتى دمعت، ثم أجلستها على السرير الشخصي، مسندةً جلستها بالمخمل الأحمر واتكاءة كوعها الأيسر بالوسادة.

مفردات الغريب الجديدة الآن في المرجل المهووس أكثف غنىً، وأغنى كثافةً، كان ثمة شعر مدهون بزيت لزج، مخاط منتزع من قاع الحلق والجيوب الأنفية، بقايا ضرس سقط وكان محشواً بإهمال، عرق كثيف متيبس على ثوب داخلي، وسائل أمعاء وريالة على منديل، وصوت واضح المقاطع محشو بعبارات الغزل على شريط من أشرطة الكاسيت. بركت المرأة المهووسة، المدورة الساقين من أثر داء فيل قديم، أمام القدر تستنشق بخاره المتصاعد. شخرت وبكت وضحكت، وتأزمت، وانتصرت على الأزمة، نادت على أسماء لشعراء نمطيين، وتجار للسلع المهربة، وساقطات معروفات، وبدو رحل، وحمام أسود مخطط يلتقط الحب على سطح عمارة شاهقة في العاصمة. قالت: يا جحا، ويا سافل... يا عمدة علي الخياط، قالت: حتى أنت، حتى أنت يا صقر؟ حتى أنت يا رجل العجم؟

وأعلنت نتيجة استفتاء رئاسي بعيد، بتسعة وتسعين بالمئة. وحين أرادت أن تصرخ بهستيريا العرافات، سلمت للحضرمية سدادتين من فلين أقوى، ورداء أسود بلا مسام، وقناعاً واقياً. حملت القدر بمتناقضاته وبخاره المتصاعد، حفرت حفرة صغيرة في قعر بيتها، دلقت المزيج بداخلها، وأسكتت فورانه بالتراب.

كانت، كما يبدو، آخر تجربة تعسفية لإبقاء البهجة مشتعلة حضرتها حورية هذه المرة وفي جنبها الأيسر قلب يقترب من نهاية ماراثون، لم تكن تشبه التجارب السابقة أبداً، كانت أشبه بمحكمة النقض الأخيرة، التي تصدر الحكم عارياً من دون أي مجال لستر عورته. حضرتها من دون أن تمس قطرة واحدة من عصير الليمون الذي قدم إليها، ومن دون أي مقارنات سمجة وبدائية بالتجارب التي أحضرت شاشوق رمز القوة وعلوب الحضرمي وعبد النبي سمارة نفسه في بداية تضعضع الشبق. كانت الآن ممتلئة به أكثر من أي وقت مضى، مضمخة بعرقه، وشريكة في هلعه وكوابيسه، لا تستطيع أن تتصور حتى أن تقرصه نملة في بيت غير بيتها، ولا أن يرفسه حمار غير حمارها، أو يلتوي كاحله على عتبة باب غير عتبة بابها. من واشمي الندوب التي التصقت بسيرة حياتها كلهم، هو الوحيد الذي حبلت بنطفة كاذبة من هيامه، الوحيد الذي أخّر خروج الدمع إلى أجل غير مسمى، وشجع لعبها الخطر بمودّة مستكينة، خربش في مساحات كثيرة من عالمها، وتفّه توافه الدنيا كلها، وقال لها بالحروف العريضة في لسانه:

- أنت الحياة يا حوريتي... وأنا سأحيا وأموت من أجلك.

حضرت التجربة الغنية بالهلع حضور مشيّعة لجنازة، أحست بعطرها العصبي قد تبخر، ومسام جلدها توعكت، وشعرة طويلة في رمشها تتقوس فجأةً باتجاه العين.

التفتت إلى بديعة حسّاب لا تقوى على السؤال، لكنها سألت:

- ما رأي أمي الكبيرة بديعة؟

طعنها الشديد في جسد العنوسة لم يكن يؤلمها أبداً، كونها محظية سابقة لجني كان يمنحها تميزاً، استدارة ساقيها بفعل داء الفيل القديم كانت، بالعكس، تمنحهما ميزة الرسوخ على جسد الأرض أكثر، ومناداتها بالأم الكبيرة كانت واحدة من محطات الوقود التي تشعلها وتضاعف من حماس الهوس أكثر.

كانت بديعة حسّاب فيما مضى فتاة رائقة الجمال، من صميم أهل البلدة. كانت عاشقة ومعشوقة، قيل فيها الشعر، ونحتتها الأغنيات، والتهب العديدون بحبها، إلى أن اقتناها الجني شاخور شمرّس، انتزعها من الماضي، ومن الحاضر، ورسم لها مستقبل الهوس بعد ذلك.

كان شاخور جنيّاً شابّاً يرعى في إحدى الخرابات في البلدة، كان وحيداً وأعزبَ وكثيرَ الأخطاء منذ أن هاجرت عائلته إلى الجنوب سعياً وراء مخلّفات الحرب، ولم يعد أحد من أفرادها بعد ذلك أبداً، وما حاول هو اللحاق بتلك العائلة. كان يحب مصّ الأظلاف وبقايا الثريد ولحوم الكلاب المسعورة، ينطلق في البلدة منقّباً في بقايا الولائم والأوساخ وفظائع الأوبئة حتى يشبع، وحين يحس بفورانه الذكوري كثيفاً ومهلكاً ينحبس في خرابته أياماً حتى يجفّ الفوران، ليعاود

نشاطه بعد ذلك. وفي إحدى الليالي الداكنة التقى بديعة حسّاب وهي كاملة التزين وقادمة من حفل بهيج برفقة بعض أفراد أسرتها. أعجبه قوامها الفارع ووجهها الصافي المرطب بالكريمات وقميصها الزهري المطرز الذي يقبض على جسدها بإتقان. راقبها لعدة أيام كانت مشحونة بالفوران. جاءها في هيئة حمار فخم، أغراها بظهره العريض، وحملها في عدة مشاوير في البلدة؛ جاءها في شكل أغنية هابطة، نبعت في ظلام غرفتها فجأةً، ورقصت على إيقاعها لعدة دقائق وهي مسحورة؛ جاءها في شكل نعجة كريمة تحمل أثداء مثقلة باللبن، وحمامة بيضاء ناعمة الهديل، ولحاف من الصوف غطّاها في ليلة باردة، وطائراً من طيور اللقلق بثّ الهيام أمام نافذتها، وكاد أن يأتيها في هيئة رجل غريب عن البلدة، ناعس العينين ومنمق الكلام، لولا أن خللاً فنياً أصاب أذنيه فخرجتا عن مسار الوسامة المرسوم. وفي أحد الأيام، وبعد أن أسّس لها حياة مستقبلية في حوزته، اختطفها عنوةً من دون حتى أن يطرب أذنيها بكلمة غزل يتيمة، ومن دون أن ينظف أسنانه من حطام كلب تعشى به في ذلك اليوم، وغاص بها في وهاده البعيدة.

أعوام طويلة انمحت فيها بديعة حسّاب من أي ذاكرة نقشتها في البلدة ذات يوم. نفض عشاقها قلوبهم من عشقها، وذووها كفالتهم باعتبارها لطخت سمعتهم، مات إخوانها في مشادات ومستشفيات، وعلى أسرتهم، وأكد الكثيرون أنها ماتت، لأن لا أحد شاهدها في أي بلدة مجاورة، أو بعيدة، وتمسك قليلون من معارفها برؤى مضعضعة خاطبتهم فيها وهي مكتملة الحياة. وفي أول تدخل حتمي في شأن

اختفائها الطويل الأمد، أدلى الضريح الحجري للشيخ قماش بدلوه الذي كان مملوءاً في تلك الأيام، قال كما ردّد الذين حضروا: "هي عند الجن، محظية لصبي من صبيانهم اسمه شاخور، وستعود يوماً".

وقد كان. حين مات شاخور في عراك عنيف مع صبية جن آخرين على جيفة كلب، عادت، وكانت تلك العودة المهووسة التي أعلنت عنها في أول ظهور جديد لها، ولتصبح بعد ذلك طابخة ضغائن متمرسة، يأتيها البعض في مكانها المنعزل من أجل طبخ المصائب، وتخاف منها معظم البلدة، تتوجس حتى من ذكر اسمها.

والآن، التفتت إلى الزبونة الأكثر احتراماً لمطبخها المهووس، والأكثر سخاءً في ضخّ التكلفة، طمأنتها بابتسامة أم كبرى حقيقية اخترعتها من أجلها، قالت:

- اذهبي يا حورية، اذهبي لتنامي يا حبيبتي... لن يأخذوه منك أبداً.

وذهبت بعد أن دفعت سعر الطمأنينة بسخاء.

كانت ما تزال مرتبكة وحائرة، وقد انتفخت مصارينها بغازات أزيد كثيراً من غازات يومها العادي. كانت بالطبع تثق في مطبخ بديعة، تثق في قدراتها التي جاءتها بمن أرادت بالفعل، لكن شاشوق لم يكن مسالماً، وعلوب الحضرمي ذهب بإرادته، لا بإرادتها. صحيح أنها تخلصت من شاشوق، ولم تسعَ إلى بديعة لإطالة بقاء علوب عندها، حتى تتأكد من فاعلية وصفاتها تماماً، والآن تحس بشدة بأنها غير متأكدة من شيء.

ألقت بكيانها المرتجّ إلى جوار الزوج الغارق في نومه بلا أي

أفكار، وبعقلها المرتج أيضاً غرقت في الوساوس. حلمت وهي متيقظة، ورأت في حلمها أزواجها السابقين يجيئون جميعاً بأيد متشابكة، ينحنون باحترام أمام الزوج الشمالي، رأت هندوب الأتمني يهديه خنجراً مسنوناً، والحضرمي يهديه مقويّاً من مقويات المتعة على شريط أزرق، وشاشوق رمز القوة يلقي إليه بعضلة مفتولة من حطام رجولته، وقبر قبر سلاس المغني ينشده أغنية لا تشبه أغانيه التي عاش ومات مضعضعاً بها. وحين غفت في النهاية غفوةً حقيقية كانت نظيفة من أي خدش لأن جسدها ارتخى، وشخيرها ارتفع معانقاً شخير الزوج بجوارها.

الغشيم كرو من ناحيته كان خارج ترف التطورات الأخيرة، ودخلها بلا وعي، متكئاً على ساق حمار مشرد في أحد الأزقة، شم أنفاس الشمال الرطبة، وسمع بأذنيه عراك دم، قطع الاتكاءة مشروقاً، وهوى إلى الوقائع بالثقل كله، اندسّ وسط الغرباء، صلى معهم في المسجد الكبير، استخار معهم وهم يصلون صلاة الاستخارة، بلّ ريقه من تمر كما فعلوا، وأيقن بما لا يدع مجالاً لأي شك أن سيرته الذاتية التي كتبها باستبداد، وأرهق بها قادة الأمن الوطني في البلاد، قد نالت تقديراً في آخر الأمر، وأرسلوا حملتهم القوية لاصطياده. اهتاج فجأةً وهو يواجههم، صرخ بعينة عشوائية من هتافه التحريضي ضد السلطة، ركض إلى إحدى الأشجار القريبة، حيث يسترخي أحياناً، وعاد بملفّ مختوم بالشمع العادي يحوى حماقاته التي ارتكبها منذ عاد من المعتقل البعيد. سلّمه للغزاة ومعه يديه ورأسه وقدميه، قال، وقد جلجلت عروق رقبته وطاشت

عيناه إلى بعيد: "نعم يا جنرالات، رمياً بالرصاص، ليس أقل من ذلك". أمسك به الغرباء للحظة غائمة، ثم أطلقوه وهم يرتعدون، دلّتهم عشرات الأوصاف والدلائل إلى شخصه الكريم. الغشيم كرو شاويش، أحد ثلاثة نشطاء هم ألدّ أعداء رئيس البلاد، لكن قلبه يحبهم، ومن يحبه الرئيس يحبونه وأكثر.

كانت أسلحة الغرباء تغلي في مكامنها، وغيظهم يترمّل في الصدور، حين فكر الغشيم باستبداد خدمته القديم أن يخدم نفسه شخصياً، انفلت بخفة إلى أحد مواقع البناء، أحضر حجرين عريضين من حجارة الأسمنت، دهنهما بلون أبيض، وبسكين حادة نحت عليهما اسمه وتاريخ ميلاده كما خمنه، وتاريخ وفاته الذي حدده. كتب: "يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية"، ولمّ عدداً من إخوانه المجانين، درّسهم على عجل قواعد النعي واحتضان الفقد، وكيفية تقليب الوجوه لاستقبال المعزّين، كتب إلى قادة الأمن الوطني رسالة أخيرة ومؤثرة شكرهم فيها على سوء استضافتهم له حين كان ضيفاً عليهم، وحمّلهم تحياته لنيقولا القسيس، راعي الكنيسة الحبشية، الذي زامله في المعتقل بتهمة تأسيس حزب محظور، وأمونة بائعة اللبن المتهمة بالخيانة العظمى، والشاويش حيدر المتهم بالإضرار بالاقتصاد الوطني، والرائد طلحة عبد الهادي، قائد انقلاب السادس والعشرين من أغسطس، المسمى ثورة الورد، أكثر الانقلابات رومانسيةً في التاريخ. طالبهم بطمس تذكار كتبه على حائط الغرفة ١٧، في الجناح الشرقي من السجن الكبير، ودعا لهم بالتوفيق والسداد في مهامهم الجليلة، ثم حمل قلة

من الماء، وباقة من زهور زنبق الصحراء، وكفناً أبيض اشتراه بآخر جنيهات في جيبه، وتوجه إلى مقابر البلدة. كانت مشيته أقرب إلى مشية حمار يعرج، عيناه بلا علة أو ذهول، ورموشه فارعة الطول بشكل لافت للنظر.

-٢٤-

اختفاء الغشيم كرو شاويش، جرذ الوقائع المستبد، المطرود فجأةً من تلك الوقائع وظلالها، لم يغيّر من النص المكتوب حرفاً واحداً. وصمت شاطر تاجر الأغذية والمحجوب صائغ العرائس، وانغماسهما في البيع والشراء والصحبة، ولعبة اللونا الورقية بتعصب وحماس شديدين، أضاف إلى النص فراغات بيضاء مُلئت بالنقاط والصور القديمة وعلامات التعجب والاستفهام.

حتى المدرّس الغريب نفسه، وبرغم وجوده المكثف في معظم صفحات النص، حيث يعمل زوجاً شبقياً، ومدرّساً لمواد العلوم والدين والجغرافيا، ومثرثراً أحياناً، ومشترٍ من السوق، وماشياً في الشوارع، ومعطّراً بعطور الدلال، ومتأنقاً إلى حدّ ما، ومتصارعاً عليه بين ريفين نقيضين في الشرق والشمال، إلا أن صفحات عدة تخص انفعالاته عند ملاقاة أهله ظلت جرداء، وحفلت ببوار في العواطف لم يسبق له مثيل. التقى أفراد عائلته، عائلة سمارة، وبقية الوفد المشكل لالتقاط نخوته وإعادته إلى حظيرته القديمة، التقاءات ما كانت تحدث لو انه التقى بوجهه في المرآة. أدهشهم بسلام بارد من

رؤوس أصابعه وسؤالهم عن حالة الطقس، والضحك المبتور الممزق، والسياحة في ملامحهم بلا مبالاة، وتوجيه ملاحظة لا تليق إلى أحد الشيخين المتصوفين، حين انتقد خضاب الحناء على لحيته وسراويله القديمة، وعطره الذي كان خليطاً من العطور الزيتية. أدهشهم أكثر حين نكشوا له واحداً من ألقابه القديمة، نفضوا غبار ثلاثين عاماً عن اللقب ونكشوه بتقنية بسيطة وسهلة، صرخوا بصوت واحد:

- يا عبده شبعان... يا عبده شبعان.

فالتفت التفاتة مستمع فضولي عادي، يجول بعينيه في الجمع الملتمّ حوله يبحث عن عبده الشبعان هذا، ولا يجده. وحين أبرزوا له جزءاً من دلال زوجته، وصرخة ملائكية لأحد أطفاله الصغار، وسكرات الموت لجده المحتضر، ووصية سائق المعدية الشمالي التي أخرجوها من ذممهم، ووضعوا الحمولة في قلبه، لم يبدُ على ذلك القلب أنه انتفض، وأرسل رسالة الانتفاض العاجلة إلى الوجه والحاجبين والأطراف، لتقوم بالمطلوب من عجب ودهشة وتعديل لبروده الغريب. قال: شكراً، ومضى إلى أحد باعة الخضروات القريبين، اشترى حزمة من الجرجير وبصلتين وسبع حبات من الطماطم، وعاد ليسألهم: هل عثرتم على عبده الشبعان؟

اضطروا أن يصبغوا شعر الرأس والحواجب واللحى حتى يتعرف إليهم شباباً، وأن يخفضوا من التجاعيد على وجوه الكبر بقدر المستطاع حتى ينساب إلى صباهم البعيد صبياً، اضطروا أن يسبّوا ويتّفهوا، ويبصقوا على الحوائط، ويضربوا عدداً من المتطوعين تعاطفوا معهم، ويحلفوا طلاقاً حتى يرى بذاءتهم ويتذكرها، وأن

يرفعوا القمصان إلى مستوى السرة حتى يذكر استدارات بطونهم ويلكزها، كما كان يفعل في الماضي، اضطروا أن يتصارعوا عراة أمام الناس، حتى يعدّ سلاسلهم الفقارية، وأن يبكوا جماعة حتى يتذكر جلساته معهم في عزاء بعيد، اضطروا أن يتصنعوا الغثيان، والموت المفاجئ والشلل النصفي، حتى يشفق عليهم، وأن يسكروا بعرق البن والذرة والبصل حتى يرتقي بصوته ويزجرهم. مارسوا الزحف على الأرض، وتسلقوا الحوائط، ورطنوا بلهجة ريفهم البعيد، وانقلبوا حواة ومهرجين ودمى وحميراً يركبها الأطفال. كان عبد النبي يسمع ويرى ويندهش باندهاش ريفي عادي، ويستغرب من كل ذلك العبط الغريب.

كان كبير الغزاة صالح سمارة قد تدرب على قيادة حملته بأخلاق جنرال أساءته الهزليات التي مارسها برفقة أتباعه و لم ينتج عنها سوى انكسار الهيبة. راجع حساباته بسرعة وقرر، بلا مجال للتراجع، أن يلمّ حملته من جلد الحكاية اليابس، المتمثل في لقاء أخيه في الشوارع ومحاصرته، ويتجه بها إلى اللحم الحي، ممثلاً في مواجهة حورية مصلح الحضرمية.

هم الآن في بيت الحضرمية الطيني الذي يشبه بيوت البلدة في كل التفاصيل إلا غليانه وبعض الإضافات الشاقة الأخرى التي كانت من نسج الغشيم كرو، جرذ الوقائع الذي اختفى. لا بد من حصائر من سعف النخيل والدوم، وأزيار من الفخار المشقق، ووسائد من القطن المضغوط، وأسرّة من الحبال، وموقد يعمل بالكيروسين، وفوانيس شاحبة الضوء، وشقوق على الحوائط، وصور تذكارية، ورائحة بن. لا

بدّ من أوانٍ ملطخة بالدهن، وبهائم جائعة، ودخن مخزون، ومصباح يدوي، ولا بد من راديو عتيق من ماركة فيلبس، هناك حيث لا متاريس للغشيم كرو لتصدّ المتطفلين غير المرغوب في مجيئهم، حيث عادت ثعالب البر القديمة وذئابه تتباهى بتصيد الغنائم، الجرذان لا لتبحث عن تسلية قارضة فقط، لكن لتمارس تلك التسلية عن حقد وبذاءة غريبين، النمل المجنّح يلدغ، الأرضة كثيفة وجائعة، وعلب سجائر الكنت المهربة تتناسل حتى في المرحاض وداخل خزانة الملابس وعلى سطح البيت، هناك حيث آثار الغشيم نفسه موجودة في انطماس بعيد، ربما أبعد من التاريخ نفسه، والرقم الفظ لقميص سجنه الدمور ملتصق بحائط، لم يسع أحد إلى إزالته. هم هناك بالفعل وفد شمالي رفيع المستوى، يزاحم في الرفعة حتى وفود الدول المشاركة في أي سلوى وتوهان، فيه قادة، ونواب قادة، ومصلحون اجتماعيون، وشيخان من المتصوفة، وعرافة تفكر وتُعدّ أسلحتها. لم يطلبوا الإذن ليدخلوا، ولا طرقوا الباب، ولا قالوا: السلام عليكم، وسمعوا: وعليكم السلام، ولا قالوا: مساء الخير، وسمعوا: مساء النور، كانوا متوترين بشدة، وكانوا فاتحين غير أكيدين هذه المرة، لأن عبارات الفتح لم ترد على ألسنتهم أبداً، ولا قفزت علامات النصر العرجاء إلى أصابعهم. كانت الإذاعة تعلن عن هدنة ما في حرب ما، ونصائح طرية لدعاة سلام، قرفوا من الحرب، والتسلح، ومجاعات أفريقيا. هم الآن أقرب إلى الحضرمية من حنائها وزينتها وودق الشعر النازف على رأسها. وجدوها قائمة في البيت، فيها رائحة طلح معتق، ورائحة عطر، لم يكن عطر "كوكو" الحالم، ورائحة قلق حقيقي تخفيه بدقة. كانت

تعتذر بنعومة شديدة للغاية لمثقفين ريفيين، ومراهقين، ومجانين فرغوا من تقبّل العزاء في الغشيم كرو، وطووا فراش عزائه، وجاءوا يسألون عن ميراث ربما تركه. مالت إلى الغرباء الشماليين الذين اقتحموها بميلانها القديم، ميلان حورية التي تصلح زعيماً حركياً، ومتمرداً انفصالياً، وموظفاً في التموين؛ ميلانها الذي مال على قصر الرئاسة يوماً، وخرج برائحة الرئيس ودردشته، وتعليمات مشددة إلى ضباط المجلس الريفي لمنحها بيتاً وتموينا وراتباً شبيهاً برواتب موظفي الخدمة المتقاعدين؛ ميلانها الذي مال على شرق أفريقيا التي تبعد مسافة رأس السنة عن ذيلها، وجاء بهندوب عيس الأتمني، فارساً فحلاً، ليعشقها ثلاثين شهراً ويمضي إلى ذمة لا أحد.

خاطبت الغرباء، والسن الذهبي البراق في مقدمة فمها يبرق، عيناها المكحلتان بالكحل الاستفزازي تبرقان، والشعر المتفوضج المدلوق على ظهرها يبرق أيضاً:

– ماذا تريدون ؟

– نريد أخانا عبد النبي.

تحدّث صالح سمارة، وكان أقرب إلى الارتباك.

– خذوه إذن، إن كان ينفعكم بشيء.

ردّت بلا أي تشنج، ثم أطفأت البروق المتعددة كلها: أغلقت الفم، وأغمضت العينين، ولمّت شعرها من الظهر، غطّته بطرحة معطرة. كانت في واحدة من لحظات الشبع الجليل، لأن قامتها الرشيقة الشحم كانت راسخة في أماكن عدة من سرير الحبال الذي تجلس عليه، وجهها محفور في مواجهة الغرباء، وجهاً مواجهاً،

وساوسها التي أرّقتها، بعد خروجها من مطبخ الهوس، قد زالت تماماً، وقرارها العادل بالإنصات إلى أولئك الغزاة من دون أن تحك رأسها، أو تسمح ليديها بالارتعاش، أو تشعل سيجارة مهربة واحدة، أبقاها في موقع الند، نداً حقيقياً: خذوه إن كان ينفعكم، وتكاد تضحك، لكنها ستؤجل الضحك.

كانت الصورة المرسومةِ لأخيهم الآن أقرب ما تكون إلى صور كائنات فضاء فُرشت على كتب الأطفال، إلى صور ببغاوات مروضة، وصور رؤساء مخلوعين، في بزات مخلوعة، وأربطة عنق مخلوعة، وعلى أغلفة مجلات لا يقرأها أحد؛ كانت في حاجة إلى كثير من الحذف والإضافة والترقيع، وربما وزن الألوان ودمجها حتى تنفعهم بشيء. تعاونوا على بلّ ألسنتهم بالريق، وتمسّكوا بمبدأ الهدنة ريثما ييبس عرق أجسادهم، ويختفي المخاط الذي لازم أنوفهم ولا يشمّون غيره. قال أحدهم:

– نأخذه من دون سحر، كما جاء إلى هذه البلدة. فكي سحره نترجاك.

– سحر! أيّ سحر؟

قفز إلى صوتها إنكار أجادت تحويله، بما تعضّ عليه من تماسك، إلى حقيقة ساطعة. نفس الإنكار الذي بثته الإذاعات كلها ذات يوم على لسان رئيس سابق قام بتهريب يهود رعاة إلى وطنهم المزعوم؛ الإنكار نفسه الذي سيظل الرئيس ينكره كلما اغتاظت الدنيا من إنكاره الأول. دعمت حورية إنكارها بإجراء عملي سريع كان اختصار نعاس الضحى للزوج الغريب من عشر دقائق حدّدتها له

مسبقاً إلى سبع فقط، استدعته من الغرفة الداخلية للبيت، وبلا أي تعليمات أو حتى نظرة محرضة، دعك عينيه، ورطب لسانه بشفتيه، واحتضنها بقوة، غير عابئ بترنحات الغزاة وجلطات الدم التي قد تقتلهم، وهو يستميتون لاستعادته. كان يحب زوجته بالفعل، ويموت فيها ومن أجلها بالفعل، وسيثأر لها من أي مضايقة أو تعكير لمزاج الحب، وسرق في تلك اللحظة واحداً من أصوات الرجولة العديدة التي تحتفظ له بها، وتمنحه إياها في وقت الطوارئ، طرد الغرباء وهو يصرخ: يا حواة، يا مهرجين، يا بلهاء.

واستعاد البيت محرراً للعسل المتآمر حتى يستمر إلى ما لا نهاية.

كان الغزاة يصطلون بنيران إخفاقهم، ويجففون العرق واللهاث حين صرحت الإذاعة: "إن تلك الهدنة المبرمة في مكان ما قد انتهت بلا رجعة، وإن دعاة السلام المستائين من الحرب ومضاعفاتها سحبوا استياءهم فجأةً وانسحبوا من الحوارات".

الآن ثمة دور جديد لدوار جديد، وتمائم الشرق عصية على الفكّ، كما كان يردّد سائق العربة الجريفي، وكان بعيداً عن كل ما يحدث، مسترخياً في بيت امرأة يعرفها منذ زمن.

الشيخ المديد والشيخ جابر الكسر، المتصوفان عضوا الوفد نيابةً عن القوى القاهرة للشر في الشمال، حيث أُدّيَ القسم المتشنج بإعادة عبد النبي إلى أرضه أبيضَ من غير سوء، وقديماً من غير جدّة أو سحر، وربّاً أسرياً من غير شبقٍ دخيل، منكبّان في بئر الوقائع حتى القاع: نصبا خيمة من قماشٍ أخضر باهت، استلفاها من المجلس المحلي، حول بيت التآمر، واعدين بإعادتها نظيفة ومتألقة، لتلحق موسم العيد الذي

يقترب. غرقا في التهجد والتمتمة الغريبة، وأوقدا بخور التيمان ذات الرائحة النفاذة، الذي كان محرماً من العربدة في مباخر حورية منذ زمن طويل، إنه بخور العين والحسد، والطارد لأيّ شر مهما عظم، أوقداه بضراوة، لدرجة أن طائراً حاسداً من طيور اللقلق، كان يحسد حتى البوم على نعيقه، والغراب على سواد بشرته، والزرازير المنتوفة الريش على عريها، وكان ينام على شجرة في الجوار، شمّه فسقط من أعلى الشجرة بلا روح؛ لدرجة أن عنزة محسودة تملكها امرأة في البلدة، و لم تجُد باللبن أبداً من قبل بسبب الحسد، جادت به الآن وفاق عبوة جردل كامل؛ لدرجة أن أذناً محسودة لأحد أهل البلدة، منعته من السمع أعواماً، وأضاعت عليه الكثير من المتعة والتآمر ومصّ الأقاويل البيئية، انفتحت في ذلك اليوم عن آخرها، وامتصت كل شيء؛ ولدرجة أن سبعين مستقيماً محسودة، معروفة بالإمساك منذ زمن، أسهلت في ذلك اليوم. لكن العسل الضبابي المتآمر لم يهتز شعرة واحدة. خرجت حورية من بيتها مزكومة، ومتبوعة بالزوج الملطّخ بالحاضر، بعد أن غسل معظم ماضيه. مالت على الغرباء بميلانها قديم، ميلان حورية مصلح التي اتشحت بالتشاؤم، بكت أباها بعد أن مات بأكثر من ربع قرن، لأنها تذكرت عسل عينيه فقط، وأنه أعطاها ذات يوم قطعة حلوى. وبكت على أمها بعد سبعة وثلاثين عاماً من فرارها بصحبة واحد من أعراب البطاحين، لأنها تذكرت رائحة حليبها الغجري. كان أنفها ساخطاً وهي تطالع الغرباء، أرادت أن تلعنهم، وأن ترشهم بمبيد الصراصير، لأنهم صراصير في نظرها. أرادت أن تعاقب الضحى والقيلولة والصباح لأنهم خانوها عن جدارة، وتشهق في ذلك المساء

بشهقة معذبة، لأنه مساء معذب، ركضت إلى لجّة البخور وهي تغطي أنفها، صرخت:

- اذهبوا... اذهبوا من هنا.

صرخ الزوج من خلفها:

- اذهبوا... اذهبوا.

وذهبوا، لكن ليس بعيداً، وإنما عميقاً في اللحم الحي.

-٢٥-

في البداية حذرتهم عرافة الشمال بنت النيل التي أحضروها معهم، أخبرتهم أن يعضوا بالنواجذ على كل ما يخصهم حتى لا تتسرب خصوصياتهم إلى العرافة التي سحرت أخاهم، وربما تسحرهم أيضاً. أوصتهم أن يأكلوا بحذر، ويسوكوا أسنانهم بحذر، ويتبرزوا في حفر عميقة، ويخلطوا بداخلها فضلاتهم بفضلات الدواب، وإن شاهدوا أشخاصاً لهم لحى وقورة، أو غرر صلاة على وجوههم، أن يحذروهم، لأنهم في الغالب أباليس بديعة حسّاب، وأرسلتهم للتلصص.

بركت بنت النيل بعد ذلك في الوقائع، رسمت ملامحها كما ينبغي لعرافة، طلبت إمهالها عشر دقائق فقط حتى تشمّ الضحى بإخلاص، والمساء القادم بنكران ذات، تلمّ أتفه أباليس في الدنيا كلها، وتقضي على بديعة حسّاب، وتجتث جذورها بالكامل حتى لا يحبو لها شياطين في أي وقت آخر.

أمهلوها عشر، وعشرين، وسبعين دقيقة، كانت تتنرفز من استعجالهم إياها، تمرض وتتعافى، تنام وتصحو، وتشخر، وتنادي

على المسحور بألقابه الثمانية والعشرين التي اكتسبها في حياته وزوّدها بها أهله، كانت تلصق بكل لقب توجعاً خاصاً، وبكل صفة نداءً أسيانَ، وجاءت بديعة حسّاب نفسها، محدثةً دربكةً وخوفاً في نفوس الغزاة، ورغبات مؤكدة من بعضهم في الفرار والعودة إلى أهلهم سالمين، لكن غرض الساحرة لم يكن إيذاء أحد منهم، لقد جاءت لتسخر فقط. بركت أمام بنت النيل، ابتدأت ترشّها بماء الأزيار، وتسقيها من بصاق نبات العشر المهيّج للمعرفة عند الساحرات كلما دخلت غيبوبة. كانت بديعة حسّاب مستغربة بشدة، تذكرت طفولتها في السحر حين عادت من عالم شاخور شمرّس، واستغربت أكثر أن يُزجّ بعرافة يرقة في مثل ذلك الماراثون العالي اللياقة.

كان ليل البلدة يمضي متسارع الخطى، يحمل وجع الأضراس نحو وجع أكبر، وتسوّس القوى القادمة من الشمال نحو تسوّس أكبر، كان يحمل الحصوات إلى الكلى، واليباس إلى الريق، وأوجاع المصارين المزرية إلى مستوى غريب. لم تكن ثمة سلطة أقوى من سلطة الحبكة التعسة، لا نعاس سوى الذي يفر سريعاً، تاركاً أرقاً مسيطراً.

اشتعل البخور في تلك الخيمة بكثافة أشد، وبدأت أصوات الذكر تّذكر والعياذ من الشيطان تستعيذ. تغيرت أردية الشيخين المتصوفين من أخضر إلى أصفر وأحمر، ذهبا مرة إلى مدخل البلدة ليستعينا بضريح الشيخ قماش، الذي كان مهدّماً ويابساً ولا يزوره أحد إلا نادراً، فلم يفد في شيء، لا شهقة نبعت، ولا غبار أسود تكوّن. وجاء عدد من المتطوعين، ممن كسروا حاجز الخوف من الحضرمية وبديعة حساب، بتراب كثيف استخلصوه من قبر الغشيم كرو، الذي حدّده الشاهدان

الحجريان المكتوب عليهما اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته، وبات من الممكن زيارته، والاستمتاع بزهور زنابق الصحاري وهي تتفتح في بداية الشتاء. سلّموه لبنت النيل عرّافة الشمال مصروراً في خرق نظيفة، قالوا: استخدميه يا خالة، عسى ولعل. استخدمته في عدد من التجارب، ولكن لا جديد.

الآن أصبح مألوفاً جداً أن يتوقف عمال البناء والمزارعون والتجار عند خيمة الغزاة صباحاً وهم ذاهبون إلى أعمالهم، يتوقفون عندها عصراً وهم عائدون؛ من المألوف جداً أن يتجمّع الهرج في ساعات الملل، يعثر الأطفال على سلوى، وربما شفقة أو عطف، تعثر النساء على خامات للنميمة، تعثر المراهقات على نظرات مشجعة، والمراهقون على حجج قوية تبقيهم سكارى بعطور الغرام المنتشرة، وانتقل عدد من التجار ببضائعهم الخفيفة، رصّوها أمام مركز الغليان، واجتذبت الشراء بالفعل.

كان من المألوف أن تأتي بديعة حسّاب، تتفقد المكان وتمضي، من دون أن يهابها أحد، وفي أحيان قليلة كانت حورية نفسها تأتي، تغطي أنفها المزكوم، وتصرخ لعدة دقائق، ثم تعود إلى بيتها. وفي أحد الأيام جاء العمدة القديم صابر علي، كان مهدّماً بمعاول العمر، و لم يكن عمدة فاعلاً في تلك التطورات ولا غيرها، وقد جاء بتحريض قاسٍ من إحدى نسائه اليانعات، ما تزال، أملاً في العثور على دواء عند المديد وجابر الكسر يعيده إلى فوران منتصف العمر، من دون أي اعتبار أن الشيخين المتصوفين كانا في مهمة أكثر إجلالاً من مهام المتعة الزائلة. أيضاً جاء شاشوق رمز القوة السابق في عدة أمسيات، لم يكن

في الحقيقة يبحث عن شيء محدد، كان مجرد عجوز بلا مروءة، يأتي ويذهب مستنداً على سواعد الآخرين. ولأن فريق النحلة الكروي تحت التأسيس لم يؤسَّس، وعلى الأرجح لن يؤسس أبداً، فقد كان لاعبوه المفترضون يأتون بشكل يومي، يزرعون عيدان الذرة على مقربة من المكان على شكل مرمى، ويلعبون بهياج وعصبية وسباب لبعضهم وللحكم الذي يكون في الغالب أميّاً في ما يتعلق بالرياضة، ويشدّون بعض المشجعين.

كان الزمن يسترسل بعادة الاسترسال التي تملكها الأزمنة دائماً. يسترسل بوقائع الحصار، ووقائع الصمود في وجه الحصار معاً، تغير في زمن قليل، كمّ هائل من الثوابت الراكدة في مجتمع البلدة، و لم يتغير أي مسار في الحياة المتآمرة المحاصرة. كان النص مكتوباً بدقة، خالياً من ثغرات الحكاية وعيوب الإملاء والنحو والصرف، فراغات شاطر والمحجوب وغيرهما، ممن اختاروا الفراغات، تُملأ بالنقاط وعلامات التعجب والاستفهام، وغياب الغشيم كرو لا يترك أي أثر يذكر.

كان عبد النبي المدرس يصحو كل صباح صحيان نائم مستقر، يحتسي كوب شايه بنكهة النعناع، يلتهم طبق الفول ومربى القرع والبطيخ بطريقة عادية. يستجيب لدعاءات التوفيق التي ترددها الزوجة المتآمرة بابتسامة، يتأنق ويتعطر، وينساب إلى المدرسة انسياب معلم حقيقي. يدرس منابع النيل ومصبه وتضاريس الصحراء بدقة، والرسوم البيانية، وهياكل الحشرات، والضفادع والصراصير، وجزيئيات حلقة البنزين، كما كان يدرسها في أي وقت سابق. يتحدث عن الصوم والصلاة المفروضة والنافلة، ومآثر الجهاد العظيمة التي لا تهمل إلا في

الأزمنة اللئيمة. ربما استاء من رائحة بخور التيمان القوية التي تشتعل قريباً من بيته، ربما أزعجته الأدعية والتراتيل التي لا تنقطع، وهستيريا عرّافة الشمال التي تعرق في وسط متعته، ووجوه أعضاء الوفد التي ذكّرته بوجوه مأزومة شاهدها في حلم مأزوم، وربما استغرب ذلك الصمود الغوغائي العنيد لعدد من الغرباء جاءوا من الشمال ليستعيدوا مفقوداً، هو أصلاً لم يكن، وعندما يشتد الزحام وتصرخ الفوضى، خاصةً في أمسيات اليباس والملل، يضطر أن يصرخ، ولا يسمع أي صدى لصرخاته.

عبده الشبعان؛ عبده البكّاء؛ عبده ناكش أنفه؛ عبده البغل؛ عبده الكسير الحظ، - ألقاب يسمعها تُردَّد ولا يعرف أصحابها، لم تكن ذاكرته المحبوسة بإتقان عند بديعة حساب تأتي إلا غباشاً مستهتر التذكر، كان يحيا بالذاكرة الحاضرة، المطعّمة بماض شحيح، مهاجراً شمالياً يمسك بالإصبع الكبير للهجرة، ومدرّساً ابتدائياً، وصهراً لإحدى العائلات المحلية، وعاشقاً فذاً لامرأة مزركشة، جائعة العواطف، ونادماً على سنوات جدباء، لا يعرف أين أنفقها، ولا كيف ندم عليها.

في المدرسة، أخبره بعض التلاميذ الأشقياء مراراً بالمكيدة كلها، منذ أن اقتحم الغشيم كرو قيلولته إلى الآن، أخبروه بالعربي الفصيح، وتهتهة اللسان، والرطانة القبلية، وحروف الإشارة، وعاقبهم بتلذذ، بأن أوقفهم في طابور عقابي لعدة ساعات، ليظل النص المكتوب محكماً بلا ثغرة. أخبره الزملاء أيضاً بالضغينة من ألفها إلى يائها، ومن طفولتها حتى ابيضّ شعرها، قاطع صحبتهم وازدراهم، حتى يحتفظ

النص بتماسكه، وقال له مدير المدرسة في أحد أيام انفلات الأعصاب، التي تكالبت على البلدة بغزارة، ودعمت من انسياب المشاكل الزوجية وارتفاع معدلات العنوسة والطلاق، وبقاء المدير نفسه أعزب، حين طلق امرأته بعد زواج مديد: إن القرار بيده، ويستطيع في أي لحظة أن يفر بعقله الجديد المسحور إلى الشمال، ليستعيد العقل القديم على راحته، وسط أهله وعياله، وبمساعدة خبراء أكثر حنكةً من هؤلاء الذين جاءوا، فاستغرب بشدة: أي عقل جديد؟ وأي عقل قديم؟ وأي عيال وأهل؟.

أخبره بعض التجار في السوق، بعد أن تشجعوا وقهروا الخوف، وأخبرته الطرق التي يمشي فيها، كلها، وذهب به كثير من المتطوعين والمرتبكين، ومن صنفوا أنفسهم رعاة الصالح العام، بعد فوات الأوان، ذهبوا به إلى بيت بديعة حسّاب، في انزوائه البعيد عن تضاريس البلدة، نكايةً بتلك التضاريس، اقتربوا به بحذر، وبالقدر الذي يسمح لعينيه برؤيا تحمل حدّاً أدنى من الضباب، أشاروا له إلى مطبخ الهوس الذي طبخت فيه الضغينة، وضغائن أخرى عدّدوها له، وملأت عدة صفحات من الألسنة المتهيجة. قالوا: "يا عبد النبي، يا أستاذ، لديك من الأغراض في ذلك المكان ما لدى العمدة من الفدادين في أرض البلدة، وما لدى الوطن من الموتى في الحروب والمجاعات، وما لدى القمر من الضياء وهو بدر"، فما صدّق أبداً، اغتاظ، و لم يعد يلقي السلام على أحد، أو يردّ إن حيّاه أحد. وحين فكر في استشارة شاطر والمحجوب، كتاجرين معروفين، سيسعى للتعمق في صداقتهما بلا شك، وربما يطفئان كل تلك الأقاويل، لم يجدهما،

كما كان يتوقع. وجد تاجرين صارمين يبيعان ويشتريان، ويفرزان مزيداً من الصفحات الممتلئة بالنقاط وعلامات التعجب والاستفهام. اكتأب في أيام كثيرة ظنّ فيها البلدة ضده، عاد إلى طبيعته بإصرار من الزوجة المزركشة، ليزداد تحرّشاً بمتعته، يزاول الركود في البيت بعيداً عن المدرسة والشوارع، وفكّر في الهجرة بصحبة المعشوقة إلى بلد آخر لا يضايقهما فيه أحد، لكن ذلك لن يحدث. هي مجرد فكرة ومضت، وأطفأتها الحضرمية قبل أن تتحول إلى ضوء ساطع.

في كثير من الأحيان كان يبدو متألقاً رغم استيائه، يلحّ في دعوة أعضاء الوفد المرابطين إلى غداء ودّي في أحد المطاعم، أو لعبة ورق حامية، أو يعرض أن يشتري لهم ألحفة وبطاطين لاتّقاء البرد. وفي أحيان أخرى يستلف منهم نقوداً لشراء التنباك من عند شاطر، واستخدامه سراً، لأن الحضرمية حرمته عليه. وبلغ من ازدهار الودّ بينه وبينهم، في وقت من الأوقات، أنهم وجدوا فيه مدخلاً فسيحاً، وابتدأوا مفاوضته. عرضوا عليه وظيفة مدرّس للعلوم والدين والجغرافيا في إحدى قرى الشمال البعيدة، والزواج من امرأة بائسة تقيم في نفس القرية لديها سبعة عيال مساكين سقط والدهم في ضغينة السحر. وبالغوا في الولوج من ذلك المدخل حين عيّنوه مدرّساً بالفعل، وزوّجوه من المرأة بالفعل، ونسبوا العيال المساكين إلى أبوته.

كان يضحك أحياناً وهو ينقر على بطنه، يبدو في الضحك قريباً من عبده الشبعان الذي يعرفونه، حتى ليكادوا أن يقلموا أظفار الحصار، ويأخذوه عنوةً، يبكي أحياناً، يبدو في البكاء ونهج تساقط الدموع من عينيه كأنه عبده البكّاء الذي بكي معهم عميد العائلة

طاهر سمارة حين مات. يتحدث وهو ينكش في سرته، فيبدو عبده النكّاش الذي يهضمون حماقاته، ويعيش في دمهم. يمشي مقوّس الساقين، وبطنه تهتز، فيبدو عبده البغل الذي أضحكهم كثيراً. يسأل عن حمار بنّي مربوط في إحدى زرائب الماشية، يهبطون من التعب لاحتضانه، يصرخون: "حمارك يا عبد النبي، حمارك لا يزال مربوطاً حيث تركته، وحزمة مساويك يابسة مركونة على رف"، يصرخون: "والله ما زالت على رفّها لم تُمسّ". يسأل عن امرأة تخصّصت في قمع المغريات، تعشق روائح الثوم والبصل، وأقمشة الكستور، وجلسات الضحى النمّامة، ينفجرون كلهم: "هي... هي حرمكم سكينة مبروك". وحين ينقلب فجأةً يصرخ بأحد أصوات الرجولة التي تخزنها له الحضرمية، وتبرزها عند الضرورة، أو يسعى لإحضار مبيد الرش لإبادتهم كصراصير، تتأزم قلوبهم، ينكفئون على أظفار الحصار، يسنّونها من جديد.

تلك الأيام، فوجئ الغزاة بالأنباء التي جاءت من الشمال، وتقول إن زوجة عبد النبي، وأم عياله، قد وصلت حدّاً من الكآبة أنها وضعت أهلها أمام خيارين: إما أن يتركوها تذهب حيث السحر والمسحور، لتقدّم خدماتها كمعشوقة قديمة قد تنحلّ المعضلة على يديها، أو تلقي بنفسها في بئر قديم جفّ ماؤه منذ زمن. لم تكن حقيقةً متأكدة من فاعليتها، وإن كان قوامها الذي انهدّ من فعل الحمل والرضاعة، وشعرها الذي ابيضّ بعضه، وتوافه نساء منتصف العمر، قد تكون أسلحة تواجه أسلحة مضادة، لكن عجوزاً في العائلة شجعتها، أخبرتها في سرية تامة بإحدى الوصفات القديمة كنّ يستخدمنها في اجتذاب

الأزواج من فخاخ نساء الرقيق، لم تكن في الحقيقة وصفة، كانت مجرد لغو فارغ من امرأة عجوز، أخذته الزوجة الملتاعة على محمل غير محمله، وانطلقت في رحلة السفر بصحبة واحد من إخوتها الذين أسقطوا الخيار الآخر، خيار السقوط في البئر. لكنّ الزوجة لم تصل إلى البلدة أبداً، وفي بداية سكة الشرق مرضت بالهستيريا، وابتدأت في الصراخ ونتف شعرها، ليعيدها الأخ إلى بلدتها مسكينة، كما خرجت، تنتظر ما ستسفر عنه حملة الغزو.

كانت تلك الأنباء قد وصلت بيت الحضرمية بكل تأكيد، وصلت كثيفة وملونة، وقد أعيد تحرير كثير من فقراتها، أضيفت إلى وجه الزوجة مسحة من جمال مخيف، أضيفت إلى قوامها المتهدل رشاقة لم تمتلكها قط، وأضيفت إلى صوتها الراطن مقاطع موسيقية راقصة. ارتجّت حورية بشدة، ضاعت من ذاكرتها طمأنة بديعة في الجلسة الأخيرة، في مطبخ الهوس التي حضرتها بقلب يقترب من نهاية ماراثون. لم تنتظر حتى يتضخم الليل، والقصة الآن ليست قصتها وحدها، تتستر بها في الليالي، لكنها قصة الهوس المعلنة، التي يعرفها الوطن كله، ويتقن روايتها حتى المهربون من أعراب قبيلة الرشايدة الذين لم تكن تعنيهم قصص البلدة كثيراً، و لم يدسّوا أنوفهم في شأن من شؤونها من قبل قط. انطلقت إلى بيت بديعة، وعادت تحمل طمأنة جديدة تلقّتها من فم غاضب إلى أقصى حد.

في أحد الأيام قالت الإذاعة في نشرتها الرئيسية: "إن الحرب ستستمر، وإن كتيبة من المحاربين المنغرسين في وطأتها ضبطوا محارباً من بينهم يخون الحرب بالضحك". ذلك اليوم وجدوا أحد أعضاء

وفدهم يضحك، قالت الإذاعة: "إن الضاحك أُعيد إلى مدينته"، فأعادوا ضاحكهم إلى الشمال، وسدّوا فراغ وجوده باستيراد واحد آخر.

وفي مساء متورّم، كعادة كل المساءات التي لا تخلو من عضّة أو كدمة أو سباب جارح، انطلقت إشاعة قوية وفخمة، ردّدتها البلدة كلها، وتناقلها المعنيون بالأمر وغير المعنيين به على حد سواء. كانت تقول: إن بديعة حساب العرافة في سبيلها الآن للتوبة، وإثباتاً لحسن النوايا ستقوم بإعفاء غريب الشمال من شبقه المسحور، وإعادته إلى ذلك الصباح الذي عطس فيه برائحة التنباك العماري وارد مدينة الفاشر أمام دكان شاطر، تاجر الأغذية والمزاج المرموق في البلدة، وإن عدداً من عفاريتها الأقوياء شوهدوا في أكثر من موقع يحملون عدداً من عيوبه وخصوصياته، تمهيداً لإعادتها إليه. ذلك المساء اقترب الغزاة الشماليون من النشوة الكاملة التي لم يقترب منها أحد من قبل، غسلوا عمائمهم وسراويلهم، تطهّروا، صلوا صلوات شكر متتابعة، وتصدّقوا على الفقراء بجنيهات كانوا يدسّونها للحظة انفراج داعبتهم كثيراً، وشوهدوا لأول مرة عرايا من التجهم وكاسين بابتسامات.

كانت حورية قد سمعت هي الأخرى بتلك الإشاعة، لكنّ خبرتها ومصاريف مشروعها التي جعلت بديعة حساب تطوّر الآن من إجازتها المفتوحة، تقضيها في أحد الكهوف الصحراوية، جعلتها تغرف من تلك الإشاعة ما يجعلها تبتسم. أوقدت كماليات زينتها كما كانت توقدها كل يوم، تمرّغت في الطلح المعطر، اغتسلت بعطر كوكو الحالم، وخرجت للغزاة لئيمة، وصعلوكة، ومتيقنة إلى حدّ الهوس.

صرخت: كذب... كذب. ثم عادت إلى بيتها لتسلق البيض، وتخلط الفول بالعدس، وتعدّ عشاءً مدهشاً. وفي آخر الليل كانت رغبتها في احتضان الزوج أقوى من أي رغبة أخرى على الإطلاق.

عندما زال تورم ذلك الليل، وأطل الصباح مجروحاً كما هو دائماً، وخرج الغريب بنفس مساحيق الشبق التي لا تفارق وجهه، أيقن الغزاة أن الحرب باهظة الثمن، وأسلحة الصد والدوار التي رجتهم منذ جاءوا ربما لن تخرج من أجسادهم أبداً. سألوا عن كل شاردة وواردة، وتجولوا لأول مرة في الريف باحثين عن هواء طلق، وعن عفاريت أقوياء ربما حملوا عيوب أخيهم وخصوصياته بالفعل. كانت البلدة معطوبة، وخاضعة لسيطرة من مسيطر لا يعرفه أحد. عادوا إلى سرر الحصار من جديد، مرّغوا العمائم والسراويل والثياب المغسولة في الأرض.

-٢٦-

الآن رسائل النميمة بين الريفين المتصارعين على الغريب المسحور ملحّنة ومغنّاة ومكتوبة بتقنية أعلى، وأمل، وخيبات أمل أكثر، بعضها شاعري قوي الإيحاء وبعضها تقريري بحت، بعضها يتسلق الهجير ليشوي وبعضها يمشي مستظلاً في الظل، بعضها يبكي بدموع حقيقية وبعضها يضحك بترف، بعضها يستنفر الغدد كلها لتفرز وبعضها لا يستنفر حتى غدد اللعاب الهامشية، السطحية. كانت هي اللغة التي مدّت جسوراً بين الهمج والهمجية، أنشأت مذاقات، ومشاريع، وتبادل لخبرات شتى، وظهرت على صفحاتها بصمات لموهوبين أصيلين ارتقوا بالنميمة ارتقاءً مذهلاً حتى كادت تصبح فرعاً شامخاً من فروع علم الاجتماع. كانت ترسل عبر دوائر الشرطة، ومكافحي الجراد الصحراوي، وموزعي خيبات الإغاثة، والسياح العابرين، وسائقي عربات الهجرة والتفاهات، وبعض قادة الطائرات الهليكوبتر الذين يحلقون في الريف من وقت لآخر.

في الشمال كان وضع عبد النبي المسحور، ومحاولة أهله الغزاة اجتثاث هيامه وإعادته إلى الحظيرة الأولى أبيض من غير سوء ونظيفاً من

دون شبق دخيل، متابعاً بدقة، ومرصوداً بجوانبه كلها، ويرد باستمرار في رسائل النميمة. وصل بروده واسترخاؤه وسعاره ودواء سعاره؛ وصلت رائحة عطر الأماراج المسطل الذي أُهدي إليه من قبل الحضرمية في أول عيد للزواج المتآمر، وكان من العطور النادرة في البلدة، ويأتي مصادفةً في بضائع المهربين؛ وصلت رائحة مبيد الصراصير ذي القوة الثلاثية، الذي رُشّ في الجو المحيط بخيمة الغزاة أكثر من ألف مرة؛ وصلت شتلة من ورد زنبق الصحارى، اقتلعت من قبر الغشيم كرو، وحفنة من التراب، انتشلت من حوله، وعينات متفاوتة من الأرق الذي يلازم المؤرقين منذ أتوا إلى البلدة فاتحين أكيدين، انحدروا إلى فاتحين غير أكيدين من شيء على الإطلاق. وصل عواء الكلاب ومواء القطط وتأوه الليالي وخبر الصفقات التي عقدت في السوق في تلك الفترة، والتي لم تعقد. وحتى تفاصيل المزع الذي حدث في سروال أحد الشيخين المتصوفين وصلت. وحين وصلت ما سميت رسالة الأحزان، التي كتبت بلسان مرتعش، واصفةً هواء البلدة، بالرغم من أنه هواء ريف، بالفساد، وبخور الصندل المعربد في مباخر حورية مصلح بالخلاعة، وفراغات شاطر والمحجوب التي يأبيان بشدة أن يملآها بالفراغات المنحدرة إلى الحضيض. ووصلت عريضة الدعوى التي رفعها بعض أهل البلدة ضد كبير الغزاة صالح سمارة، لدى قضاة المحكمة الريفية، شاكين من وجهه وبهاق جلده وعطره، وإنه لن يصلح فتى أحلام لأي امرأة مهما كبرت في السن وعاشت بلا زواج. بدأت حكايات تجريد التمساح من رجولته، وطيور السمبر اللئيمة من مناقيرها، ولصوص المحاصيل من فرار أرجلهم، تدخل مفرمة

الشك، وتخرج مفرومة النزاهة. أيضاً تلك الصورة باهتة الملامح التي ظهرت لبنت النيل عرافة الشمال في الباب المخصص لقراءة الطالع في إحدى الصحف العاصمية، متسربة بواسطة زائر يحمل كاميرا، والتقطها خفية، لم تظهر بطعم الشطة والملح والبهارات، ولا أي طعم آخر يؤكد فاعليتها في الصمود في حرب، وبدت، في أقصى تذوق لها، مثل ماء عكر يمكن إيجاده في أي جدول.

وضع الترقب والقلق وذبول الغدد، وتنصلها عن جميع وظائفها، في بلدة المسحور في الشمال، أيضاً كان متابعا بدقة في الشرق. وصل تمرّد العرب البدو والرحل، حين أبوا لمّ اللسان في الفم، والتفرّغ لتلقيح النخل وصيانة المباني ورعي الأغنام وجلب المياه من الآبار الضحلة، ونظموا أشعاراً جليلة في الهجر والهيام ونكبات العاطفة، أهدوها إلى البلدة كعبرة وعظة. وصلت مظاهرة الغضب التي نظمها الأهالي ضد اللجان الشعبية المحلية احتجاجاً على النقص الحاد في منسوب ماء النيل ذلك العام. وصلت نتائج الرسوب الهائلة لسبعة عيال مساكين يعيشون مع أم صامتة، ويترقبون مع الآخرين عودة أب مسحور. ووصل حتى انشراخ غربال في أحد البيوت، وهو يغربل الدخن في الذكرى الأليمة للصراع العنيد، ووصلت رائحة الحريق الذي انتحرت به الثقة.

حملت رسائل النميمة المتقنة نظرات فاتحة اللون لصبايا شماليات أبدين حسن نوايا سيئة حين حرضن الرغبات في اتجاهات خاطئة، ونساء أربعينيات اكتشفن حرارة في أثدائهن وجاذبية في كحل نظراتهن وبؤر إغراء أخرى عديدة فيهن لم يكن يعرفنها، وبدأن ينقبن

البلدة وتضاريس الصحراء من حولها بحثاً عن بديعة حساب شمالية تغرزهن في شبق وعر. حملت أخبار حمير غايةً في الغباء، حرنت أمام حقول، ودورات للدفاع عن العاطفة، نظمتها اللجان الشعبية المحلية لمدرسين على لوائح النقل التعسفي إلى مدن وقرى بعيدة، وصبية في طريقهم إلى المجهول، واكتشاف مذهل لأحد السكارى الليليين حين اكتشف نعمة النسيان في موت مفاجئ. حملت الرسائل هموم السحالي، وجرذان المحاصيل، وتمرد طلمبات الماء القديمة، ونسخة من ريجيم الذهول الذي استشرى في أوساط أوزان طلاب العلم، وعطسة جبارة لمزارع كان يشم رائحة تنباك من صنف العماري وارد مدينة الفاشر. حملتها كتحذير عادل ونزيه لجميع أعضاء الحملة المرابطين في الجوع والعطش وتعكير المزاج والسخرية، أن لا يعطسوا برائحة تنباك عماري أمام دكاكين البلدة في وجود نساء مزركشات أبداً، ولا يسكنوا استراحات حكومة في أي مكان يقصدونه أبداً. أن لا يقبلوا بهدايا الفنايل والشورتات الرياضية، ولا عطر بولو، منشط التعصب الرياضي، أبداً. وأن لا يعلقوا سراويلهم على الحوائط، أو يرخوا رؤوسهم لجز الشعر، وجلودهم للحك، ولا يشتروا كتباً للطهو الأرستقراطي من أي مكان أبداً. حملت الرسائل رائحة الطمي الشره للإنبات، وآلام النخل المتهاوي من عروقه، ومبيت آل سمارة العريقين جائعين لليالي عدة، وحتى كشف الديون الذي نسقه دائنون وتجار سوق أسود، والعبوس الذي طرأ على سحنة النيل، حملته.

الغرباء بالفتح غير الأكيد، وعلامات النصر المعوجة في أصابعهم، لا يزالون؛

والبلدة بالعسل الضبابي المتآمر، الذي يضخ من النحل الأربعيني الثمل، لا تزال؛

والنص مكتوب بدقة، لا يغيرها اختفاء جرذ الوقائع، ولا تهون من قدرها النقاط وعلامات التعجب والاستفهام التي سكنت مستقرة في فراغ شاطر والمحجوب. جاء شهر إبريل الكذاب، كذب على الشمال بتشفٍّ، أعطاه القريب، وكذب على الشرق بتشفٍّ أعظم، أعطاه الغريب ومضى. جاء مايو الخفيف الظل، غرس خفّة ظله، أضحك الشمال بشدة، زوّده بالعودة المرتقبة، والشرق بشدة أكثر، زوّده بالسكنى المستديمة ومضى. جاء أغسطس الحرارة والعرق، قلى وحمّر وشوى وبخّر، ومضى، وسبتمبر العودة إلى المدارس، أعاد حصص العلوم والدين والجغرافيا، ونوفمبر الهواء المنعش، أنعش هنا وهناك. جاءت سنة كبيسة كبست على الضحاءات بشدة، والقيلولات بشدة، والأشجان حتى اختنقت، وسنة بسيطة تبسّطت حتى في ردمها للهوات، فلم تردم أي هوة. ثمة يباب ومطر، وتصحر، واستبدال لملابس العراك وأسلحته، وقفز عدد غير قليل من العرّافات إلى الجذوة المشتعلة، من الشمال والشرق، وبنكهات سحر مختلفة. ذهول في المشي والنوم، والتسلية، وفي رؤية الأهلة، ونسب الأنساب، والأعياد.

النص الآن مفتوح على مصراعيه، مفتوح بلا أي باب يغلق حبر اندلاقه، ولا نافذة تصدّ وجع حروفه، ضائع هكذا في العراء... يمضي.

عبد النبي سمارة القادم من السودان الشماليّ يدخل البلدة الشرقية كمدرّس غريب عنها، فيكون سحر حوريّة المصلح بانتظاره ليحمله إلى مصير لم يتوقّعه.

إنّها حوريّة الحضرميّة التي امتزجت أصولها الحضرميّة والغجريّة بجمالها الأخّاذ لتغدو أقرب إلى ساحرة أسطوريّة يقع كلّ من عرفها في حبائل شهوتها.

بأسلوب الواقعيّة السحريّة يروي أمير تاج السر الحكاية، حيث يختلط الواقع بعوالم غامضة تشرّع بوّابات متعدّدة للمخيلة والحلم، وتتيح التلصّص على خفايا أبطال متجذّرين في أرضهم.

أمير تاج السرّ روائي سوداني. يعمل طبيباً للأمراض الباطنية في قطر. كتب الشعر مبكراً، ثم اتجه إلى كتابة الرواية في أواخر الثمانينيات. وصلت روايته «صائد اليرقات» إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية ٢٠١١، وتُرجم عدد من أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية. صدرت له عن دار الساقي رواية «إيبولا ٧٦».

ISBN 978-614-425-743-2



